

سارة سيف الدين

جهاد ما ضحي

رواية



رواية حصاد ماضي

بقلم
سارة سيف الدين

المقدمة

"الآن تعترفي بذنبك.... أسف يا من كنت حلمي...
الآن عرفتي قيمتي.... فات الوقت.. وأخذت العهد...يجب أن تندمي
نعم ستندمين...
لا تتصوري أنني سأنتقم.. ولكني أعرف أن الله معي لهذا ستندمين..
لم أخطيء يوماً في حقك...
عاماً كاملاً عشت معك... فهل كنت لك إلا زوجاً مخلصاً.. وأباً
حنوناً.. وأخاً كريماً..
وبعد ذلك كله تطعنيني في كرامتي.... والآن تريدني العوده...
أسف ... سأتعلم كيف أنساك... وستعود لي ثقتي بنفسي..
بدونك.. نعم بدونك.. سأعيش وأنجح...
أعلم أن حبي الكبير لك لم يخف عليك ولكن اعلمي أيضا بسبب
هذا الحب الذي أسأتي إليه لن أعود..
أبعد أن عشت في حلمٍ نسجته بخيالي فلم تستطع إلا أن توقظيني منه
على كابوس بشع فأعرف لأول مرة أنني قد أخدع بسهولة ولا أقدر
على قراءة مشاعر الآخرين حتى المرأة التي عشت معها في بيتٍ واحد.
والآن تريدني أن أعود....
لم أتصورك بهذه الأنانية... أحق تريدني أم تريدي أن تداوي
كرامتك المجروحة؟!
سبحان الله... كلانا عاش وهم والنتيحت... وحدنا تألمنا دون
غيرنا.
أسف.... لن أستطيع أن أقدم لك شيء... فبفضلك... فقدت كل
المشاعر الطيبة التي يمكنني أن أقدمها..
وإذا كان قلبي أصبح محطماً.... فسأعيش به هكذا إلى أن يشاء الله
لي مخرجا..
وفي النهاية.. وحدك ستندمين."
ياسين

.....

طوت الرسائل وعبراتها تنهال على خديها، أخذتها بحرص لتضعها في صندوقها الصغير الخاص، كانت حريصة بسبب قدم الرسائل التي بدت وكأنها تستغيث بلون ورقتها المصفر معلناً مرور العديد من السنوات على وجودها.

ما أن أطمأنت بسلامة الرسائل في مكانها حتى وقفت أمام مرآتها تمرر أناملها على تجاعيد وجهها التي حضرتها السنين على ملامحها وحدثت نفسها:

"هل تصدقي رجاء...مر ٢٥ عاماً على تسلمك تلك الرسائل منه...كم تمنيتي لو عاد لك وسامحك...ولكن كيف تلوميه وأنت المخطئة في حقه وحق نفسك..."

زفرت في حرارة، لتمسح عبراتها التي طالما تغزو وجهها ليلاً...عندما تختلي بنفسها وذكرياتها، ويالها من ذكريات. أسرعت الى الفراش وأدثرت بغطائها لدى سماعها خطوات عند الباب تلتها طرقات رقيقة.. لم تجب.. ادعت النوم، ففتح الباب في هدوء ليطل منه شاب في منتصف العشرينات يحمل وجه ذو بشرة خميرية تطابق بشرتها، وعينان زيتونيتة تختلف كثيرا عن عيناها السوداوين وذو ملامح هادئة. ابتسم عندما تأكد من نومها فهمس بحنان:

- نوماً هنيئاً أمي.

أغلق الباب خلفه، بينما كتمت أمه نحيبها الذي كاد أن يكون مسموع وأغلقت عيناها بقوة:

- سامحني يا بني... أتمنى حقاً أن تسامحني.

واستمرت عبراتها في الهطول لتشاركها وسادتها ملوحة دموعها ... والتي يبداً وكأنها أعتادت الامر وأصبح أشبه بسقاء لها كل ليلة.

.....

كان الشمس تغمر السماء وتمر بقوة الى ساحة الغرفة التي تطل على النافذة التي اقتربت هدى منها للمرة العاشرة:

- لقد تأخر.

ابتسمت رجاء لقلق هدى على ابنها أكثر منها، ولكنها اعتادت هذا فمنذ أن أرضعته هدى معها وهي تعتبره ابنها فعلاً وكثيراً ما كانت تتشاجر مع رجاء على أسلوب تربيتها له، لكن رجاء كانت عنيدة كعادتها ورفضت الاستماع لأحد.

- اهذي هدى... هو أصر على أن يخبرنا بالأمر بنفسه ووجهاً لوجه وليس على الهاتف... لن يتأخر كثيراً.

تنهدت هدى قائلة:

- لا أصدق.. أنكما ستسافران وتتركانا... كيف سيمر على اليوم دون أن أرى عمير أو أسمع صوته.

- لا عليك... سنتصل بكم دائماً.

التفتت إليها وقد عقدت حاجبيها:

- أشعر بأنه سيعاني هناك.

فهمت رجاء ما الذي تعنيه لكنها ادعت العكس، ومنحتها نظرة متسائلة فأردفت هدى:

- أصرارك على تربيته بأسلوب متشدد، سيؤثر عليه كثيراً.. عندما ينتقل فجأة ليعيش في بلد أجنبي.

هزت رجاء رأسها :

- أبني ليس متشدد... أنا فقط أريده أن يحذر في تعامله مع الجنس الآخر... ما التشدد في ذلك؟!

- وتصورتي بهذه الطريقة أنك ستحميه من الخطأ الذي وقعتي فيه أنت.

عضت هدى أسنانها ولامت نفسها كثير على جملتها تلك بعد رؤيتها لعلامات الالام التي ارتسمت على وجهها أعز صديقاتها ولمعان عيناها بالدموع، فأسرعت إليها تضمها لصدرها:

- أسفرت رجاء... سامحيني أرجوك... لم أقصد ما قلت... لا أعرف أصلاً كيف قلته.

رفعت رجاء رأسها لتتنظر لصديقتها والدموع تملأ عيناها:

- ولم تعتذري؟!... لقد قلت الحقيقة.. نعم... أردت أن أحميه من الخطأ الذي وقعت فيه.

مطت هدى شفيتها ومسحت دموع صديقتها :

- لا عليكِ رجاء... ربما اختلف معكِ في هذا... لكني واثقة أنك ربيتي شاب رائع... سيفخر أي شخص بنسبه إليه.

لم تضيف ايتها المزيد ، بل الصمت سار الصاحب لهما في لحظات انتظارهما ، كم كانت تشعر هدى بالأسى على رفيقة دربها ، كانت معها منذ البداية وظلت معها للنهاية تعلم أن رفيقتها أخطأت.. ولكنها تعلم أيضاً كم ندمت على هذا الخطأ.. وكم دفعت ثمناً له.. سنوات مرت ظلت تلوم نفسها وتحاسب روحها ، برغم اصرارها على عدم الحديث عن الماضي خاصة مع ابنها .. لكنها لم تنسى هذا الماضي أبداً.. ولو للحظة.

أرادت هدى أن تعيد الاجواء لطبيعتها فلوحت بكفيها ضاحكة:

- ما هذا الحزن الذي أنت فيه؟! نحن في انتظار خبر هام وسعيد.
التفتت إليها رجاء:

- أنا مطمئنة عليه... وأعلم أنه سيحصل على هذه البعثة إن شاء الله.

- أما اااااااااا... أين أنت؟!

تهللت أسارير هدى :

- عمير..... لقد عاد.

أسرعت هدى وخلفها رجاء لتستقبلا عمير الذي تغمر وجهه سعادة لا

نظير لها وما أن رأى هدى حتى فتح ذراعيه لها ليضمها إلى صدره:

- أمي هدى أنت هنا .. رائع ، كم أحب أن تعلمي الاخبار السعيدة مع أمي في وقت واحد.

ربتت هدى على ظهره قائلة في حنان:

- وكم يسعدني أن أراك سعيداً.

منحها أرق وأعذب ابتسامه ثم نظر لأمه واقترب منها مبتسماً:
- أماه... الحمد لله يا أماه، لقد تم ترشيحي للبعثة.
ابتسمت رجاء وضمته إلى صدرها في حنان قائلته:
- حمدا لله يا ولدي... كانت ثقتي بالله كبيرة... أنت تستحقها.

.....

الفصل الأول

سار عمير بصعوبة من بين المصلين المغادرين للمسجد بعد صلاة
الجمعة وما أن لمح شخصاً حتى نادى عليه:
- أبي عاطف.. أبي عاطف... أنا هنا.
التفت عاطف للصوت فرأى عمير مقبلاً نحوه، ابتسم لمرآه ولكن
سرعان ما اختفت ابتسامته ليحل محلها نظرة عتاب حتى وصل إليه
عمير الذي طأطأ رأسه خجلاً:
- لقد حاولت أن ألحق بك... ولكنني تعطلت في الصباح بعض الشيء
وعندما ذهبت إلى المنزل أخبرتني نيرة أنك غادرت إلى المسجد ...
أسف ... حقاً أنا أسف.. ولقد حاولت أن آتي إليك في الصف الاول
ولكن لا يحق لي تخطي الرقاب.
ظل عاطف يحدق بوجهه وقال بنبرة حزينة:
- إنها آخر جمعة.. كنا سنصليها معاً قبل سفرك.
- أعلم... أرجوك أبي سامحني.
- لا بأس هيا بنا اعتقد أن الجميع في انتظارنا.... لقد أعدت لك
هدى وليمة كبيرة بمناسبة سفرك أنت ورجاء ولكم يحزننا أن
تفارقونا كلاكما هكذا.
- نفس ما يحزنني يا أبي... فلكم سأفتقدكم جميعاً ، لقد كنتم
نعم العون لي ... عائلة لم أتمنى أفضل منها.
- بل أنا الذي كافئني الله بك.... فلم يرزقني الله إلا بالبنيات فكنت
أنت ابني الذي لم أنجبه.
- وأنا مدين لك بالكثير يا أبي ... فلم أشعر بحرمانني من أبي
بوجودك.

جفلت عينا عاطف وشخص ببصره بعيداً وكأنه يخشى النظر لوجه عمير الذي لم يفاعاً بهذا التصرف فهذا ما يفعله الجميع حين يذكر أباه... أمه وأمه هدى وأبوه عاطف.... لكن هذا الامر لم يعد يؤثر فيه كثيراً... صحيح أنه في الماضي كان يضايقه، لكن سرعان ما اعتاد الأمر خاصة أن أمه كانت تبكي كلما ذكر أباه وهو كان يكره أن يرى دموعها..لذا قرر التوقف عن الحديث في الأمر... هو لم ير أباه أبداً..بل علم أنه ولد بعد أن ترك أمه...وهذا هو كل ما يعرفه عن هذا الأمر...لكن ما الأسباب..لا أحد يريد الحديث في الأمر.

- وصلنا.... يا فتى.

أخرجه صوت عاطف من بحر أفكاره فنظر له مبتسماً ليصعدا إلى المنزل الذي كان يقضي فيه معظم وقته.

.....

جلس عمير أمام صبيه تصغره ببضع سنوات تعبت بأصابعها وارتسم على وجهها الكثير من الحزن فقال في صوت رقيق:

- لا أحب أن أراك حزينة نيرة.

رفعت عيناها إليه فراها تتلألأ بالدموع:

- لا تتركنا أخي أرجوك.. ابق معنا.

- تعلمين نيرة أنني ما كنت سأغادر البلاد لولا أن لهذا فائدة لي ولمن حولي.

- لكنك لن تعود.

عقد حاجبيه قائلاً:

- من قال هذا... سأعود إن شاء الله.

- الكثير يغادر البلاد ليتعلم في الخارج ولا يعد.

ابتسم هامساً:

- أعدك أن أعود.

رمقته بنظرة شك فأتسعت ابتسامته:

- هل سبق أن وعدتك بشيء ولم أف به؟

هزت رأسها نضياً فأردف قائلاً:

- إذاً لا تقلقي.... سأعود فور انتهاء الدراسة.
لوحث بكفيها متذمرة:
- وستأخذ معك أيضاً خالتي رجاء.
- كنت أتمنى أن أأخذكم جميعاً معي ولكني لا أستطع، كما أنني لا
يمكن أن أفارق أمي أبداً.
قامت نيرة ووجهت لكمة لكتفه قائلة:
- ولكن يمكنك أن تفارقنا نحن..صحيح؟!
- نيرة أنت تعلمين أن علاقتي بكم ليس بها ما يخرجني فأنا أخوكم
بالرضاعة ووجودي معكم لا حرج فيه والوضع يختلف مع أمي بسبب
أبي عاطف وإذا تركتها هنا ستقضي الكثير من الوقت وحدها كما أن
حالتنا المادية تسمح لنا بالسفر وبالتالي لا مشكلت.
" أنتم... هيا الطعام جاهز".
- كم سأقتقد صراخ نبيلت.
ردد عمير ضاحكاً ثم وقف قائلاً:
- سأسبقك إلى مائدة الطعام.
وانطلق وهي خلفه ضاحكاً.

.....

وفي انجلترا

لم تكن البداية سهلة، حياة جديدة تماماً كان عليهما التأقلم عليها،
حاولت رجاء بكل جهدها مساعدة ابنها على التأقلم والتركيز في
دراسته، حتى نجحت في هذا..ولكن الامر لم يسلم طويلاً... فلقد
كان عمير دائم الشكوى من الدكتور المسئول عن رسالت الماجستير
خاصته حيث لا يعجبه عمل عمير البحثي على الاطلاق.

ألقي بحقيبته السوداء على الأريكة وتبعها بجسده وهو ينفخ في ضيق
فنظرت له أمه قائلة:

- لا تنفخ هكذا.... ما الذي يضايقك؟!

نظر لها عمير مجيباً:

- وما الذي تتصورى أنه يضايقني؟

- دكتور جوزيف مرة أخرى!!

- نعم هو.... أكاد أجن لم يكرهني هكذا!! الغريب أنني تأكدت

أنه مسلم ومن أصول عربية أيضاً لكن لم يعاملني بكل هذا الجفاء

بينما لا يفعل مع الطلبة الآخرين.. هل لدية عقدة ما من العرب؟!

ابتسمت رجاء :

- لا أعتقد ذلك... وليس من المفروض أن تحكم عليه ، فأنت لم تبدأ

معه إلا منذ أسابيع قليلة، كما أنك قلت أن طلباته الكثيرة من

أبحاث وتقارير تضيدك.

- هذا صحيح.

وقفت لتتجه للمطبخ :

- عليك أن تحاول أن تصبح أفضل مما يتصور.

تركته لإعداد الطعام بينما ردد هامساً:

- لا أعتقد ذلك سيكون سهلاً.

.....

جلس عمير أمام مكتب دكتور جوزيف الذي كان يطالع آخر بحث

كافه به ، كان كل ما يفكر به هو كم العيوب التي سيخرجها من

بحثه فلم يحدث أن أعجب دكتور جوزيف بأي من أبحاثه ، والمشكلة

الحقيقية هي طريقة حديث دكتور جوزيف والتي لم تكن تعجب

عمير على الاطلاق.

رفع جوزيف رأسه ليرمق عمير بنظرة طويلة ثم قال في ضجر:

- أعتقد أنني كنت أقول على أبحاثك السابقة جيدة ولكني لا أريد

إلا الممتاز ، فإذا بك تأتي لي بهذا البحث الذي لا يستحق سوى مقبول.

عقد عمير حاجبيه:

- مقبول.. لماذا البحث متكامل.. ولا..

قاطعه جوزيف صائحاً:

- أنت الذي ستعلمني كيف أحكم على ما هو أمامي؟!... اسمعني جيداً يا هذا... ما قدمته لي الآن يستطيع أن يقدمه لي أي طالب في السنة الأولى عندي وليس أحد الدارسين للحصول على درجة الماجستير.

وقف ليأقي بالبحث أمام عمير مستطرداً:

- البحث المتكامل الذي نتحدث عنه يختلف كثيراً عن هذا، وإن كنت تتحدث عن عناصر بحثك.. فالجواب نعم هي متكاملة لكن كأي بحث لأي شخص لا يملك عقلاً ليفكر به أو يبتكر ويبدع... أنا لا أرى شخصيتك في هذا البحث لا أرى سوى معلومات وحقائق منقولة ولكن مرتبه بشكل جيد..... أين الإبداع في هذا؟! وقف عمير يلتقط بحثه في ضيق واستدار ليغادر المكان وقبل أن يفتح الباب استوقفه صوت جوزيف:

- سيد ياسين...

التفت إليه بوجه متجهم فأردف قائلاً:

- عليك أن تعلم أنك تدرس في مكان مختلف، وأنا لن أفعل كما كان يفعل أساتذتك وأقف مبهوراً بما تقدمه لي وألهب يدي بالتصفيق لك، أنت في دوله متقدمة وليس في دوله من دول العالم الثالث. لم يعلق عمير بل ظل يحدق في وجهه فأشار له بالخروج مكملاً:

- يمكنك الانصراف.

خرج عمير وهو يكاد ينفجر من الغيظ والضيق وأخذ يردد:

- حسناً دكتور جوزيف.. ستعلم أنني جدير بوجودي في هذا العالم المتقدم.... يا إلهي لا أعرف لم يعاملني هكذا وكأنه يكرهني!.

- ليس صحيحاً.

تسلل هذا الجواب إلى أذنه فاستدار مندهشاً ليرى محدثه فوقعت عيناه على فتاة شابة، ملامحها غربية تماماً مما يؤكد أنها ليست عربية وسبب دهشته أن كلماته السابقة قالها بلغة عربية صريحة والأكثر دهشة أنها أجابته بلغة عربية صحيحة تماماً باستثناء اللكنه

الانجليزية التي أقت بظلالها على كلاماتها القصيرة. وان لم تستمر دهشته طويلاً... فقد قلت برؤيته للحجاب الذي على رأسها.

وقفت تنظر له بابتسامة هادئة على شفيتها قائلة:

- يفضل أن أقدم نفسي أولاً... آنسة يوسف.... ريم يوسف، طالبة

بالسنة الثانية بكلية الهندسة وأدرس تحديداً الهندسة

الالكترونية... أما أنت فاسمح لي أن أضمن دارس في كلية العلوم

وتحضر للماجستير وبما أنك خارج من مكتب دكتور جوزيف فأنت

بالتأكيد تخصصك في علوم النواة والذرة صحيح؟!!

أوما عمير برأسه وما زالت معالم الدهشة على وجهه فابتسمت ريم قائلة:

- لن استطيع أن أضمن اسمك بالتأكيد.

صمت قليلاً فلم يعجبه جراتها في الحديث معه، لكنه لم يجد مفر من

أجابتها:

- اسمي !... عمير ياسين.

- مرحبا بك سيد ياسين

لم يجبها بل ظل يحدق في وجهها فاتسعت ابتسامتها أكثر وكأنها

قرأت ما يدور برأسه فقالت:

- أرجو المعذرة ..لم أكن أقصد أن أقتحم حديثك مع نفسك....

ولكن ما أن أسمع اللغة العربية حتى أرهف سمعي لها من شدة حبي لها

واشتياقي لسماعها.

أراد الانصراف فهو لا يجد داعي للبقاء معها ، لكنها أوقفته بقولها:

- أتحب أن تلتقي بكل الطلبة العرب والمسلمون هنا؟!!

صمت للحظة فهو بالفعل ليس له أصدقاء بعد... فوجد أنها فرصة

جيدة فأوما برأسه دون أن يقل شيء، فأردفت:

- حسناً... نحن جميعاً سنلتقي اليوم بعد الساعة الخامسة في الساحة

الخلفية يسعدنا أن تنضم إلينا وستلتقي بكثير ممن عملوا مع دكتور

جوزيف وسيساعدونك كثيراً..... سعدت بلقاءك.... السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

رد التحية وتابعها حتى اختفت من أمامه، هز رأسه ليغادر المكان، هو ليس معتاداً على التعامل مع الفتيات عامة اللهم أخوته من الرضاة، هكذا علمته أمه وهكذا اعتاد حياته.. كان يعلم أن هذا لن يكن سهلاً في بلد أجنبي لكنه قرّر أن عليه التعامل مع الأمر في حدود ما يضطر إليه.

.....

ما أن جاءت الساعة الخامسة حتى أسرع للساحة الخلفية فوجد هناك العديد من التجمعات ولم يكن صعب عليه أن يجد التجمع الخاص بالمسلمين حيث رأى مجموعة ليست بالكبيرة ولا الصغيرة من فتيان وفتيات اقترب منهم وما أن رآته ريم حتى قالت:
- فليرحب الجميع بأخيينا الجديد..... الأخ عمير.
أخذ الجميع يرحب به وتبادلا كلمات الترحيب والتعارف فوجد منهم من هو عربي الجنسية ومن هو عربي الجنسية لكن السمة المشتركة بينهم أنهم جميعاً مسلمون وكانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها هذا الكم من مسلمي الغرب إلا أنه لم يستطع أن يستسيغ هذا الاختلاط الصريح بينهم، لكن هذا كان من الأمور الذي كان عليه تقبلها كي يستطع التحرك في هذه البلدة، ففي بلده كان يستطيع ان يبتعد بنفسه عن أي اختلاط بمصادقة الشباب الذي يفكرون مثله أما هنا... فهذا أمر شبه مستحيل.

قدم له أحد الشباب طبق به طعام قائلاً في مرح:

- تفضل يا أخ عمير.... فالיום هو يوم الطعام المنزلي الجيد حيث تأتي الفتيات به من منازلهن ليكون اليوم الوحيد في الاسبوع الذي يرحمنا الله فيه من المعلبات.

قالت إحدى الفتيات:

- نعم ... ولكنكم لا تقدمون لنا شيء أبداً.

ضحك شاب آخر قائلاً:

- كيف تقولين هذا؟! نحن نقدم لكن الحماية... فلا يوجد أحد هنا يجراً أن يتعرض لأيكن بسوء والا لقناه درساً لن ينساه.

تعالت ضحكات الشباب لتأييد هذا القول ثم انشغلوا جميعاً بالطعام
أما عمير فقد كان يراقب الجميع... نظر إلى حيث توجد ريم وأراد أن
يسألها عن من الشباب قد يساعده في التعامل مع دكتور جوزيف فهذا
هو شغله الشاغل وربما شعرت ريم بذلك فاقتربت منه قائلة:

- ماذا بك؟!

- لا شيء ، قلتي أن من هؤلاء من تعامل مع دكتور جوزيف فهلا رشحتي

لي أحد أتحدث معه؟!

- من الفتيان أم من الفتيات؟!!

عقد عمير حاجبيه قائلاً:

- من الفتيان طبعاً .

لم تفهم ريم سر تحفزه في الاجابة على هذا السؤال لكنها أشارت إلى
شاب يجلس بعيداً قليلاً عن تجمعهم :

- هذا جاسر ... هو شاب هاديء كما ترى وأحدث من تعامل مع دكتور

جوزيف فقد كان تلميذه العام الماضي... يدرس بكلية العلوم أيضاً

ولكنه يصغر ك بعض الشيء فهو مازال في السنة الثانية واستطاع أن

يتفوق على الجميع السنة الماضية وحصل على أفضل التقديرات

خاصة في مادة الفيزياء التي يُدرّسها دكتور جوزيف.

اتجه إلى حيث يجلس هذا الشاب الذي ما أن شعر به حتى ابتسم له

فبادله عمير الابتسامه قائلاً:

- هل تسمح لي بالجلوس معك؟!

- بالتأكيد .

جلس بجانبه قائلاً:

- اسمي عمير..وأنا من مصر

أوما جاسر برأسه لتحيته وقال:

- وأنا جاسر...من فلسطين ..أهلا بك؟!

وضع عمير الطبق الذي بيده قائلاً:

- هل تسمح لي بسؤال؟!

- تفضل.
- هل أنت مغترب أم تعيش هنا؟!
- وما الفارق الذي قد يصنعه شيئاً كهذا؟
- ابتسم بود:
- أنا فقط أتبادل معك الحوار.
- لا لست مغترب أنا أعيش هنا منذ أن كنت في الخامسة عشر من عمري.
- حقاً وما الذي دفع والديك للهجرة إلى هنا؟
- لم يتوقع عمير أن تكن هذه الكلمة لها هذا التأثير على جاسر فقط ارتسم على وجهه معالم الحزن الشديد مما أربك عمير:
- أسف... يبد وأنني خضت فيما ليس لي.
- لم يعلق جاسر فقال عمير ليغير دفء الحديث:
- علمت أنك طالب بكلية العلوم..فماذا تدرس يا ترى؟!
- صمت جاسر قليلاً ثم قال:
- علم الجولوجيا.
- مهم... علم الأرض... ولما اخترت هذا التخصص بالذات؟
- صمت جاسر قليلاً ثم قال بصوتٍ بد مختلفاً:
- أنا من الناس الذين عرفوا معنى الأرض معنوياً..... وأحبت أن أعرف قيمتها مادياً، فالأرض ليست مجرد طريق مستو نمشي عليه.. بل هي تعني الكثير ولكن للأسف... القليل يعرف ذلك.
- ظل عمير ينظر إلى وجهه وشعر بكم الحزن الواضح من صوته إلا أنه لم يرد أن يخوض في ذلك فلقد شعر أن جاسر يريد الاحتفاظ بذلك لنفسه فقال:
- معك حق... أنت تعرف دكتور جوزيف إذن.
- ابتسم جاسر قائلاً في امتنان:
- بالتأكيد أعرفه... إنه لمن دواعي سروري أنني كنت تلميذه فلقد تعلمت منه الكثير.
- قال عمير مندعساً:

- حقاً... غريب!!
- وما الغريب في ذلك؟!
- أنا أعاني منه كثيراً.
- ضحك جاسر قائلاً:
- لأنك في البداية فقط .. أنا أيضا عانيت وتصورت أنه يكرهني .
- هذا صحيح...هذا ما أردده أنا أيضاً.
- تطلع إليه جاسر مبتسماً :
- لا تقلق سرعان ما تعرف أن كل هذا لمصلحتك وأن حرص دكتور جوزيف عليك لا مثيل له.
- كيف؟... إنه لا يعجب بأي شيء أفعله وكثيراً يردد أنه لا يقبل بأقل من ممتاز.
- هذا صحيح هو لا يقبل بأقل من ممتاز.
- ماذا يمكنني أن أفعل إذا؟!
- كل ما عليك هو أن تفهم منطق دكتور جوزيف.
- ساعدني بالله عليك.
- دكتور جوزيف يكره أن يرى شخص عربي غير متفوق.
- ضاقت عين عمير وأنصت لجاسر الذي قال:
- أنا مثلاً عندما إلتقيت به كنت مهمل في دراستي بعض الشيء وشعر هو بذلك فبدأ يضايقني كثيراً بطلبات وأبحاث دون غيري من زملاء وعندما نظرت حولي وجدت أنني العربي الوحيد مما زاد حيرتي.. لم يفعل هذا معي؟! فتجرات وذهبت إلى مكتبه لأسأله.
- اتسعت عينا عمير قائلاً:
- تسأله... عن ماذا؟!
- لم يسيء معاملتي؟!
- وماذا قال؟
- إلتزم جاسر الصمت وهو يعود بذاكرته فهزه عمير قائلاً بترقب:
- ماذا قال؟!
- ابتسم جاسر قائلاً:

- جعلني لأول مرة أرى الامور بصورة مختلفة مما جعلني والحمد لله من المتفوقين.

- أكمل.

قالها عمير في لهفة، فأكمل جاسر:

- أكتشفت أن كل ما يفعله هو أفضل طريقة لتقدمي فعلاً، هو يكره الفشل خاصة اذا كان لعربي، رأيت أنه يحمل همنا كثيراً وكأنه في تحدي من نوع خاص يريد أن يثبت للجميع أن العرب ليسوا أغبياء وأن النابغين فيهم ليسوا طفرات كما يرددها البعض له، صحيح أنه يكون قاسياً... لكنه في النهاية يريدك أن تثبت للجميع أن العقول العربية عقول واعدة مادامت لاقت الاهتمام الكافي.

أنهى جاسر كلماته التي استمع لها عمير جيداً فردد:

- ولم القسوة لم ليس أسلوب آخر؟!

- بعد الذي سمعته منه لم أهتم بإلقاء هذا السؤال رغم أنه طرق ذهني. ابتسم عمير قائلاً:

- على كل حال أشكرك كثيراً، فلقد أفادني الحوار معك....

ويسعدني أن نلتقي ثانية.

- إذا أتيت إلى هنا كل أسبوع مثلما يفعل الجميع... إن شاء الله سنلتقي ثانية.

.....

الفصل الثاني

كرر عمير الذهاب لتلك التجمعات الأسبوعية، حتى صارت أفضل وقت يقضيه على الإطلاق، فلقد تقرب كثيراً من جاسر ووجد فيه عوضاً عن أصدقاءه الذين تركهم بوطنه، وكذلك تعرف على الكثير من الشباب لكن كان جاسر الأقرب له دائماً حتى صار لا يفارقان بعض مادام الوقت يسمح بذلك، ولكن هذا ليس كل شيء، فهناك أمر آخر بدأ يشعر به، ريم يوسف.. هذه الفتاة العجيبة، هكذا يراها.. تجيد الحديث وتمتلك القدرة على اجبارك على الاستماع لها،

لم تكن أحاديثها تافهة بل أحيانا تحدثه في مجال دراسته نفسه، مما أكد له أنها من عائلة علمية بحتة، وهذا كان يجبره على الاستمرار في الانصات لها ورويداً رويداً أصبح الامر أكبر من مجرد استفادة بل بات يميل للأستماع لها وانداهش من نفسه عندما لاحظ كيف يتأمل وجهها عندما تتكلم، أو تضحك..أو تبتسم...خاصة لو كانت هذه الابتسامته له، لم يستطع تفسير المشاعر التي تصيبه عندما تبتسم له، مشاعر لو منحها اسماً لكتفى بقول أنها مشاعر جميلة ولكن مهلاً.... وهنا دق جرس إنذاره الشخصي ووجد أنه لا بد وأن يتوقف والا سيفتح باباً يصعب إغلاقه، هو لم يأتي هنا ليتعلق بالفتيات وإنما ليتعلم...ولن يسمح لأي مشاعر جانبية أن تعطله عن هذا.

.....

سار في خطوات سريعة متجهاً للمبنى الذي به مكتب دكتور جوزيف، كانت ملامح السعادة مرسومة على وجهه ممزوجة بنظرة ثقة قوية فيها هو يحمل هذه المرة بحث تناوله بأسلوب جديد وبالتأكيد سيبهز دكتور جوزيف، إلا أن هذه الملامح تغيرت وعقد حاجبيه متطلعاً لريم التي كانت تقف عند بوابة المبنى تتلفت حولها وكأنها تبحث عن شيء ما:

- هذه الفتاة مرة أخرى!.

سار في طريقه بخطوات سريعة واسعة وكانه لم ينتبه لها... إلا أنه توقف وارتد للوراء صائحاً:

- ما هذا؟!!

فلقد قطعت ريم طريقه فجأة حتى أنه كاد أن يصطدم بها ، قالت:

- لم تسير بهذه السرعة؟! ألم تراني؟! كنت أبحث عنك.

حدق عمير في وجهها للحظة ثم قال في حنق:

- كيف تعترضين طريقي بهذا الشكل؟! لقد كدت أرتطم بك و...

- لم يحدث شيء...، المهم تجمعنا سيكون اليوم وليس الغد.

هدأ عمير من روع نفسه ، وهو يكتم غيظه قائلاً:

- لماذا؟!!

- لأننا سنذهب إلى المركز الاسلامي حيث سيعلم اليوم اثنان من رفاقنا إسلامهم.
- حقاً!!
- نعم... والمراسم ستكون اليوم ويجب أن نكون معهم ..أحب أن تأتي؟
- بالتأكيد.
- حسناً... لقاءنا اليوم ..لا تتأخر.
- التفتت لتغادر المكان وعاد هو لطريقه إلا أنها أوقفته قائلة:
- عمير.... أعلم أنك رأيتني ومع ذلك أردت أن تتخطاني... ولكني لا أعلم السبب... ولا أريد أن أعلم.
- وقبل حتى أن يفتح شفثيه غادرت بسرعه، مط عمير شفثيه تلتته شبح ابتسامته اندثرت سريعاً وعاد إلى طريقه.

.....

- هذا مستواه جيد.
- قالها جوزيف في هدوء بعد أن طالع البحث المقدم من عمير الذي عقد حاجبيه مردداً:
- جيد.
- رفع جوزيف عينيه قائلاً بنبرة باردة:
- نعم.... ماذا تريدني أن أقول؟!..... أخبرتك ألا تتوقع الكثير، فأنت غادرت دولتك فلتعي ذلك.
- أخذ عمير نفساً عميقاً ليتماسك قبل أن يقول بنبرة لم تبد وهادئة:
- أعلم جيداً أين أنا دكتور.... فلا داعي لتذكيري طوال الوقت، وأنا لا أريد أكثر مما أستحق.
- وأنا لا أعطيك أكثر مما تستحق.
- ثم سكت لحظات مضيافاً:
- ولا أقل.
- وقف عمير واتجه للباب قائلاً:
- لا فائدة.

- عمير.

قالها جوزيف مردفاً:

- لولا أنني أعلم أنه يمكنك أن تقدم أفضل من هذا لما أبقيتك معي.

مط عمير شفتيه قائلاً:

- معقول... لم أتصور أنك تنظر لي بإيجابية أبداً.

عاد جوزيف ينظر في أوراقه قائلاً:

- هذا شأنك... فلتتصور ما تشاء... يمكنك الانصراف.

حدق عمير به للحظات وتمنى أن يصيح في وجهه أن هذا الأسلوب ليس الأفضل كما يتصور لكنه أثار الصمت وأغلق الباب خلفه.

.....

جلس عمير يصف لأمه ما قد رآه في المركز الإسلامي، ابتسمت للسعادة التي كان يقص بها الأمر وهو يحمد الله على نعمته الإسلام متمنياً لو كان له دور في إسلام أياً من هؤلاء خاصة بعد أن رأى دموعها تنهال من عيونهما بعد نطق الشهادتين، لكن ما أرقها فعلاً هو ذكره لريم تقريباً بعد كل جملة، مطت شفتيها وهي تسمعه ينهي الحوار قائلاً:

- ريم هذه فتاة رائعة أمي... وجديرة بالاحترام.

لاحظ نظرة عينيها غير المريحة فقرر أن ينهي الحوار:

- حسناً.. أمي إسمحي لي سأدخل غرفتي.

- عمير... كنت أريد أن أذكرك بشيء.

عقد عمير حاجبيه فأمه لا تذكر هذه الجملة إلا إذا أخطأ في شيء أو فعل ما لا يليق به كمسلم، فقال:

- تفضلي يا أمي.

- أذكرك بغض البصر... حديثك عن ريم هذه زاد في الأونه

الأخيرة... اتق الله... وغض بصرك.

حدق عمير بوجهها قليلاً ثم حاول الابتسام مقترباً منها ليقبل جبينها هامساً:

- لا تقلقي علي أمي....لن أكون إلا ابنك الذي رببته.

استلقى في فراشه متطلعاً إلى سقف حجرته مفكراً في كلام أمه، لم يكن هذا يضايقه فلقد اعتاد على هذا..هكذا تربى.. "تجنب الحديث الى الفتيات بلا داعي...إياك ومصاحبة الفتيات..فلاسلام يحرم مصادقة الفتيات.."

كلمات سمعها من أمه كثيراً وأعتاد عليها...مما جعله يحدث نفسه... "....لا يا عمير يجب أن تراجع نفسك وتحاسبها قبل أن يحاسبك الله...حتى أمك لاحظت ... إذاً هناك مشكلة يجب أن تعالجها... أنت لم تغض بصرك عنها على الاطلاق والدليل على ذلك أنك تذكر معالم وجهها جيداً بمجرد التفكير فيها... كيف وقعت في هذا الخطأ بسهولة..."

- لكنني لا أستطيع أن أنكر أنها شخصية جديرة بالاهتمام فلم ألتق بضائه مثلها من قبل.

".. أفق يا عمير أنت لم تكن تسمح لنفسك بالحديث مع الفتيات من الاساس فكيف تقارن..."

- لكن الامر اختلف مع هذه الفتاة كثيراً.
" ... وهذا ما يجب أن تحترس منه..."

كان يحدث نفسه وكأن شخصاً آخر معه يجيبه وهذا ما يلجأ إليه عادة إذا حيره أمر..

- نعم أعترف هناك خطأ وسأعمل على إصلاحه.
" ... وهل ستنجح بهذه السهولة..."

- إن شاء الله.

"... لا تنسى أنها عادة هي التي تتحكم في أسلوب الحوار..."

- سأعمل على ألا يكون هناك حوار.. أي حوار.. هذا هو الحل الوحيد.

.....

مسحت رجاء دموعها المناسبة على وجنتيها كعادتها كل ليلة بعدما
قرأت الرسائل، كانت تحاول أن تنام ولكنها كانت تفكر في ابنها.
تذكرت كلام هدى عن خطأ تربيتها له بهذا الاسلوب، ويبدو أنها
كانت على حق.. فمع كل هذا الحرص يبدو أن ابنها سيسقط صريع
الحب... كم تمنيت أن تحميه من هذا.. ولكن تشعر أن ريم تلك تفسد
عليها الامر، تنهدت بحرارة ولاحت على شفتيها ابتسامة مريرة .
كم كانت سعيدة في شبابها وقت دق قلبها، لم تتصور أن مجرد
شعورها بالحب سيجعلها تحلق في سماء السعادة طوال الوقت، تذكرت
حين قالتها لها هدى رفيقة عمرها...
"عزيزتي أنت غارقة في حبه حتى النخاع" ...
وهل كانت تنتظر أن تخبرها هدى بذلك.. نعم هي أحبته.. أحبته
كثيراً... ولم تتخيل أنه يبادلها نفس الشعور... وعندما تأكدت من
هذا.. شعرت أنها ملكت الدنيا بحدافيرها، ولكن... فجأة ضاع منها كل
شيء.

أغلقت عيناها بعنف :

- توفقي رجاء... توقفي عن التفكير.

.....

تجمع الشباب كعادتهم في الساحة الخلفية وما أن رأى جاسر ريم حتى
أسرع إليها:

- ريم... ألم تر عمير؟!!

- تسألني أنا؟!... إنه زميلك أنت بالكلية والمفترض أن تراه أنت
وليس العكس.

ابتسم جاسر ناظراً خلفها:

- حسناً لا داعي للسؤال لقد حضر.

استدارت لتراه يقترب إلا أنه لم يتجه لهما وتوقف عند مجموعة

الشباب يحدثهم فقال جاسر:

- أشكرك ريم سأذهب إليه.

- وضع يده على كتف عمير فنظر إليه مبتسماً:
- أين أنت يا مهم؟!!
- مهم؟!!
- نعم ، أليس المهمين هم من يبحث عنهم الآخرين؟
- ضحك عمير قائلاً:
- في الحقيقة لم أكن أعلم أنك تبحث عني... وها أنا ذا.
- لاحظ منه لمحة لريم التي كانت تقترب منهما فعاد ينظر لجاسر الذي قال:
- ماذا ستفعل الآن؟!
- لا شيء .. جئت أسلم عليكم ثم أغادر.
- لم لا نتجول قليلاً .. مادام ليس لدينا شيء نفعله.
- وافق عمير وقبل أن يغادرا سمعا ريم:
- إلى أين؟.. لم يأتي الغداء بعد.
- توقفا وقال جاسر:
- أنا لست جائع ، ماذا عنك يا عمير؟!
- اكتفى بالنفي رأسه ، ابتسم جاسر لريم قائلاً:
- للأسف يا ريم سنحرمكم من تواجدنا معكم في وجبة الغداء.
- ابتسمت ريم ونظرت لعمير قائلة:
- كيف حالك عمير؟! منذ أن ذهبنا للمركز لم أراك.
- تطلع عمير لنقطة غير معلومة ليحجب:
- لقد انشغلت بعض الشيء واكتفيت بأن أقاكم هنا.
- لاحظ جاسر أن عمير يتحدث دون حتى أن ينظر لوجه ريم التي عقدت حاجبها قائلة بنبرة غاضبة:
- حسناً ... لا داعي أن أعطلكما أكثر من ذلك... بعد إذنكما.
- غادرا معاً وبينما يسيران في الطريق قال جاسر:
- لم تحدث مع ريم هكذا؟!
- كيف؟!

- لا أعلم..الاسلوب لم يكن ودي.
- لماذا... لقد أجبت على سؤالها بشكل عادي.
- لم تنظر لوجهها على الاطلاق.
- ليس من المفترض أن أنظر لوجهها.
- لماذا؟!؟
- حدق عمير بوجهه لحظات قائلاً:
- لكي أغض بصري.
- تغض بصرك.
- رددها جاسر وكأنه يسمعها لأول مرة... ثم كررها:
- تغض بصرك.
- قال عمير ضاحكاً:
- لم ترددها وكأنك لا تعرفها؟!؟
- هز جاسر رأسه:
- لا.... أنا أعرفها، ولكني لم أنتبه لمعناها من قبل، كما أنه من الصعب أن تطبقها هنا.
- لماذا؟!؟
- لأن من أداب الحوار هنا..أن تنظر في وجه من يتحدث إليك سواء كان رجل أو امرأة، كما أنهم يعتبرون عدم النظر للعين مباشرة لا يكون إلا لسببين إما أنك تخفي شيئاً أو تخشى شيئاً.
- صمت عمير قليلاً ثم قال:
- أعني هذا أن أتنازل عن أحد قواعد ديني لمجرد أنها لا تناسب أهل البلد التي أعيش بها، وماذا أدراني أنني لن أضطر لتنازل عما هو أكبر.
- بالتأكيد أنا لا أقصد ذلك...ولكن...
- قاطعه عمير:
- إسمعني جيداً يا جاسر....لكن.. هذه هي بداية كل شيء..بداية التنازل...بداية التراجع....وبداية فقد الهوية.. وأنا لن أفقد هويتي..واسلامي هو هويتي... وتعلمت أن أطبع المكان بطبعي لا

العكس. كما أن ريم التي تتحدث عنها مسلمة وأنت أيضاً وأنا يدهشني أن الامور بينكم كأهل البلدة بالضبط.

- نحن لا نخطيء في شيء.... ليس معنى أنني أتحدث معها أنني تنازلت عن ديني، كما أن ريم ولدت هنا وتربت هنا، ومن الصعب أن تفصلها عن العالم الذي حولها.

أمسك عمير بذراعه قائلاً:

- وماذا عنك يا من نشأ على أرض فلسطين... ألم تجد إسلام هناك؟!

لم يحدث أن ندم عمير على كلمته مثلما ندم على هذه فلقد انقبضت عضلات وجه جاسر وعقد حاجبيه ولمعت عيناه بالدموع واكتسى وجهه معالم حزن عميق أسرع عمير يربت على كتفه:

- أعذرتي يا جاسر.. لم أقصد... سامحني.

لم يلتفت إليه جاسر بل رفع كفاه إلى وجهه ليمسحه بقوة وكأنه يعيده كما كان، شعر عمير بالضيق من نفسه صحيح أنه وجاسر تقارباً كثيراً في الفترة الأخيرة.. لكن مازال هناك الكثير لا يعرفه عنه، وهو لم يكن يسأله عن أهله ابداً لسبب بسيط، أنه لم يرد أن يسأله جاسر عن أهله خاصة أباه... لطالما كره عمير أن يجب عن هذا السؤال.. "أين هو والدك؟!"

إلتزم كلاهما الصمت وسارا في طريقهما إلى أن قطعه عمير بقوله:

- أعتقد أنك تصورت أن التجول معي سيكون ممتعاً.

لم يجيب جاسر ولكنه بعد لحظات قال:

- أتعلم أنه كان لي أخ في مثل عمرك؟!

- كان.... وأين ذهب؟

تنهد جاسر قائلاً:

- استشهد.

حدق عمير بوجهه قليلاً ثم قال في أسى:

- حقاً... أسف... هذا خيراً له... على الأقل أنت تعرف أين هو الآن.

- أكمل جاسر وكأنه لم يسمع عمير:
- كان الاقرب لي.... كان صديق أكثر من أخ، كان يعني لي الكثير.
- كان صوته يتهدج وهي يقول كلماته الاخيرة مما سبب لعمير الالام من أجله ورغم هذا تمنى عمير أن يعرف كل ما يجول في رأس جاسر ولم دائماً يحزن هكذا كلما تحدث عن بلده؟!
- وضع عمير يده على كتف جاسر قائلاً:
- يسعدني أن تعتبرني صديق لك، وسأكون دائماً بجوارك.
- ابتسم جاسر في ود :
- أتعلم أنك تشبه أخي قليلاً؟
- حقاً.
- توقف جاسر وأخرج حافظته ليري عمير صورة فوتوغرافية صغيرة لشاب وسيم فقال عمير ضاحكاً:
- وهل أنا بهذه الوسامة؟!
- ضحك جاسر وأعاد الصورة إلى الحافظة:
- أنا أراك كذلك.
- جزاك الله خيراً، ولكنه أصغر مني وأنت قلت أنه في مثل سني.
- نعم ، كان سيكون في مثل سنك إذا بقي حياً ولكنه استشهد قبل أن تأتي إلى إنجلترا.
- عندما كنت في الخامسة عشر من عمرك.
- أوما جاسر برأسه متأسفاً، فقال عمير:
- معقول هذا يعني أنه استشهد وهو في الثامنة عشر من عمره.
- نعم... كان شاباً يافعا ..عنيداً.. لا يخشى شيئاً... كنت دائماً أسير بجانبه بلا خوف....استمد قوتي منه... ولكم أصبحت ضعيفاً بعد أن غاب عني.
- وحدث ما يكرهه عمير رأى عبارات جاسر تنهال على وجنتيه ولكم يكره عمير الدموع ، أي دموع.... لم يعرف ماذا يفعل أو ماذا يقول ولهذا يكره الدموع دائماً تشعره بالعجز.

- أسف... أنني أبكي.
قالها جاسر بصوت خافت:
- ولكني لا أستطيع أن أمنع نفسي.... كلما تذكرت....
- لا تتحدث إذاً.
قاطعته عمير، فنظر له جاسر قائلاً:
- ولكني أريد أن أحدثك.
أشار جاسر لمقعد يتوسط حديقة كبيرة قادتتهما أقدامهما إليها فجلسا
وصمت عمير ليترك جاسر يتحدث:
- لكونك نشأت في دوله عربيية... فأنت تعلم الكثير مما تقاصيه
فلسطين ، نحن عائلة فلسطينية كان حملها كل يوم أن نعيش بحرية
وبأمان ولكم نفتقد هذان العنصران...عائلة ليست كبيرة ولا
صغيرة..... أب وأم وولدين و٣ بنات، أمنا كانت تخشى علينا كثيراً
خاصة فهد أخي الاكبر الذي كان عنيداً دائماً ويسبب لها القلق
الشديد ولكن أبي كان يراه شجاعاً ولا يخشى شيئاً لهذا كان يشجعه
دائماً، وفي يوم .. أقصد في ليلة حالكة السواد أخترت أذناي
صرخات أمي وصوت صياح أبي فرزت من نومي وقفزت من فراشي ورأيت
أخي فهد يسبقني لساحة المنزل، ورأيتهم ...رأيت أحقر أهل الارض
وأكثرهم خسة ينتشرون في المنزل ...باحثين عن ماذا...لا
يهمهم...المهم أن يقلبوا المنزل رأساً على عقب وشعرت للوهلة الاولى أنهم
غير طبيعيين ثم تيقنت أنهم سكارى، فقاموا بتكبير أبي لمنعه من
الحركة بينما وقفت أمي تحتضن أختي الرضيعة التي تعالي صوت
بكاءها في المنزل وخرج أحدهم من حجرة أختي وهو يجرها خلفه
ممسكاً بأطراف شعرها بينما جاء آخر من خلفي ودفعتني وأخي أرضاً
فأصبت شفتاي ونزل الدم من فمي فهد أخي فهد يدفعني وأسرع لمن
يمسك بأختي وتعلق بذراعه وقضمه قويه فصرخ تاركاً أختي
التي أسرعت لأمي لتحتمي بها فرفع الوغد سلاحه ولطم أخي على
وجهه فنزف دماً وسقط أرضاً ثم ركله في وجهه فلم يحرك أخي
ساكناً وأراد أن يمسك بأختي مرة أخرى إلا أن أبي استطاع أن يحرر

نفسه فأسرع إليه يدفعه عنها ، فأشار الحقير لرفاقه فتكالبوا على أبي
وانهالوا عليه ضرباً وركلاً

ارتعش صوت جاسر وانهالت الدموع أكثر وانتفض جسده فربت عليه
عمير:

- إهدأ يا جاسر... أرجوك... لا تكمل مادام الامر يتعبك.

- كان عمري حينها ثلاثاً عشر عاماً ، لم أعرف ماذا أفعل تمنيت أن

يضيق أخي ولكنه ظل ساكن وأمي تصرخ وأبي يُضرب ..لم أأمل أن
يساعدنا أحد فالامر ليس بهذه السهولة، وأخيراً تركوا أبي والتفتوا
إلينا ولكنهم لم يفعلوا شيئاً وكأنهم أشبعوا رغباتهم الوحشية بما
فعلوه بأبي وغادروا المنزل وهم يضحكون ويترنحون. أسرعتم أمي لأبي

وما أن وضعت يدها على صدره حتى صرخت:

" قتلوا أباك يا فهد...قتلوا أباك يا فهد."

لم أصدق ولكنها الحقيقة...ضربوه حتى الموت...ضربوه حتى
الموت...

.....

الفصل الثالث

دفن جاسر وجهه في كفيه وأجهش في البكاء، ولم يستطع عمير أن
يتمالك نفسه هو الآخر فانسابت عبراته على وجهه.

- أبي أخي أن يمر الحادث مرور الكرام وأقسم على الانتقام رغم أن أمي
حذرت من أن يفعل أي شيء فهي لن تحتل فقدته هو الآخر واضطر أخي

إلى الاحتمال حتى تهدأ أمي ولكني كنت واثق أنه لن يهدأ وحتماً
سيفعل شيئاً، لهذا كنت معه في كل مكان لم أرد أن أتركه وحده

أبداً، ومر عامين وتصورت أن أخي قد تأقلم على الوضع ولم يعد يعنيه
الانتقام في شيء وفي صباح يوم سلم علينا فهد واحتضننا جميعاً وهذا

أمر معتاد منه معنا، فهكذا كان يفعل أبي وهكذا اعتاد هو الآخر

ولكني شعرت بشئ ما؛ فقد كانت ضمته لي أقوى من المعتاد وما أن

قرر الخروج حتى تشبثت بذراعه وأصررت على أن أخرج معه لم يكن

يريد أن يوافق ولكني صممت فأخذني معه إلتقى بكل أصدقاءه

التأشيرات اللازمة وتذاكر السفر ، رغم أنني رفضت وتصورت أنني بهذا
أكون جبان ولكن أمي أصرت ورددت " لم يعد لنا رجل سواك الآن
ورعايتك لنا جهاد في سبيل الله فلا تزيد همي وحزني " فانصت
لأمرها ومنذ ذلك الحين ونحن نعيش في انجلترا، وها أنا ذا.
وضع عمير كفه على كتف جاسر مواسياً:
- يا الهي..... لقد رأيت الكثير في حياتك.
- صدقني يوجد بيوت كثيرة في فلسطين مثلنا، ولكنهم لم
يتركوها. وهناك من فقد أيضاً الأم والابنة. ولا أعتقد أنه يوجد
بيت في فلسطين بلا شهيد أو معتقل في أيدي هؤلاء الطغاة.
- أصدقك..وكم أشعر بالألم أنني لا أستطيع عمل شيء.
هز جاسر رأسه متفهماً فقال عمير:
- ولكن مهلاً...أعتقد أنه يمكنني أن أفعل شيء.
نظر له جاسر متسائلاً فوقف عمير:
- ألم تقل أنني أشبه أخاك، إذن اسمح لي أن أتجراً وأطلب منك أن
تعتبرني أخاك بكل ما في الكلمة من معان وأعدك إن وافقت أن
أوفيك كل حقوق التي تكون بين الأخوه.... فهل تقبلني لك أخ يا
جاسر.
ابتسم جاسر في تأثر فقال عمير:
- اعلم أنني لن أكون عندك كفهد.... ولن أستطيع، ولكن تخيل أن
لك أخ آخر غير فهد أحب أن يكون هذا الشخص أنا؟!
اتسعت ابتسامته جاسر وأوماً برأسه إيجاباً فأوقفه عمير وضمه إلى صدره.
شعر عمير بمزيد من السعادة لقربه أكثر من جاسر، وحاول أن يكن له
أخ فعلاً، وهذا ما كان يفعله طوال الوقت.
وفي يوم جديد بالجامعة جلس عمير على درجات السلم المؤدية إلى
المكتبة وهو يحمل بعض الكتب مستغرقاً في تفكير عميق
"عمير.."
أخرجه هذا الصوت من شروده فالتفت ليرى جاسر أمامه مباشرة:

- جاسر..هذا أنت.
- ماذا بك يا أخي؟... ناديتك من بعيد فلم تجب فاقتربت منك
وحدثتك فلم تشعر بي ما الذي يشغلك إلى هذا الحد؟!
نظر له عمير للحظات فجلس جاسر بجانبه وأردف:
- يبدو أن الامر مهم....ماذا هناك أم أنك ستخفي عن أخيك
الصغير؟!
صمت عمير لثواني أخرى ثم قال:
- هل تعرف دكتور ديفيد؟
- بالتأكيد...إنه من أساتذة كلية العلوم ، وهو يُدرس نفس ما يُدرسه
دكتور جوزيف وكلاهما يعدان الافضل في هذا المجال باستثناء
أسلوب المعاملة فدكتور ديفيد يحب دائماً أن يصاحب طلابه بعكس
دكتور جوزيف وأنت تعلم طبعاً ، ولكن لما تسأل عنه؟!
- سأخبرك ولكن أخبرني أولاً.... هل تعرف جنسيته أو ملته؟!
حدق جاسر في وجهه لحظات ثم مط شفتيه مجيباً:
- هو انجليزي طبعاً.... أما ملته فلا أعلم عنها شيئاً ، فهنا ليس من حقلك
أن تسأل أحد عن دينه. وان كان البعض يردد هنا أنه يهودي.
هز عمير رأسه متفهماً فقال جاسر:
- والان لما تسأل؟!
- حسناً سأخبرك.... عندما كنت في المكتبة أبحث عن هذه
الكتب.
- مشيراً لما بين يديه.
- مررت بأرفف كثيرة وبينما أنا خلف أحد الارفف والتي تكثرت فيها
الكتب حتى أنه يمكنك أن تختفي خلفها دون أن يشعر بك أحد
سمعت حوار بين شخصين أدهشني للغاية.
- لمَ؟! ماذا كانا يقولان؟!
- ليس بسبب ما قالاه..في الحقيقة أنا لم أفهم ، ولكن بسبب اللغة
التي استخدمها في الحوار.
- عقد جاسر حاجبيه:

- أيتها لغتة هذه؟!
- العبرية.
رفع جاسر حاجبية مندهشاً:
- العبرية!!! هل أنت واثق؟!
- تمام الثقتة ، وحينها تمنيت لو أنني أجيد هذه اللغتة لأعرف ماذا كانا يقولنا.
هز جاسر رأسه محاولاً الاستيعاب، فأردف عمير:
- في البداية أقنعت نفسي أن الامر لا يهمني، ولكن رابني حديثهما الخافت وكأنهما حرصاً على ألا يسمعهما أحد كما أنهما....
توقف عمير عن الكلام فقال جاسر:
- إنهما ماذا يا عمير؟!..أكمل.
أردف عمير:
- حوارهما لم يكن ودي.... كما ذكرنا اسم دكتور جوزيف أكثر من مرة وهذا ما سبب لي القلق.
- ذكرنا اسم دكتور جوزيف؟!
- نعم..... وقد زادت ثورة دكتور ديفيد عندما ذكر الغريب اسم دكتور جوزيف.
- لماذا؟!
هز عمير رأسه قائلاً:
- ليتني أعرف..... وهذا ما يشغلني، ولكن فكر معي ، يتحدثان بالعبرية بصوت خافت ألا يعني هذا أنهما يخططان لشيء ليس طيباً، كما أنه يؤكد أن دكتور ديفيد يهودي.
- كونه يهودي..لا يعني شيئاً، فأول ما تعلمته هنا..أن ليس كل ما هو يهودي اسرائيلي ولكن كل ما هو اسرائيلي يهودي.
قال عمير مستنكراً:
- ما هذه النظرية؟! يا عزيزي سيظل اليهود أعداء المسلمين إلى أن نقضي عليهم جميعاً عندما يشاء الله ولن يكونوا أصدقاء لنا أبداً.

- حسناً.... بغض النظر عن هذه النقطة، دكتور ديفيد صديق
لدكتور جوزيف ولا أعتقد أنه يمكن أن يسبب له أي نوع من أنواع
الأيذاء.
- هل أنت واثق من هذا؟!؟
مط جاسر شفتيه قائلاً:
- في الحقيقة لا ، ولكن يمكنك أن تتحدث مع ريم وهي ستخبرك.
عقد عمير حاجبيه ليحدق في وجه جاسر قائلاً:
- ريم.... ولم ريم؟!؟
- لأنها ابنته... وتعرف عنه الكثير بالطبع.
زاد ذهول عمير واعتدل ليووجه جاسر:
- ريم ابنته من؟!
رفع جاسر إحدى حاجبيه:
- .. ابنته دكتور جوزيف.
انتفض عمير وهب واقفاً حتى إنه أسقط الكتب التي بيده فأصرع جاسر
يحملها ليقف بجانبه:
- ماذا حدث؟!؟
- ريم ابنته دكتور جوزيف؟!؟
- نعم، كنت أظنك تعرف.
- لم لم تخبرني؟!؟
- لم تأتي فرصتي ، كما أنني صورتك تعرف.
- ولماذا هي أيضاً لم تخبرني؟!؟
- في الحقيقة هذا أمر طبيعي، فأنا لم أعرف أنها ابنته إلا قدرياً، هي
لم تخبرني.
- لم يستوعب عمير الأمر فشرع جاسر بذلك فأمسك بذراعه ليجلس
مرة أخرى قائلاً:
- دكتور جوزيف يكره المحسوبية والوساطة، ولهذا علم ريم منذ
طفولتها ألا تردد في كل مكان مكانة أبيها وأقنعها أن الاحترام التي
تريد أن تكتسبه لنفسها يجب أن يكون لشخصها وليس لشخص أبيها

- ويجب أن يناديها الجميع باسمها وليس بابنته دكتور جوزيف. ولقد اعتادت ريم على ذلك ولهذا فهي عندما تتحدث عن أبيها تقول دكتور جوزيف.... أعتقد أنها لا تستخدم لقب أبي إلا في المنزل.
- حك عمير ذقنه قائلاً:
- عائلة غريبة جداً.
 - هي عائلة عقلانية جداً.
 - هز عمير رأسه قائلاً:
 - لقد تركنا الموضوع الأصلي الذي كنا نتحدث فيه.
 - نعم... كما أخبرتك ، ريم ستعرف إذا كانت العلاقة بين أبيها ودكتور ديفيد قوية أم لا.
 - نظر عمير في ساعته ثم وقف قائلاً:
 - يجب أن أغادر الآن ، سأراك فيما بعد.
 - هم بالانصراف فقال جاسر:
 - هل ستتحدث إلى ريم؟!؟
 - تطلع له عمير قليلاً ثم قال:
 - ربما...ربما.

.....

- دخل ديفيد إلى منزله لتستقبله زوجته :
- عزيزي ديف... كيف كان يومك؟!؟
 - نظر لها وقد ارتسم على وجهه الوجوم واتجه إلى المطبخ مباشرة، فتبعته زوجته وقد أصابها القلق عليه :
 - ماذا حدث يا ديف؟!؟
 - جلس أمام الطاولة قائلاً:
 - هل لي بفنجان من القهوة؟!؟
 - بالتأكيد يا عزيزي، ولكن أئن تأكل أولاً؟!؟
 - ليس لدي رغبة للأكل.
 - أعدت زوجته الفنجان ووضعت أمامه وجلست بجانبه قائلة:
 - ماذا هناك يا عزيزي؟!؟

- صمت ديفيد ولم يشعر برغبة في الحديث ولكنه لم يعتد أن يخفي شيئاً عن زوجته:
- لقد زارني حاييم اليوم.
- حاييم!! في الجامعة... ألم يكن يصر على أن تلتقيه بعيداً عن الجامعة؟!؟
- نعم ولقد اندهشت كثيراً حين رأيتته أمامي في المكتبة.
- وماذا يريد؟!؟
- تنهد ديفيد قائلاً:
- جاءني بخبر ليس سار.
- ديفيد تحدث مباشرة، ولا ترهق أعصابي.
- تعلمين ريتشي.. الحلم الذي طالما حلمت به وجائني حاييم منذ فترة ليعرض علي أن يساعدي في تحقيقه.
- نعم.... وهو أن ترأس مركز الطاقة النووية.. وأخبرك أنك بالفعل الأقرب لهذا المنصب وأن اسمك هو الاسم الوحيد الذي يردد عند المسئولين.
- نعم.
- تطلعت له زوجته ثم قالت:
- بالله عليك تحدث ديفيد ، ماذا قال لك حاييم؟!؟
- قال أن هناك منافس لي الآن على هذا المنصب بل أصبح اسمه يردد أكثر من اسمي.
- معقول... من هذا؟!؟ هل تعرفه؟!؟
- نعم ، إنه..... جو.
- جو...جو...
- قالت زوجته مفكره حتى صاحت:
- جوزيف أنت تقصد جوزيف زوج دينا.
- نعم.
- ولكن كيف؟!... انا أعلم طبعا أنه ممتاز في مجاله ولكن كونه عربي مسلم يبعده عن هذا المنصب.

ابتسم ديفيد في سخرية قائلاً :

- وهذا ما قلته لحاييم فسخر مني.

- ديفيد... احكي لي ماذا قال لك من البداية.

.....

وقف ديفيد يتطلع لأرفف الكتب باحثاً... حتى شعر بكف توضع على

كتفه فالتفت واتسعت عيناه في ذهول:

- حاييم...

عقد الآخر حاجبيه ورمقه بنظرة صارمة :

- لا تنطق اسمي مرة أخرى... واخفض صوتك قدر المستطاع.

قال جملته بالعبرية فأجابه ديفيد بها:

- حسناً... ولكن ما الذي جاء بك إلى هنا؟... لقد كنت دائماً

ترفض...

رفع حاييم كفه مقاطعاً:

- لا وقت لدي سأسافر بعد ساعتين فحسب ،وما وصل إلي من معلومات

كان يجب ألا يتأخر.

قال ديفيد في ريبته:

- ماذا حدث؟

ضاقت نظرة حاييم وهو يقول:

- أنت تعلم أننا اتفقنا أن نساعدك لتصل للمنصب المنشود وذلك على

أساس أن تجيب أي تساؤل لنا بخصوص هذا المكان.

قال ديفيد في ضيق:

- هذا صحيح... ولم أغير فيما قلت شيء.

فبرغم موافقة ديفيد على هذا الأمر إلا أنه لم يكن يريجه ولكنه

أقنع نفسه بأن المهم هو أن يصل للمنصب الذي يحلم به.

قال حاييم ساخراً:

- ولن تستطيع أن تغير فيما قلت شيء يا دكتور.

مط ديفيد شفثيه فأردف حاييم:

- ولكن وصلت لنا معلومات مؤكدة أن المنصب الذي نفضل المستحيل لتناله أنت أصبح ينافسك عليه آخر.
- انتفض ديفيد قائلاً:
- ماذا تقول؟! مستحيل من هذا الآخر؟
- إنه شخص تتخذه صديقاً يا دكتور.
- قال ديفيد وقد نفذ صبره:
- من هو؟! تكلم.
- دكتور جوزيف.
- قالها حاييم وهو يضغط على أسنانه، فذهل ديفيد للحظات ثم هز رأسه:
- مستحيل.. كونه مسلم عربي
- ابتسم حاييم قائلاً بتهكم:
- أفق يا دكتور.. وانظر حولك، المسلمون الآن منهم من يتراأس مناصب كبيرة ودولية، وواجبنا أن نوقف هذه المهزلة، وإذا اعتبرت عروبتنا وإسلام دكتور جوزيف سبب لتجاهله فأنت لم تعد تعيش في عالمنا، وأحب أن أذكرك أن هذا العربي المسلم لم يشهد له أي موقف معلى تجاه العرب والمسلمون وإن كنت واثق أن له أنشطة ولكنه لا يعلنها على الملأ... كما أن كل ما يشغله هو علمه وما يقدمه في هذا المجال وهذا ما يهمل المسئولون، أم إنك لا تعلم أن كل الطلبة الذين خرجوا من تحت عباة أثبتوا كفاءه في هذا المجال بهرت العلماء الكبار وكل هذا لأنهم عملوا مع هذا العربي المسلم، كما أنه معروف بأنه انجليزي من أصل عربي حتى بلدته القليل جداً من يعرف اسمها.
- كان ديفيد يستمع إليه مذهولاً فاقترب منه حاييم :
- اسمعني جيداً يا دكتور، صديقك هذا اسمه الآن يردد أكثر منك عند المسئولون وهو يعلم هذا ومعنى أنه لم يخبرك فهو إذاً يخطط لهذا من البداية، فإما أن تفعل ما بوسعك لتعود إلى الصورة مرة أخرى لتبعده.
- ثم رجع للخلف خطوة وضم قبضته أمام وجهه قائلاً في حنق:
- أو نبعده نحن بطريقتنا.

- ماذا تقصد؟!؟
- تساءل ديفيد فقال حاييم:
- أقصد أنك ستعد للصورة بأي ثمن.... أسمعني..... بأي ثمن، فأما أن تعد بطريقتك أنت ولا يهمنا كيف المهم النتيجة أو نضطر نحن للتدخل لنزيح جوزيف هذا من أمامك.
- رفع ديفيد سبابته في وجه حاييم قائلاً:
- اسمع... لن أسمح بوقوع جريمة قتل باسمي.
- عقد حاييم حاجبيه وارتسم على وجهه الغضب:
- بل اسمع أنت، عندما قررنا التدخل لمساعدتك لم يكن هذا حباً فيك أو من أجل وسامته وجهك، بل الهدف في النهاية هو مصلحتنا وأنت ستكسب معنا فلا تحاول أن تلعب أمامي دور البريء، وعلى كل حال القتل لم يعد الطريقة الوحيدة التي نتعامل بها، بل لنا وسائل أخرى عديدة.
- قال جملته الاخيرة بنظرة ماكرة، ثم نظر لساعته وقال:
- يجب أن أنصرف، وكما أخبرتك أما أن تزيح جوزيف هذا أو نزيحه نحن.

الفصل الرابع

- استمعت ريتشي لزوجها في ذهول وما أن انتهى حتى قالت:
- غريب!! ولم لم يخبرك جوزيف؟!؟
- وما المشكلة؟!؟ أنا أيضاً لم أخبره عندما علمت بأمر ترشيحي فما الذي سيجبره على إطلاعي بأمر ترشيحه.
- إنك كنت مرشحاً قبله.
- هذا ليس سبباً، جوزيف عقلائي للغاية، وعملي جداً.
- ماذا ستفعل إذا؟
- لا أعلم... لا أعلم.... أنا لن أخسر هذا المنصب مهما كان الثمن.
- مهما كان الثمن يا ديفيد.

قالتا زوجته ببطء عن قصد ، فالتفت إليها وصمت لحظات ثم هب
واقفاً:

- نعم...

ولم يسمح لها بالمزيد بل غادر المكان سريعاً.

فهمست:

- أتهرب مني... أم من نفسك؟!!!

.....

"بعد إذنك..أريد أن أتحدث معك...سأنتظرک بالخارج"

انتفضت ريم فوراً أن سمعت هذه الكلمات والتفتت لتلتقي عيناها بوجه
عمير الذي قال جملة في همس مراعيًا أنهما في المكتبة ثم اتجه
للخارج، اندهشت ريم خاصة أنه توقف عن التحدث معها منذ فترة
ولكن فضولها دفعها للخروج لتعرف ما الذي أعاده للحديث معها فلم
تضع الوقت وأغلقت الكتاب الذي كانت تدرسه ولملمت أوراقها لتلحق
به لتجده يقف منتظراً إياها فاقتربت منه قائلة:
- لقد أفرعتني.

منحها نظرة سريعة قائلاً:

- أسف.... لم أقصد وأشكرك على أنك لبيتني طلبتي وخرجتي

بسرعة. أريد أن أحدثك في أمر هام..هل يمكننا أن نتحدث قليلاً؟.

- بالتأكيد.... تفضل.

جلسا على مقعد في ساحة الجامعة فقال عمير وهو يحدق أمامه:

- لم لم تخبريني أنك ابنة دكتور جوزيف؟

التفتت له لكنها عادت تنظر أمامها وكأنها ترد له أسلوب التعامل:

- أهذا هو الامر الهام الذي أردت أن تحدثني فيه؟!

- لا..ليس هو.... ولكنه فضول ، لا داعي للأجابة إذا كنت لا تريد.

هزت كتفها قائلة:

- لا بأس...يمكن أن أجب، أنا لم أكن أعلم أنك لا تعرف وعندما

يكون هناك حقيقة تتعامل معها تتصور أن الآخرين يعلمونها، وهذا

وضعي فأنا أتصور أن الآخرين يعلمون أنني ابنة دكتور جوزيف إلا إذا

سألني أحد عن هذا فأنا أجيب، فعلاقتي بدكتور جوزيف ليست سر وان كنت اعتدت منذ صغري ألا أتحدث دائماً عن أبي لأنني لا أريد أن يعرفني الآخرين لأنني ابنة دكتور جوزيف بل يعرفونني لشخصي وهذا ما تعلمته من أبي.

صمت عمير قليلاً ثم قال:

- مع احترامي لوجهة نظرك...أعتقد أنني إذا تعاملت مع شخصيتين لهما صلة حميمة فمن الطبيعي أن أعرفها من أيهما... حسناً... الافضل أن نتحدث فيما أردت.

- أرجو ذلك.

- لقد عرفت أن دكتور ديفيد صديق لدكتور جوزيف فهل هذا صحيح؟

أندهشت ريم قليلاً من السؤال قائلة:

- وما الذي يهمك في أمر كهذا؟!؟

- إنه يهودي...أتعلمين ذلك؟

ابتسمت ريم قائلة:

- نعم أعلم.... ولكنه ليس متدين على الاطلاق كل ما هناك أنه

كتب في شهادة ميلاده أنه يهودي ولكني أعتقد أنه لا يعرف أبسط

قواعد اليهودية.

قال عمير ساخراً:

- أنعم وأكرم.... وهل هذا يجعله صديق جيد؟!؟

قالت ريم غاضبة:

- ماذا هناك...أكل المشكلة أن أبي صديق لرجل يهودي؟! ثم ما

الذي يعنيك في هذا الامر؟!؟

رد عمير بهدوء :

- أريد أن أعرف هل دكتور ديفيد صديق فعلاً لدكتور جوزيف

بالمعنى المصهور للصداقه، أقصد أنه لن يسبب أي مشكلة له.

اعتدلت ريم لتحدق به قائلة:

- اسمع يا عمير.... أنا لا أحب أن أدخل في حوار أشعر فيه بالغباء أو الجهل فأما أن تخبرني ما مقصدك من كل هذا أو نوقف هذا الحوار فوراً.

منحها نظرة سريعة ثم عاد يتطلع لا شيء قائلاً:

- حسناً..حسناً، لقد سمعت حواراً بالعبرية بين دكتور ديفيد وشخصاً آخر لا أعرفه ، أنا لم أفهم الحوار لكن استطعت تمييز اسم دكتور جوزيف الذي ذكر بينهما أكثر من مرة، كما أن الحوار لم يكن ودي... هكذا شعرت.

صمتت ريم لتفكر قليلاً ثم قالت:

- باعتبار أن دكتور ديفيد صديق لدكتور جوزيف فمن الطبيعي أن يذكره في أي موقف أما كون الحديث بالعبرية فهو يتحدث بالعبرية من حين لآخر فما المشكله؟!
التفت لها عمير قائلاً باستنكار:

- ما المشكله؟! أقول لكِ الحوار لم يكن ودي كما أنهما كانا حرصين على عدم سماع أحد لهما ألا يعني هذا أنهما يدبرا شيئاً؟!
ردت ريم بعصبية:

- ما هذا الذي تقول؟!.... دكتور ديفيد يدبر لدكتور جوزيف شيئاً....
هل هذا ما يسمونه بالوسواس القهري؟!

عقد عمير حاجبيه وبدأ يشعر بالغضب فهب واقفاً:

- فليكن...لقد أخبرتك لأنه أباك وبالتأكيد أنت أحرص عليه مني...شكراً لك...وداعاً.

ظلت ريم تحديق في ظهره وهو يبتعد عنها وهي تصك أسنانها وضربت قدمها بالارض كطفله أخذت منها لعبتها عنوة قائلة:

- تباً لك...يالك من متعجرف.... كيف يتحدث معي بهذه الطريقة؟؟
؟؟...ومن سمح له أن ينهي الحوار معي هكذا؟؟.

تركت المكان لتعد الى المكتبة لكنها لم تستطع أن تركز في أي كلمة أو صفحة أمامها فلقد انشغل عقلها تماماً بهذا المدعو عمير من

ناحية وبكلامه من ناحية أخرى، لا تعرف سر غضبها من تجاهله لها، رغم أن أحيانا كثيرة تتعرف على أشخاص ثم لا يتحدثون مع بعض ثانية.. لكن تشعر بشعور مختلف مع عمير هي تفتقده فعلاً، رغم أن لقائتهما كانت قليلة لكنه استطاع لفت انتباهها سريعاً سواء بحواره الهادي وكلماته القليلة، فهو لم يكن ثرثاراً قط... فقط.. خير الكلام ما قل ودل... تشعر أن هذا هو مبدأه.. بالأضافة أنها لاحظت تجنبه تماماً للفتيات بشكل عام، وهذا ما فسرت به الامر عندما ابتعد عنها فجأة وبدون مقدمات، لعله كان هكذا في موطنه لا يتحدث مع الفتيات.. ولكن لماذا؟!... مادام الحوار بينهما مهذب وليس فيه أساءة لأحد. هزت رأسها متممة:

- لا يهم... لن يتوقف العالم لأنه قرر عدم الحديث معي.

ثم ارتسمت ابتسامته على شفتها مرددة:

- حتى وهو غاضب يبدو وسيماً.

عادت لتفكر في كلامه عن ديفيد، هي ليس لديها أدنى شك ناحية هذا الرجل، فهو ليس صديق أباه فحسب وإنما صديق للعائلة، فزوجته أيضاً صديقتة لامها، ولو كان لديهم أولاد لكانوا أصدقاء لها أيضاً، لا بد من وجود تفسير لما سمعه عمير.. لكن ما هو... ما هو؟! ..

- وماذا تظن ريم ستفعل الان؟! ..

كان هذا سؤال أمه له بعد أن أخبرها بما حدث ،شيك عمير أصابع يديه واضعاً إياها خلف رأسه على وسادته:

- لا أعلم.... ولكنني واثق أنها ستصرف بذكاء وستعرف إذا كان ديفيد هذا يضرر سوءاً لذكور جوزيف أم لا.

- هي ذكية إذاً!! ..

ابتسم عمير في أعجاب:

- هي تحمل الكثير من الصفات الرائعة..

توقف عن الكلام بعد ظهور شبح ابتسامته حزينة على شفاه أمه فعدل جلسته قائلاً:

- أقصد...أنها ستتصرف.
شعرت أمه بارتباكها فقالت:
- لقد أحسنت التصرف...كان يجب أن تخبرها.
غادرت الغرفة لتتركه ينام ، دخلت غرفتها وأمسكت بهاتفها
المحمول لتطلب صديقتها عمرها ، جاءها صوت هدى:
- عزيزتي رجاء كيف حالك؟!
- بخير...كيف حالك أنتِ وكيف زوجك والبنات؟!
- كلهم بخير ونفتقدكما بشدة.
- أتمنى أن تستجيبني لطلبي وتأتي لزيارتنا..ولو زيارة قصيرة...عاطف
لن يمانع... أنا واثقت.
- امممم.... لا أعلم عزيزتي...سأحاول.
صمتت رجاء للحظات حيث غلبها الحنين لرفيقتها وموطنها فقالت هدى
بقلق:
- رجاء..أنتِ بخير؟!
تمالكت رجاء نفسها:
- نعم ..لا تقلقي... يبد وأنكِ كنتي على حق هدى.
- عما تتحدثين؟
- توجد فتاة لفتت انتباه عمير كثيراً...لا أعلم..أشعر أنه يميل لها
فعالاً.
قالت هدى في سعادة:
- هذا رائع.
- إنها أجنبية.
- حقاً..عمير معجب بفتاة أجنبية.
- تقريباً...حقيقتاً هي مسلمة لأب من أصل عربي..ويبدو أن أمها
انجليزية.
- أفرعتيني...وما المشكلة؟!...دعيه رجاء..أرجوك..كفاكي...لم
تريدين أن تحرميه من هذا الشعور الرائع المسمى بالحب؟.
- أنا أريد أن أحميه من عذابات ولوعات الحب.

- الحب لن يكن حب إلا إذا شعر أصحابه ببعض لوعاته، المهم أن تكون الفتاة أيضاً تميل له... دعيه يُحب ويُحب ... أرجوك رجاء...
أطلقني طوق الذنب الذي ألبستيه إياه لسنوات.
ابتسمت رجاء قائلة:
- يا لتشبيهاتك... فليكن... سنرى ماذا سيحدث؟

أنهت المكالمات بمزيد من الأمل في حضور هدى إليهما قريباً، تركت هاتفها وأتجهت لصندوق رسالتها . كلما حملتها بين يديها كانت تسأل نفسها... الى متى ستبقى تقرأ هذه الرسائل وتعذب نفسها.. ربما تريد أن تعذب في الدنيا بدلاً من الآخرة، لكنها تابت لله كثيراً.. وكم تأملت في أن يقبل الله توبتها، وعندما كبر ابنها وأصبح أفضل مما تمننت شعرت أنها علامة من الله أنه قبلها فلم يخزيها في ابنها. ولكن شيئاً ما بداخلها يخبرها بأن الأمر لم ينتهي بعد.. رغم مرور كل تلك السنوات ما زالت تشعر بأنها لم تدفع الثمن بعد.

أنهت قراءة الرسائل وأعادتها لصندوقها لتفتش فراشها باكية، أرادت أن تغلق عيناها لتنام فلقد كانت متعبة حقاً اليوم، ولكن هيهات التفكير المضني الذي يهلكها كل ليلة ما كان ليتركها ، وكأنها تراه أمامها الآن .. صوته يدوي في أذنيها صوت يحمل الكثير من الألم والحزن "لماذا رجاء .. لماذا؟... لم تعامليني هكذا؟!... لم أشعر أنني أعيش مع جسد بلا روح؟!... في البداية تصورت أن هذا بسبب وفاة أبك.. لكن الحزن لا يدوم إلى الأبد... رجاء... أنا أحبك... أحبك كثيراً وأنت تعلمين هذا جيداً... فلم أشعر أنك بعيدة عني؟... هل تعلمين كم يمزق هذا قلبي؟!... إنه يؤلم رجاء... يؤلم للغاية... كم مرة قلت لك أحبك.. بينما لم تقوليها أنت قط... قولي وأنا أيضاً... قولها ولو كذباً... قولها رجاء... رجاء.. هل تسمعيني؟؟!"
وضعت كفها على أذنيها:
- كفى... كفى.

انتبهت أنها قالتها بصوت أشبه بالصراخ ، ليندفع عمير للغرفة:

- أمي...ماذا هناك؟!...هل أنت بخير؟!..
شعرت بالغضب من نفسها أنها لم تتمالك نفسها هذه المرة، فهزت رأسها؛
- لا عليك بني أنا بخير... إنه حلم مزعج فحسب..ألم تنم بعد؟!..
اقترب عمير ليجلس بجوارها؛
-لا..كنت أدرس... لمَ كل هذه الدموع؟!
رفعت كفها لتمسح وجهها قائلة في تردد؛
- دموع...أه...لقد..لقد كنت أبكي في الحلم...أخبرتكَ أنه حلم
مزعج...هل لي بكوب ماء؟!
أسرع ليحضر لها كوب الماء فارتشفت منه رشفت صغيرة ووضعتة
بجانبها، رفعت كفها لتربت على خد ابنتها؛
- لا تفرع علي يا بني أنا بخير... أسفت... يمكنك العودة لغرفتكَ.
تأملها للحظات ثم وقف ليغادر الغرفة لكنها أوقفته لتطلب منه
الجلوس جانبها لتحديثه قليلاً، ظلت تحديق في وجهه فقال:
- ماذا هناك أمي؟!
حاولت الابتسام وهي تقول:
- كنت أريد أن أسألك...هل أنت معجب بريم تلك؟!
اتسعت عيناه من الدهشة، فلم يتوقع مثل هذا السؤال من أمه بالذات،
كما أن الوقت ليس مناسب لمثل هذا السؤال، أضافت أمه:
- هل السؤال غريب لهذه الدرجة؟!
هز رأسه نضياً؛
- لا..لكنه غير متوقع.
صمتت في انتظار اجابته على سؤالها فتردد قليلاً ثم قال:
- ما الذي دفعك للتفكير بهذه الطريقة؟!
هزت الام كتفيها؛
- ربما لأنك لم تتحدث عن فتاة كما تتحدث عن ريم ... وأنا أمك
يمكنني قراءة مشاعرك أحياناً.
لم يعرف ماذا يقول، فهو حقاً ليس متيقن من حقيقة مشاعره تجاهها،
فأضافت بعد أن ضمت كفه في يديها؛

- أسمعني جيداً عمير.... إن أردت أن تحب..فتأكد من مشاعر من تريد أن تحبها...فالحب الذي من طرف واحد..لا يجلب لصاحبه إلا الكثير من الألم والعذاب...وأنا لا أريدك أن تعذب...تأكد من مشاعرك ومشاعرها تجاهك...وسأقبلها لأجلك يا بني...لأجلك.

.....

في صباح اليوم التالي،
جلست ريم على مائدة الافطار مع والدها وأمها ، ظلت تقلب كوب الشاي الذي أمامها دون أن تشرف منه رشفت واحد مما أثار أباها؛

- ماذا بك يا ريم؟!؟

انتفضت ريم وكأن أحداً أيقظها من نومها فجأة فقال أبوها؛

- ماذا أصابك؟!؟

قالت أمها:

- لا أعرف يوسف منذ أمس وهي في عالم آخر.

- لمَ؟!؟ ماذا هناك؟!؟

نظرت ريم لأبيها قائلة:

- لا شيء يا أبي.... هناك أمر يشغل تفكيري .

- هل يمكن أن نعرفه أم أنه سر خاص بك؟!؟

ابتسمت ريم قائلة:

-ومنذ متى أخفي عليكما شيئاً، قل لي أبي.... ما رأيك في دكتور

ديفيد؟!؟

رفعت أمها إحدى حاجبيها :

- ما هذا السؤال؟!...وكأنك لا تعرفين دكتور ديفيد؟!؟

رفع جوزيف كفه قائلاً:

- انتظري يا دينا لمَ تسألني هذا السؤال؟!؟

- لا شيء محدد ولكن....

لم تستطع أن تضيف شيء فأرادت أن تغير الحديث فقالت:

- يا الهي لدي محاضرة هامة اليوم....أسفرت أبي سنكمل الحوار لاحقاً.

تركتها وغادرت المكان، ابتسمت دينا قائلة:

- اشتاق لها كلما غادرت المنزل.
ضحك جوزيف قائلاً:
- حقاً... وماذا عني؟! ألا أعني لك شيئاً؟!
ضحكت قائلة:
- كيف تقول هذا يا زوجي العزيز.. أنت تعني لي كل شيء، ولكن مهلاً نحن لم نفهم لم ريم سألتك عن ديفيد؟
- هذا صحيح... لقد فرت هاريتا فحسب... ماذا تعتقدين أنها كانت تقصد من سؤالها هذا؟!
هزت كتفها:
- لا أعرف... هل تعتقد أن الامر له علاقة بالمنصب الذي رشحت له؟!
- ريم لم تعرف بعد هذا الامر.. أم أنك أخبرتها رغم أنني طلبت منك ألا تفعلي؟!
- لا وربي لم أفعل... ربما سمعت بالامر من أحدٍ آخر.
- ديفيد مثلاً.
- ربما زوجته ريتشي.
- لا أظن ذلك ، فكلاهما لم يتحدثا إلينا فلما سيتحدثان لابنتنا.
- إذا أردت سأحدث إليها عندما تعود.
- لا ، لا تفعلي... إذا أرادت هي الحديث فلتفعل... هي ليست طفلة.
قالت دينا:
- هناك شيء كنت أريد أن أحدثك فيه.
- تفضلي عزيزتي.
- لديك دارس للماجستير اسمه عمير.
حدق في وجه زوجته للحظات مندهشاً فهو لم يحدثها عنه من قبل كما اعتاد ألا يحدثها عن عمله إلا فيما يخصه وحده، فقالت زوجته بعد أن استوعبت ذلك:
- ريم هي التي حدثتني عنه.
- أه.. ريم... فهمت... وماذا عنه؟!
- أه.. ريم... فهمت... وماذا عنه؟!
- أه.. ريم... فهمت... وماذا عنه?!

- ريم تتحدث عنه كثيراً وهو أمر ليس معتاد منها ، كما أنها معجبت به أيضا رغم أنه يضايقها أحياناً.
- يضايقها!!
- قالها جوزيف مستنكراً، فأسرعت دينا تقول:
- لا أقصد بأنه يؤذيها ... ولكنه يعاملها بكل قواعد التعامل مع المرأة الاجنبية... يحدثها دون أن ينظر إلى وجهها وإذا رآها ولم يكن يريد أن يحدثها في شيء هام يتجاهلها كأنه لا يعرفها.
- ابتسم جوزيف قائلاً:
- حقاً.... ما المشكلة؟ ربما تربى على هذا.
- مطت زوجته شفيتها :
- نعم ولكنه لفت انتباه ابنتك كثيراً، وأكاد أجزم أنها معجبت به حقاً.
- وماذا في ذلك هو شخص جدير بالاعجاب.
- حقاً.
- وقف يوسف ليغادر مائدة الافطار مردفاً وهو يطبع قبلة على جبينها:
- نعم.... الان فلتسمح لي زوجتي بالانصراف.
- ابتسمت دينا قائلة في حب:
- سمحت لك زوجي العزيز.

.....

الفصل الخامس

زادت حيرة عمير وهو يفكر في كلمات أمه، ما الذي دفعها لمثل هذا الكلام؟!... طالما شعر بوجود شيء غامض في حياة أمه وهو بالتأكيد له علاقة بأبيه، ماذا كانت تعني بعذاب الحب الذي من طرف واحد؟؟، هل كانت تتحدث عن نفسها؟... هل أحبت أباه لكنه لم يحبها؟.... لم تزوجها إذن؟... ولكن لا... هو كان يحبها... على الأقل هذه هي المعلومة الوحيدة التي وصلت له دون قصد من أحد.

حينها كان يجلس يدرس لامتحانات الثانوية مع نبيلته التي ذهبت
لاحضار كوبيين من العصير لهما وعندما عادت أسرع تغلاق باب
الحجرة قائلة:
- عمير... لقد سمعت أمي وأبي يتحدثون عن أبيك.
انتبه لها بكل جوارحه.. كم كان دوماً متعطش لمعرفة أي شيء
عنه، لكن حوارها لم يكن طويلاً فلقد شعرا بنبيلته فأوقفا الحوار..
وكل ما سمعته نبيلته قول هدى.
"لم يحب أحد رجاء كما أحبها ياسين"
ابتسمت له نبيلته:
- يبدو أن أباك كان يحب أمك كثيراً.

"لم تركها إذن؟.. لم حرمت منه منذ مولدي؟".. أسئلت طالما حيرته ولم
يجد لها إجابة... "متى ستريحني يا أمي وتخرجين سر ك الدفين؟.. ومتى
سيكون لي الحق في أن أسأل عن أبي وأعرف أين هو؟.. لولا كره
لرؤيته دموعك... لما توقفت عن السؤال أبداً."

أخرجه جاسر من أفكاره:
- عمير.. كيف حالك؟!
التفت له عمير مبتسماً:
- الحمد لله... وأنت.
الحمد لله بخير... هل تحدثت إلى ريم؟!
أوما برأسه:
- نعم.. لكن يبدو أنها لا تصدق أن ديفيد يمكن أن يؤذي أباه.
هز جاسر كتفيه:
- فليكن... هي أدرى... لن تتهاون إن شعرت أن أباه في خطر.
ابتسم له عمير ثم قال في اهتمام:
- قل لي يا جاسر.. منذ متى وأنت تعرف ريم؟!
- منذ عام ونصف تقريباً.

- هل هي متحدثه دائماً مع الآخرين؟
- نعم.
- بلا استثناءات.
عقد جاسر حاجبيه:
- ماذا تقصد؟!
صمت عمير قليلاً ثم قال:
- لا شيء... لا شيء...
وكزه جاسر قائلاً:
- لا شيء... ماذا حدث... هل حدث؟!
عقد عمير حاجبيه:
- ما الذي تعنيه؟!
ضحك جاسر:
- أعني أنك معجب بها هذا واضح... طالما كنت أشعر بتوترك حال وجودها، خاصة عندما تريد أن تهرب من أمامها.
فوجيء عمير بكلمات جاسر، هل الأمر واضح للأخريين أكثر منه، أمه وجاسر... كلاهما يران أنه معجب بريم، لم يشعر أنه لم يحدد مشاعره بعد، أم لأنها مشاعر غريبة بالنسبة له، لا يستطع تميزها.
- هل ما قلته يستدعي هذا الصمت؟!
سأله جاسر، فحدق به للحظات ثم اعتدل قائلاً:
- لا أعلم مما جئت بهذا الانطباع... لكنه غير صحيح.
هز جاسر رأيه مبتسماً:
- فليكن... هل تحب أن تسمع ما أعتقد فيمما يخص مشاعر ريم تجاهك.
نظر له عمير واكتفى بالصمت، فاتسعت ابتسامته جاسر وأردف:
- أعتقد أنها معجبة بك... لا أعلم هذا شعوري... سواء نظراتها لك في التجمعات الاسبوعية... بحثها عنك أحياناً عندما لا تظهر أو تتأخر، ورغمة معرفتها أنك لن تتحدث معها. كنت ألمح نظراتها لك

وأنت تقف مع الشباب من حين لآخر، لم تكن تلحظني طبعاً لكني لاحظت هذا أكثر من مرة.

لم يصدق عمير نفسه عندما تسرب له شعور رائع ومميز لكلمات جاسر الأخيرة، أراد أن يلوم نفسه لهذه السعادة التي يشعر بها الآن، ولكن لم...؟؟ إنه شعور داخلي كيف يلوم نفسه عليه، يبدو أن الأمر حقيقي الآن.. هو فعلاً معجب بريه... لا بل يبدو أن الأمر تجاوز هذه الكلمات بقليل.

صمت جاسر ليتركه يفكر في كلماته ثم أردف:

- إنني أشعر أنكما متقاربين في أمور كثيرة ويمكن أن تكمل بعضكما البعض لتكنّا عائلة رائعة.

ثم قال مازحاً:

- كما أن اسمها جزء من اسمك ، فإذا قرأته بالعكس ستكمل حروف اسمها قبل أن تنطق حرف العين.

ابتسم عمير لملاحظة جاسر التي لم ينتبه لها وبينما يلتفت برأسه رأى ريم تسير لتقف مع إحدى زميلاتهما فالتفت جاسر إلى حيث ينظر فابتسم قائلاً له:

- لم لا تجعل هذه النظرة حلاً وحلاً لكلاكما؟؟
- ماذا؟؟

قالها عمير مندحشاً، فأضاف جاسر:

- أعتقد أن الشخص الذي أعطاني محاضرة في غض البصر... لن يسمح لنفسه بملاقة من يحب إلا تحت شعار واضح وصريح...الخطبة.
رفع عمير كفاه أمامه:

- مهلاً..مهلاً...عن أي خطبة تتحدث..ريم لا تعرف عني شيئاً لم ستوافق بي؟؟...كل ما قلته ليس كافي لأؤكد من مشاعرها تجاهي.
مط جاسر شفتيه:

- ألا يكفي ما قلته لك؟...حسناً سأثبت لك الان أنك تعني لها شيئاً.

لم يفهم عمير ما الذي يفكر فيه جاسر الذي التفت ليتأكد من وجود ريم في مكانها ثم حرك قدمه ليضرب ساق عمير بقوة مما دفع عمير للتأوه بصوت عالي..ثم حدق بجاسر قائلاً وهو يضغط على أسنانه من شدة الألم وقد أمسك ساقه:

- ما هذا؟!...هل جننت؟!

وقبل أن يرد جاسر ابتسم عندما وجد ريم بجانبها في لحظات قائلة لعمير في قلق واضح:

- ماذا حدث...ماذا أصابك؟!...لم تتألم هكذا؟!

حاول عمير ان يتماسك فاعتدل كاظماً هذا الألم الذي يشعر به في عظمت ساقه حيث كانت الضربة قوية أكثر من اللازم وخرجت الكلمات منه مضغوطة:

- أنا بخير.

قال جاسر:

- أسف عمير...كنت أمزح معه فجأت الضربة في عظمت ساقه ..لم أكن أقصد حقاً.

نظرت له ريم في غضب:

- ومنذ متى تمزح بهذه الطريقة ... كيف تؤلم صديقك بهذا الشكل؟!

كانت تتحدث بضيق واضح مما دفع جاسر للإبتسام، فزاد غضب ريم: - وتجد هذا مضحكاً أيضاً... حقاً لقد فاجئتني!!.

كان وجهه عمير مال لون الأحمر بسبب الألم فنظرت له قائلة:

- حاول أن تجلس...سأحضر زجاجة مياة باردة...لتضعها على ساقك...سيخفف هذا الألم.

حاول عمير أن يوقفها لكنها لم تسمح بذلك حيث انطلقت مسرعة، فالتفت لجاسر الذي عقد ذراعيته أمام صدره:

- ما رأيك؟!...أعتقد أنها كانت ستقتلني لأجلك... لم هي الوحيدة التي أسرعت إلى هنا رغم أن هناك حولنا من يعرفوك أيضاً...
لكنك شخص مميز عندها...هل تفهم؟!
خف الألم قليلاً عن ساقه فتحرك معه ليجلس قائلاً:
- ألم تجد طريقة أفضل لأثبات وجهة نظرك؟!
ضحك جاسر قائلاً:
- أسف...أخي...لقد طرأت على الفكرة...فأردت تنفيذها في الحال.
عادت ريم بالزجاجة الباردة لتعطيها لعمير، واستأذنت منه سريعاً لتذهب لمحاضراتها، ولم يخفى عليه نظرتها الخجلة له وكأنها فجأة لاحظت رد فعلها المبالغ فيه.

.....

طوال طريق عودته للمنزل وهو يحدث نفسه....
"هل تعتقد أن أمك ستوافق؟"
- لا أعلم..حَقاً...أشعر أن كل شيء يحدث بسرعة...ولكني سعيد...سعيد لاهتمامها بي.... سعيد بهذا الشعور الذي يجتاحني ليملاً كل ذرة في كياني...شعور رائع حقاً.
"وإذا وافقت أمك...هل سيوافق أهلها...دكتور جوزيف..بالتأكيد سيسألك عن أبيك"
- وهذا ما يخيفني... سأقول ما أقوله للجميع...أبي أنفصل عن أمي منذ كنت طفلاً....ولم يعد له أي دور في حياتي....
"فليكن...حدث أمك...وسنرى ماذا سيحدث؟!"

جلس عمير مترقباً رد أمه التي ظلت تداعب كوب الشاي الذي أمامها بالمعلقة، ثم رفعت رأسها إليه قائلة:
- هل أنت واثق من مشاعرك حقاً؟
أوماً برأسه دون إضافة، صمتت لفترة أخرى ثم قالت:
- وماذا عن مشاعرها هي؟!
هز عمير كتفيه:

- قبولها أو رفضها سيوضحان الأمر.

رمقته للحظات ثم زفرت قائلة:

- ليس بالضرورة... ولكن... كما أخبرتك من قبل...سأقبلها من أجليك.

أسرع عمير يضم أمه إلى صدره شاكراً لها موافقتها التي تعني له الكثير، طلبت منه أن يخبر هدى، فاستأذنها أن يكون ذلك بعد حصوله على موافقة ريم. وأخبرها إذا كانت تريد رؤيتها أولاً :

- أنا أثق في اختيارك عزيزي...وحتماً سأراها قبل الخطبة.

لا يعرف كيف مر الوقت عليه وهو في انتظار اليوم التالي، ليسرع إلى الجامعة ليلتقي بريم، رغم أنه تردد أن يتحدث إليها مباشرة وفضل الحديث إلى والدها، لكنه تذكر استقلالها بشخصيتها واعتزازها بنفسها، ف شعر أنه يجب أن يسألها أولاً، كان لا يصدق نفسه بشكل أو بآخر هل حقاً سيطلب منها الزواج، لم يشعر أن الأمور تجري سريعاً.. لكن يكفيه شعور السعادة الذي يغمره..توقف مكانه فوراً رأى ريم تسير في اتجاهها لمبني الجامعة، شعر فجأة أنه فقد القدرة على الحركة..أخذ نفساً عميقاً ليستعيد توازنه وأسرع الخطى نحوها ولأول مرة يخفق قلبه بعنف بطريقتة لم يعتادها من قبل.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

التفتت له ريم وابتسمت لترد له التحية قائلة:

- أهلاً عمير كيف حالك؟

قال في ارتباك واضح :

- أنا.. بخير..

شعرت ريم بتوتره ولم تستطع تفسير السبب فقالت:

- ماذا هناك؟!...هل سمعت شيئاً جديداً عن دكتور ديفيد؟!

هز رأسه نضياً قائلاً:

- لا... هل أخبرتيه؟!

- في الحقيقة لم أفعل لم يكن سهلاً أبداً لأنه صديقه فعلاً، ولا أعتقد أنه سيؤذيه... أعتقد أنه يمكنك أن تخبره أنت... فأنت من سمع الحوار... وقلقك سيكون مفهوم لأنك لا تعرف دكتور ديفيد.
- معك حق... ربما يجب أن أخبره أنا.. أو نخبره سوياً.
عقدت حاجبها :
- سوياً... لا أظن أن هذا مهم... يكفي أنت.
- لم يعلق واكتفى بالصمت للحظات لكن ريم لاحظت احمرار وجهه وتردده في أن يقل شيئاً ما:
- ماذا بك؟! هل هناك شيئاً آخر؟!
أوماً برأسه ثم أشاح بنظر بعيداً وكأنه يخفي توتره قائلاً:
- هل تعتقدين أنني شخص جيد؟!
فلتت منها ضحكه فلم تتوقع منه هذا السؤال وقالت:
- هل هذا السؤال هو سبب كل هذا التردد؟!
لم يعلق بل انتظر اجابتها، صمتت قليلاً وقد خطر لها خاطر فأمسكت أصابع يديها لتفركهما قائلة:
- هل يهكم رأي؟!
ابتسم عمير وشعر انها ربما فهمت ما الذي يرنو إليه قائلاً:
- نعم... يهمني كثيراً.
مطت شفيتها وهممت كأنها تفكر:
- باستثناء شعوري بالضيق من تجاهلك لي... رغم تفهمي للسبب فأنا أجدك شخص ممتاز.
- اتسعت ابتسامته عمير قائلاً:
- وأنا أيضاً... أجد أنك شخصية ممتازة.
- بدأ الخجل يتسرب أكثر لوجه ريم وظهر هذا في تحول بشرتها ناصعة البياض إلى الحمرة رويداً رويداً.
- فاعتدل عمير وقال بصوت هاديء:
- حسناً... في الحقيقة... كنت أريد أن أطلب منك طلب، وخذي كل وقتك لتفكري فيه.

اكتفت ريم بالإيماء برأسها وهي لا زالت تنظر لأصابع يديها. فقرر عمير أن يقولها مباشرة كما خطط متأملاً أن يكون شعوره بأنها تريد أن تسمعها منه شعور حقيقي...ولن تسقط أرضاً ضحكاً عليه لتجراه على هذا لطلب.

- كنت أريد أن أسألك هل تقبلين هل تقبلين أن تكوني لي كما كانت أمنا عائشة لرسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم؟! قال الجزء الاخير من جملته بسرعة وكأنه يخشى أن تتوقف الكلمات في حلقه فنظرت له ريم بملامح مختلطة المشاعر ما بين اندهاش وصدمة وحيرة وخجل خاصة بعد أن استوعبت الطلب بينما حدث نفسه:

" ما هذا الذي قلت ، أهكذا يطلبون الزواج ، هل فهمتني يا ترى؟!.. نعم ولم لا... أردت أن أقول شيئاً مميز.. "

وجد نفسه يبتسم في ارتباك:

- إذا كنت لم تفهمي ما أردت أستطيع أن أعيده بطريقة أخرى؟! هزت ريم رأسها بالنفي وهي ما زالت في دهشة وهي تحديق بوجهه، فأردف قائلاً:

- خذي وقتك في التفكير ... وأخبريني بقرارك.
لم تجب ريم فشعر عمير بأنه يجب أن يتركها لتخرج من حالة الخجل والصدمة التي هي فيها فقال:
- حسناً سأتركك الان....بعد إذنك.

ظلت ريم مكانها حتى اختفى عمير من أمامها وكأنها تستوعب ما سمعت منذ قليل، هل كان هذا حقيقة...عمير يطلبها للزواج...لم تشعر بنفسها إلا وهي تضحك في سعادة ، وضعت كفاها على شفاها لتغطي ابتسامتها العريضة التي ستبدو للمارين لا داعي لها ، ولكن هذا لم يكن كافياً فكل من مر عليها نظر لها في دهشة بسبب ضحكها غير المضموم بالنسبة لهم ، هي حقاً سعيدة..ألهذة الدرجة تعلقت به؟!...وجدت نفسها تردد داخلها وبكل ثقة..نعم..أنا أحبه..وأريده.

ودون أن تلاحظه وقف عمير مختفياً يراقب ردة فعلها وما أن اتضح له سعادتها حتى لوح بقبضته وقد اتسعت ابتسامته هو الآخر. لم يظل واقفاً فأسرع ليلتقي بجاسر ويخبره بما حدث، سعد جاسر كثيراً وطمأنه بأنها ستقبله بالتأكيد ، وإذا وافقت هي لن يعترض أحد من عائلتها.

عاد بيته بعد أن أنهى محاضراته ليخبر أمه التي ابتسمت بدورها للسعادة الكبيرة التي يشعر بها ابنها وتمنت له التوفيق والسعادة معها ، ولأنه سعيد أراد أن يسعد الجميع فأسرع بالاتصال بهدى ليخبرها ، فسعدت كثيراً لهذا وأخبرته أنه إذا تلقى الموافقة فستفاجأ بمفاجأة.. تحمس عمير لها كثيراً وشرع في الحديث مع أخوته البنات اللاتي أصررن على وصفه لريم ، فحاول أن يفعل رغم أن هذا كان مخرج جداً بالنسبة له.

كانت أمه تراقبه وما زالت البسمة على وجهها لكن سرعان ما تلاشت حين تذكرت أباه...عمير عاش حياته كلها بدونه والآن سيبدأ حياة جديدة أيضاً بدونه، ترى هل حان الوقت لتحدثه عن أبيه...ولكن لا هذا مستحيل...ماذا ستخبره..كيف تخبره أن أمه التي يراها الأفضل قد خطأت مثل هذا الخطأ الذي لا يغتفر وحرمته من أبيه الى الأبد...بالتأكيد ستفقد احترامه لها.

.....

مريومان لم يرى ريم خلالهما مما كاد أن يصيبه بالجنون، تصور أن ردها عليه سيكون سريعاً..كانت تبدو سعيدة...هذا ما هو واثق منه، فلم اختفت..أم..أم أنها تحدثت مع أباه ورفضه..لم لا تخبره وتنتهي الأمر..أم إنها تخوض معركة معه لاقتناعه...هو يعرف ريم...هي بالفعل شخصية مستقلة ولن تفعل إلا ما ترضى لنفسها...أصابه الاحباط الشديد وظن أن سعادته تلك وقتية وسرعان ما سيعرف الرد الذي لن يكون لصالحه، كيف سيتعامل مع دكتور جوزيف الآن.. عليه أن يتماسك فدراسته أيضاً مهمة، كمل اوراقه واتجه حيث مكتب دكتور جوزيف

في هذه الاثناء،

- ابتسم جوزيف وهو يستقبل ديفيد قائلاً:
- صباح الخير دكتور جوزيف.
- صباح الخير دكتور ديفيد..... تفضل .. كيف حالك؟!
- بخير... أشكرك للسؤال.
- لم يصف ديفيد شيء فقال جوزيف متسائلاً:
- ترى ما سر هذه الزيارة المفاجئة؟!
- ابتسم ديفيد:
- أيضاًيقك أن أزورك يا جو.
- بالتأكيد لا ، ولكني أعلم أنك لا تحب أن تضيع الوقت خاصة هنا في الجامعة وبالتالي أنت تريد أن تحدثني في أمر ما.
- هز ديفيد رأسه :
- هذا صحيح يا صديقي.... في الحقيقة أنا هنا لأهنئك.
- عقد جوزيف حاجبيه قائلاً:
- تهنئي...على ماذا؟!
- نظر ديفيد لعيني جوزيف مباشرة قائلاً:
- على المنصب الذي رشحت له.
- عاد جوزيف ليريح ظهره على مقعده قائلاً:
- المنصب... أه شكرا لك، وإن كان من المفروض أن أتقدم أنا بهذه التهنئة أولاً لأنك رشحت له قبلي ولكن لأنك لم تحدثني في الامر فلم أفعل أنا.
- أنت تعلم أن الافضل في هذه الامور الكتمان إلى أن يتحدد بدقه فالامر مجرد ترشيح.
- بالطبع..معك حق، وها أنت جئتني بمبادرة المباركة.
- صمت ديفيد قليلاً ثم قال :
- رغم أنني اندهشت من ترشيحك..
- قال جوزيف بصوت هاديء:

- أتراني غير جديراً بها؟!؟
- كلا.. كلا.. ولكني أعلم أنك تفضل العمل الاكاديمي عن العمل الاداري.
- هذا صحيح، ولكن هذا المنصب لن يمنعني عن ممارسة العمل الاكاديمي وان كان سيقلله بعض الشيء.
- زفر ديفيد قائلاً:
- أتعلم أن هذا المنصب كان يشغل تفكيري طوال الوقت.
- صمت جوزيف ولم يعلق، فوقف ديفيد واتجه إلى النافذة ينظر لساحة الجامعة التي تعج بالطلبة والطالبات:
- رغم حبي لهذا المكان وكوني أستاذ ناجح إلا أن هذا الوظيفة تعني لي الكثير.
- ثم التفت لينظر لجوزيف قائلاً:
- وأخر ما كنت أتمناه أن ينافسني عليها صديقي العزيز جو.
- وقف جوزيف واتجه لديفيد وقال وقد ضاقت عيناه:
- أتريد أن تطلب مني أن أعتذر عن هذا المنصب يا ديفيد؟!؟
- مط ديفيد شفتيه:
- ما كنت سأقبل أن تطلبها مني فكيف أطلبها منك؟
- أوماً جوزيف برأسه والتفت إلى الباب فوراً سمع طرقات عليه فقال ديفيد:
- سأتركك الان لعمالك.... وتهاني الحارة لك يا صديقي.
- أشكرك.

.....

الفصل السادس

- اتجه ديفيد للباب ليفتحه ليجد عمير أمامه فابتسم له قائلاً:
- أهلاً... بمن سيكون له شأن مادام يدرس تحت إشراف دكتور جوزيف.

لم يبتسم عمير بل ظل ينظر له بوجه جامد مما أثار دهشة ديفيد الذي تركه وغادر بينما ظل عمير ينظر له غير منتبها جوزيف الذي كان يحدق فيه مستنكراً:

- أنت ... ماذا بك؟!

انتفض عمير ونظر لدكتور جوزيف وانتبه أنه يقف أمامه مباشرة فأردف جوزيف:

- ماذا أصابك أيها الشاب؟!

- لا شيء دكتور.. لا شيء..

دار جوزيف على عاقبيه عائداً لمكتبه وتبعه عمير وهو يغلق الباب خلفه ليجلس أمامه ولكنه لم ينطق بكلمة فقال جوزيف مبتسماً:

- كيف حالك؟!

ابتسم عمير بدروه وإن كانت ابتسامته متوترة:

- بخير... تفضل.

أخذ أوراق بحث جديد منه ولكنه وضعه أمامه دون أن يطالعه، فنظر له عمير متسائلاً:

- ألن تطلع عليه الآن هل أنت مشغول؟!

هز جوزيف رأسه نفيًا ثم قال:

- لقد أخبرتني ريم بطلبك لها.

اتسعت عينا عمير وشعر وكأن قلبه قد انتقل من مكانه فجأة ليستقر بين قدميه، ابتلع ريقه بصعوبة وحاول أن يرتب كلامه قائلاً:

- في الحقيقة دكتور... نظراً لتربيتي الملتزمة بعض الشيء... وجدت أقصر طريق لكل ما أشعر به.. هو أن أتقدم لخطبة ريم، فليس لدي

سبيل آخر... وأتمنى أن تكون عرفقتني جيداً خلال الفترة الماضية

لتجد في ما يليق بأن أكون زوج أبنتك الوحيدة.

صمت جوزيف محققاً به للحظات ثم قال:

- هل أنت هنا وحدك؟!

سرت القشعريرة في جسد عمير، فها قد وصل للنقطة التي يكرهها

بالتأكيد سيسأله عن أبيه، تنفس بعمق قائلاً:

- لا... لقد جاءت أمي معي.
عقد جوزيف حاجبيه قائلاً:
- وأباك.
خفض عمير بصره وبدأ على وجهه الحزن وهو يقول:
- انفصل عن أمي قبل ولادتي، ولم يعد له دور في حياتي.
لم يتوقف جوزيف طويلاً أمام هذا الأمر، فما يعنيه هو عمير وليس
أباه، فقال:
- هل أمك موافقة؟!
- بالتأكيد.
- دون أن ترى ابنتي.
ابتسم عمير قائلاً:
- هي تثق في اختياراتي.
ابتسم جوزيف بدوره قائلاً:
- لا بأس... استدعوها زوجتي لزيارتنا كي ترى ريم وتتحدث معها، وبعد
الزيارة إذا كان كل شيء على ما يرام... سنحدد ميعاد الخطبة.
حدق عمير فيه للحظات وكأنه لم يصدق ما سمع فردد:
- ميعاد الخطبة؟!
ابتسم جوزيف وهو يهز رأسه:
- نعم.. أليس هذا ما تريده؟!
قفز عمير من مكانه ليصافح جوزيف بحرارة مردداً:
- أعدك أن أسعدك قدر استطاعتي... ولن أجعلك تندم أبداً على
قبولي.. أشكر دكتور جوزيف... أشكر كثيرًا.

خرج عمير من عند جوزيف وكأنه ملك جناحين ليطير بهما... لم
يصدق أن جوزيف بنفسه أخبره بقبوله، اتفق مع جوزيف على ميعاد
الزيارة التي سيحضر فيها أمه لتلتقي بريم وأمها في منزل جوزيف، ونبهه
على أنها زيارة نسائية لذا لن يحضر هو ولا عمير أيضاً فقط سيوصل
أمه، توقف فوراً أنتبه لريم التي كانت تراقبه من بعيد وكأنها

- تعرف أنه سيعرف الرد الآن، وما أن نظر لها حتى أدارت وجهها بعيداً
أسرع الخطى نحوها وقد اتسعت ابتسامته كثيراً.
- ريم...أنت هنا.
التفتت له قائلة:
- نعم... كيف حالك؟
- الان...أنا في أفضل حال.
ضحكت وهي تنظر بعيداً، فأردف قائلاً:
- أشكرك...أشكرك..أنك قبلتي طلبي...لا تعرفين مقدار السعادة
التي أشعر بها الآن.
ابتسمت في حياء:
- وأنا أيضاً..أشكرك...لأنك ستجعلني جزء من حياتك.
- لقد كدت أن أجن اليومان الماضيان، ولكن حمداً لله...لم يخب
ظني.
مطت شفيتها قائلة:
- امر...كنت أظنك أكثر ثقة بنفسك.
- لكني لم أكن على ثقة بمشاعرك أنت...وهذا سبب قلقي.
- والآن...كيف هي ثقتك بمشاعري؟
ابتسم قائلاً:
- أفضل أن تقولي أنت... كيف يجب أن تكن ثقتي بمشاعرك؟
خفضت رأسها وقبل أن تجب سمعا:
- عمير...ريم...أين أنتما؟
جز عمير على أسنانه وهو يرى جاسر يسرع نحوهما قائلاً:
- عمير كنت أبحث عنك.
قال عمير من بين أسنانه:
- وها قد وجدتي.
عقد جاسر حاجبيه:
- ماذا هناك؟
هز عمير رأسه بينما اخفت ريم ابتسامتها بكفها ثم قال عمير:

- لدينا أمر نريد أن نطلعك عليه.
حدق جاسر بهما للحظات ولا حظ تورد وجنتي ريم فصاح:
- دعني أضمن... ستتم الخطبة.
أوما عمير برأسه فأسرع جاسر يضمه إليه مهنتاً إياه وريم، وبدت السعادة واضحة عليهم جميعاً وجاسر يتحدث عن حفل الخطبة وما سيفعل فيها من أجل أخيه عمير.

.....

جلست رجاء بجانب ابنها في سيارة الأجرة في اتجاههما لمنزل ريم، كانت رجاء قليلة الخروج كثيراً لذا لم ترى الكثير في هذه البلد بعد.

- لم لا تشتري سيارة.. بدلاً من استخدام عربات الأجرة.
- أنا لا أعرف الطرق هنا أمي.
- أستخدم الخرائط... أو حتى الملاح الإلكتروني.
- لا تقلقي يا أمي سأشتري إن شاء الله.

وصلا بالفعل، فنزلا من السيارة وطلب عمير من السائق أن ينتظره، طرق الباب لتفتح له الخادمت، وظهرت بعدها سريعاً زوجة جوزيف مرحبه بهما، لكن عمير استأذن للذهاب كي تتحدثا على راحتها، فقالت دينا:

- مهلاً... أنا لم ألتقي بك من قبل.
ابتسم عمير:

- أنا سعيد حقاً سيدتي... لكنني فهمت من دكتور جوزيف أنها زيارة نسائية.. لذا أسمح لي... سأذهب.. أمي اتصلي بي كي أعود لأصلك.
قالت دينا:

- لا بأس... ستوصلها ريم... يمكنك أن تقضي وقتك كما تشاء.
شكرها كثيراً وغادرهما.

جلست رجاء مع دينا التي رفعت حجابها لينسدل شعرها الأشقر على كتفها، وبعد لحظات قليلة ظهرت ريم...ابتسمت رجاء لمرآها فلقد كانت جميلة ورائعة، حيث رفعت شعرها لأعلى على شكل ذيل حصان..مما أظهر وجهها أكثر وبدا جماله بوضوح، لم تكن أضافت أي مساحيق، فلم تكن بحاجة إليها بسبب بشرتها البيضاء وشفاها الوردية، ووجنتيها الحمراءوان. لم تستطع رجاء إلا أن تقف لتضمها إلى صدرها هامسه في أذنها:

- اكتشفت الان أن ابني عمير يمتلك ذوق رائع... ماشاء الله عليك عزيزتي.

اتسعت ابتسامته ريم لكلماتها، وشعرت بدقات قلبها تتزايد، فقلد كانت قلقة من هذا اللقاء...هل ستعجب بها أم لا؟.. فكرت أن تضع المساحيق على وجهها لكنها رأت أنه ربما أم عمير لا تحب هذا النوع من الفتيات..فلتبقى على طبيعتها أفضل...ويبدو أنها أحسنت التصرف.

كانت جلسه هادئة تبادلن فيها الكلام والسمر، تعرفت رجاء أكثر على ريم وأفكارها ووجدت أن اعجاب ابنتها به في محله حتماً، وحاولت ريم أيضاً أن تعرف أكثر عن عمير...ما الذي يحبه؟!...ما الذي يكرهه؟!...ماهي طموحه بعد حصوله على الماجستير، ووصلت معاها الى أنه حتماً سيعود لبلده عند انهاء الدراسة هنا تلملت دينا قائلة:

- وما الداعي لرحيله؟!... أقصد سيكون له مستقبل باهر هنا. صممت رجاء قليلاً فهي تعرف أن دينا تفكر في ابنتها وكونها ستبتعد عنها فقالت:

- ربما معك حق...لكنه أخذ عهداً على نفسه بأن يعد لبلده فور تحقيق أهدافه من بعثته تلك.

بدت خيبة الامل على وجه دينا لكن هذا لم يكن يضايق ريم فهي كانت تعلم أنه سيعود لبلده لا محاله، فابتسمت قائلة:

- سأكون سعيدة بأن أعيش بمصر..فلم أراها أبداً...برغم أنني أحمل جنسيتها.

رفعت رجاء حاجبها قائلة:

- حقاً... أنتِ مصريّة.

أومأت برأسها قائلة:

- لم أخبر عمير.... كنت أريد أن أفاغئه بذلك... فأبي مصري

الأصل... وحملت الجنسية منه، أما أمي فهي انجليزية، ولدينا العديد من

الأصدقاء المصريين هنا.. أبي يعرف معظمهم تقريباً.... سندعوهم

جميعاً في حفل خطبتنا.... لن تشعري بالغربة.

ضحكت رجاء قائلة:

- إنها مفاجأة سارة فعلاً.... ويسعدنا أن نلتقي بالمزيد من المصريين

هنا... إذا دكتور جوزيف مصري.

- نعم.. لكنه لا يتحدث مع طلابه عن بلده.. هذا طبعه.

قالتها دينا وهي تقدم لها الفاكهة، شكرتها رجاء واستمر حوارها

وأرادت ريم من رجاء أن تصف لها مصر، وسعدت رجاء وهي تخبرها عن

موطنها الأصلي الذي لم تزوره قط.

انتهت الأمسية على خير، وكانت رجاء سعيدة جداً بها، خرجت ريم

معها لتوصلها بسيارتها، شكرت دينا كثيراً على حسن الاستقبال

واتفقا على تحديد ميعاد الخطبة في أسرع وقت.

أخيراً تم تحديد ميعاد الخطبة وبدأت ريم في دعوة أصدقائها،

وكذلك عمير كانت السعادة تملأهما وهما يستعدان لهذا

اليوم... الذي شعرت ريم أن حياتها كلها توقفت فقط لأجله، كانت

تتصيد الفرص فقط لتراه وتحدث معه خاصة أنه خف قليلاً من

معاملتها كأجنبية مما جعلها تعتقد أنه لن يطيل في الخطبة كثيراً

وسرعان ما سيطلب عقد قرانهما... هي لن تمانع بالتأكيد.. بل إنها قررت

إذا لم يحدثها هو في الأمر... ستحدث هي... تريده أن ينظر لها بحرية

دون أن يرتبك ويشيح بوجهه بعيداً.

.....

وصل عمير منزله وهو يحمل بدلتا الخطبة، التي اشتراها هو وجاسر، كان يحملها في فرح بالغ، يتخيل نفسه فيها..هل ستراه ريم وسيماً في ذلك اليوم. كم ينتظر هذا اليوم...وان كان شيء في داخله تمنى لو كان هذا اليوم يوم عرسه عليها وليس خطبتها، على كل حال هو قرران يحدثها في ألا يطبلا فترة الخطبة إن كانت لا تريد الزواج الان بسبب الدراسة فعلى الاقل سيعقد قرانه عليها، بالتأكيد هو بحاجة الى ذلك، فكم يريد أن يقترب منها أكثر... لا بد وأن بشرتها غاية في النعومة...هكذا يظن..فصفاؤها لا حدود له. ابتسم وهو يفكر بها هكذا، فhez رأسه ليدخل شقته لتستقبله امه:

- عمير لقد عدت.

- نعم أمي...واشتريت البدلتا.

ابتسمت الام وهي تلقي نظراتها إلى ممر الغرف فقال عمير:

- ماذا بكِ أمي؟!...لم تبسمين هكذا؟!!

ضمت كفها أمام فمها وكأنها تتحدث في بوق قائلت:

- افتح يا سمسم.

عقد عمير حاجبيه مع ابتسامته غير مفهومة حتى انتفض وهو يسمع من

يصيح:

"مفاجأاً!!!!!!!"

التفت ليفغر فاه في دهشة بالغة قائلاً:

- أمي هدى...ونبيلت.

فتحت هدى ذراعها قائلت:

- عمير...ابني...افتقدك كثيراً.

ألقي بنفسه بين ذراعها وهو يصيح:

- أمي...أمي...لا أصدق...يالها من مفاجأة.

قالت وما زالت تضمه لها بقوة:

- ألم أخبرك إذا تمت الخطبة سأفاجأك...وها نحن.

رفع رأسه لها قائلاً:

- إنها أروع مفاجأة أتلقاها في حياتي.
ثم التفت ليضمه نبيلة أيضاً لصدره قائلة:
- أختي المشاكسة...أفتقدك كثيراً.
ضحكت قائلة:
- وأنا أيضاً...ولكني أحمل لك رساله من بنات بلدك.
ضحك قائلاً:
- بنات بلدي كلهن...ماهي؟!
- عندما تقومون يا شباب مصر الأفاضل بالزواج من الخارج...من سيكون
لهن لينجيهن من هذا اللقب الفج الذي يمزق أوصالهن...ألا وهو العنوسة.
كانت تقولها بأسلوب خطابي أضحكهم جميعاً ، فقال عمير مدعياً
التأثر:
- معك حق...أنا حقاً أسف...بإغيهن اعتذارى... ففي النهاية ما كنت
سأتزوج إلا واحدة فقط منهن.
هزت رأسها في آسى مصطنع:
-أخ..أخ...هذا فقط ما نكسبه...أنت تقول أسف....وغيرك يقول
أسف...
ثم رفعت يداها للسماء:
- لَكُنْ الله...يا بنات بلدي.
هزت رجاء رأسها قائلة:
- ألم أخبرك أن تدخلني ابنتك معهد التمثيل؟!...إنها تجيده.
ضحكوا جميعاً ثم اسرعت نبيلة تمسك ببديلته فصاح:
- احترسي... إنها مرتبه.
- لا تقلق...أريد أن أراها فحسب...هيا اذهب وارثدها...نريد أن نرى
كيف ستبدو عليك..فربما كانت غير مناسبة.
- حسناً..ولكن مهلاً...متى وصلتتما؟..وكيف تم كل هذا بغير علمي؟.
قالت هدى:

تزايد عدد الحاضرين لحفل خطبة ريم في منزل جوزيف وبالفعل كان هناك العديد من المصريين بالاضافة لجنسيات عربية أخرى وانجليزية بالطبع وتم إعداد وليمة كبيرة على شرف الحفل والتي بدأت بعد الغروب بساعة وبينما وقفت ريم تستقبل أصدقاءها وزملائها كذلك كان جوزيف وزوجته التي قالت:

- العدد في تزايد... لم أكن أتوقع هذا.

- لا بأس عزيزتي الطعام سيكفي.

- انظر كم ابنتنا سعيدة.

تأمل ابنته في سعادة:

- نعم... وأنا أيضاً سعيد.

ارتدت ريم فستان وردي وحجاب من نفس اللون، كان فستانها ذو ذيل طويل، تجره خلفها اينما ذهبت، كانت تبدو سعيدة وفي نفس الوقت مرتبكه، لم يصل عمير بعد؟!.. ثرى هل سيعجبه فستانها؟!... هي واثقة انه لن يعلق، لكنها بداخلها تمننت أن يراها أجمل من أي وقت مضى. اقتربت من والديها لتقبلهما ليقول جوزيف:

- أميرتي تبدو رائعة الجمال.

- أشكرك أبي.

هزت الام رأسها:

- ولم لا؟!... مادمت نسخت مني.

ضحك جوزيف:

- حبيبتي... لا توجد نسخ منك... أنت فريدة من نوعك... ثقي بهذا.

تأبطت ذراعه وهو تبسم في سعادة وبدت كمراهقة غازلها حبيبها

للتو، فابتسمت ريم ثم قالت:

- لم يظهر دكتور ديفيد ولا ريتشي بعد.

نظر والدها لساعته:

- إنهما في الطريق بكل تأكيد.... سأدخل المكتب لأتصل به.

تركهما وذهب لغرفة مكتبه، فالتفت ريم للباب المنزل ثم قالت:

- أمي... لقد وصلوا.
التفتت دينا لترى عمير يدخل مع أمه ومعهما هدى ونبيلة، فهمست
لابنتها:
- هل تعرفينهما؟!
أومأت رأسها:
- نعم... تكلمت مع عمير صباحاً... فأخبرني أن أمه بالرضاعة وأبنتها
التي هي أخته... سيحضران الحفل.
اتسعت ابتسامتها قائلة:
- حسناً دعينا نستقبلهم.. هل سنبقى هنا؟!
أسرعتا باتجاههم.. فهمست دينا لابنتها:
- عمير يبدو وسيماً جداً.
شعرت ريم بالخجل:
- أمي... توقي.
ضمت رجاء ريم إلى صدرها في حنان:
- مبارك لك حبيبتي.. أتمنى لكما السعادة من كل قلبي.
ابتسمت ريم في حياء قائلة:
- شكراً.
قدمت رجاء لدينا وريم هدى ونبيلة، فوكزت نبيلة عمير قائلة بصوت
سمعته ريم:
- يا الهي عمير.... من أين جئت بهذا الجمال؟!... لك عين ذواقه فعلاً.
توردت وجنتي ريم بينما عقد عمير حاجبيه وهو يمنح نبيلة نظرة
تحذيريه، لكنها لم تهتم اسرعت لتسير بجانب ريم قائلة:
- كنا نظن أن عمير... مغمض العينين... لكن اتضح انه حين
فتحهما... فعلها لمن تستحق.
- نبيلة..
قالها عمير بمزيد من اللهجة التحذيرية، فضحكت نبيلة:
- حسناً.. حسناً... على رساك سأصمت.
امسكت هدى ذراع ابنتها:

- نبيلته..توقفي عن إحراجهما.
- حاضر ولكن مهلاً.
أسرعت تجذب عمير من ذراعه لتوقفه بجانب ريم قائلة:
- ألن يبارك العروسين لبعض؟!
ضحكت رجاء وهدى خاصة بعض النظرة التي منحها عمير لنبيلته،
دوماً كانا يتناوشان...فنبيلته هي البنت التي رضع معها من هدى...حيث
كانت تكبره بأشهر قليلة، تدرجا في المراحل التعليمية
سويماً...وتعتبر هي الاقرب لعمير ، وإن كانت نيرة تحاول منافستها
حالياً ، لكن دوماً نبيلته تثق..بأن مكانتها عند عمير..لن يلحق بها
أحد.
عقدت ذراعيها أمام صدرها قائلة:
- هيا عمير..بارك لعروسك.
شعر عمير برغبة عارمة في ضرب نبيلته بأي شيء، أو ربما إعادتها
للقاهرة في الحال، لكنه تماسك وهو يتمتم بصوت شبه مسموع:
- مبارك ريم.
ابتسمت ريم مع شعورها بخجل عمير مرددة:
- مبارك لك أيضاً.
كانا يتحدثان دون النظر لبعض فهزت نبيلته رأسها:
- يا الهي.... أي نوع من المباركات تلك.... انظر لعروسك.... اخبرها
كم تبدو رائعة.
أخذ عمير نفساً عميقاً ليكتم غيظه من نبيلته وفي نفس الوقت يتغلب
على توتره وخجله، فمنح ريم نظرة سريعة قائلاً:
- هي تبدو رائعة طوال الوقت.
صفقت نبيلته بحرارة قائلة:
- يالك من شقي...تغلبت علي.
ضحك الجميع فهز عمير رأسه قائلاً:
- أين دكتور جوزيف؟!
قالت دينا:

- هو في مكتبه يجري اتصالاً هاتفياً...أعتقد أنه لن يمانع أن تطرق عليه باب المكتب ليعلم بوصولكم ..نريد أن نعلن خطبتكما على الجميع.

ابتسم عمير واستأذنه واتجه إلى حيث أشارت دينا وبعد أن أبتعد عنهن واقترب أكثر من المكتب وجد من يفتح الباب فابتسم لتلتقي عيناه بجوزيف الذي ما أن رآه حتى ابتسم له فتوقف عمير مكانه بينما اتجه إليه جوزيف ليتصافحا، بارك له جوزيف، فالتفت عمير حيث ترك الجميع مشيراً لعائلته وما أن نظر جوزيف حيث يشير.. حتى ضاقت عيناه وكأنه يتأكد مما يراه... لتتسع بعدها عيناه في ذعر لا حظه عمير لكن لم يستطع تفسيره، ثم عاد ينظر لعمير وقد تحولت نظراته لدهشة وذهول و.... و... وغضب، قائلاً:
- مستحيل...رجاء... أمك.

عقد عمير حاجبيه وقد انتقلت له حالة الذهول قائلاً:
- هل تعرف أمي؟!؟

وقبل أن يجيبه سمع صوت ريم:

- سيدة رجاء ماذا بك؟!؟

التفت ليري أمه بالكاد يمكنها الوقوف على قدميها وهي تحدق في جوزيف بذهول وصدمة، شاركتها فيها هدى التي ظلت تردد:
- يا الهي...يا الهي.

.....

الفصل السابع

أسرع عمير لهن ليمسك بذراع أمه التي تجاهد مستندة على هدى لتستعيد توازنها، بينما يراقب الجميع ما يحدث دون استيعاب، عاد عمير ينظر لجوزيف الذي استدار عائداً لمكتبه، فالتفت لهدى وكأنه يبحث عن تفسير فقالت أمه في تهالك:
- أعدني إلى المنزل عمير... الان... لا أستطع الوقوف.
أمسك بأمه جيداً بينما قالت دينا:

- هل نطلب لك الطبيب؟!
- هزت رجاء رأسها وقد تقاذفت العبرات من عينيها:
- أسفت...سامحوني... يجب أن نذهب.
- لم تفهم دينا ما الذي يجري لكن شعرت أن سبب ما أصابها هو رؤيتها
لزوجها، أما ريم فقالت:
- لا بأس سيدتي... سأوصلكم بسيارتي...اعتذري للمدعوين أمي.
وفي طريقهم للخروج التقوا بجاسر الذي قال بقلق:
- عمير...ماذا حدث؟!
- ترك عمير أمه لتذهب لتركب السيارة بمساعدة نبيلة وهدى ليقول
لجاسر:
- لا أعلم...أقصد أمي تعبت قليلاً...لن نكمل الحفل.
يا الهي.
- ربت جاسر على كتفه مردفاً:
- لا عليك...لا بأس...ستكملوها في وقت آخر.
أوماً عمير برأسه بشرود ثم قال:
- يجب أن أذهب الآن...أراك فيما بعد.
ودعه جاسر سريعاً لتنطلق ريم بالسيارة فوراً استقر بها.
- التفتت دينا للمدعوين الذين كانوا يراقبون ما يحدث في دهشة
فتماسكت قائلة في لباقة:
- معذرة لكم جميعاً... كما ترون لقد تعبت أم خطيب ابنتي وكان
لابد من إعادتها للمنزل.... معذرة لكم جميعاً... أرجوكم أن تقبلوا
دعوتنا على العشاء الليلة... وهذا سيسعدنا كثيراً.
- هدأت مهماتهم قليلاً إلا أن الجميع شعر بالحرج وقرر أن يرحل ،
فغادروا تباعاً. اقتربت من دينا مديرة المنزل:
- سيدتي ... ماذا سنفعل بالطعام الكثير الذي لم يؤكل منه؟
قالت دينا وبصرها متعلق بغرفة مكتب زوجها:
- أفعلي ما تفضليه عندما يتبقى الكثير من الطعام.

- ولكن هذا كثير جداً يا سيدتي.
- أفعلي ما قلت...قومي بتوزيعه...هيا اذهبي.
اتجهت دينا ببطء لتفتح باب مكتب زوجها لتجده موليها ظهره في
كرسيه الكبير الذي يخفي جسده تماماً فهمست:
- يوسف.

وقبل أن تضيف شيء قال بلهجة جافة:
- لا أريد أن يدخل علي أحد ولا أن يحدثني أحد.... اغلقي الباب
خلفك.

قالت في تردد:
- يوسف من حقي أن أفهم.....
قاطعها بلهجة أكثر جفافاً:
- لن أعيد كلامي.
لم تجد أمامها غير الانصياع لمطلبه أو بمعنى أصح لأمره فهي تعرفه
جيداً لن يتحدث مادام لا يريد وخرجت لتنتظر عودة ابنتها ريم.

.....

ساد الصمت الجميع وهم في الطريق، ولم يجرؤ أحد على كسره كانت
عيون عمير متعلقة بالمرأة الأمامية ينظر لأمه التي استقرت مع هدى
ونبيلت في المقعد الخلفي، وكانت تبكي...لم تستطع إلا أن
تبكي...كان يبحث عن تفسير على صفحة وجهها لكنه لم يفهم
شيء، هما يعرفان بعض بكل تأكيد..ولكن لم..لم ردة الفعل تلك؟
..كان هذا السؤال يدور في رأس ريم أيضاً...لم تبكي أم عمير؟... ماذا
أصابها فور رؤية أباها؟...لم تمنع قلبها من الانقباض والشعور بالقلق...
هل حلمها في الارتباط بعمير سينتهي؟!... هل هناك شيء بين والدها
ووالدته سيوقف كل شيء قبل أن يبدأ؟!...
لكن لا...هي لن تسمح بذلك...ما شأنها هي وعمير بما بين والديهما.
حاولت أن تطمئن نفسها بهذه الكلمات.

ما أن دخلوا جميعاً الشقة حتى قالت رجاء:

- خذيني غرفتي هدى.
- أخذتها هدى في الحال بينما وقف عمير ومعه ريم ونبيلت ينظرون لبعض وليس عند أيّ منهم تفسير، شعرت نبيلت أن عليها تركهما قليلاً فقالت:
- ريم اجلسي.... سأحضر لك شيئاً تشربه... لا نريدك أن تظنينا بخلاء.
- ابتسمت لها ريم شاكرة، فذهبت نبيلت بينما التفتت ريم لعمير قائلة:
- هل ستكون أمك بخير؟!
- أوماً لها إيجاباً دون أن يقل شيء، فلقد كان مشغول في إيجاد أي صلة بين أمه وجوزيف، فسأل ريم:
- هل زاردكتور جوزيف مصر من قبل؟!
- ابتسمت ريم قائلة:
- كنت أعدها مفاجأة لك... لكن يبدو أنها لن تكن سارة.
- عما تتحدثين؟!
- مطت شفيتها وقالت:
- أبي مصري عمير... أبي مصري.
- عقد عمير حاجبيه وزادت دقات قلبه بشدة، وهو يقول:
- مصري؟!
- جلست ريم على الأريكة قائلة:
- نعم... عاش بمصر طفولته وشبابه...هاجر منها وهو في الثلاثين من عمره... وبالتأكيد في هذه الفترة التقى بأمك وتعرف عليها ولكن يبدو أن تلك المعرفة... ليست...
- قطعت جملتها فقال عمير:
- ليست طيبة... أكملها.
- ثم أعطاها ظهره قائلاً:
- ولكن كيف؟... كيف؟!... أنا لم أسمع باسم ابنيك ينطق على لسانها ولا على لسان أحد من عائلتنا إطلاقاً.. هل الأمر سراً أم ماذا؟!
- صمتت ريم قليلاً ثم وكأنها تذكرت شيء:

- أه...ربما...لأنها كانت تذكره باسمه الأول.
التفت لها متسائلاً:
- اسمه الاول؟!... أليس يوسف؟!
- لا يوسف هذا لقب أبي كان الأسهل في النطق هنا ففضل أبي
استخدامه بدلاً من اسمه الاول...سر أبي عربياً هو...ياسين.... ياسين
يوسف حمدي.
دوى صوت تحطم زجاجي فالتفتا له فوجدا نبيلة تنظرلها بوجه
ممتقع ثم تداركت نفسها قائلة:
- أسفرت..لقد التوت قدمي فجأة...فسقطت مني الاكواب.
كان عمير يحدق بقطع الزجاج على الأرض، وشعر أنها صورة مجسمة
لقلبه الآن...لكن الفرق الوحيد أن قطع الزجاج تنزف ماءً وشراباً
مثلج..أما قلبه فينزف دماً، أدار ظهره لريم التي أرادت مساعدة نبيلة
لكنها منعتها قائلة:
- لا قد تجرحي نفسك.
أتهما صوت عمير هزياً وهو يقول:
- ريم... عودي لمنزلك الآن.
لم تفهم ريم لم يتحدث هكذا؟؟?
أما نبيلة فقد حملت عينها كل معاني الالم والأسى..وأرادت مساعدة
أخاها فقالت:
- نعم...ريم الوقت سيتأخر..سيحدثك عمير في الصباح...أسفرت حقاً
على ما حدث.
ظلت عيون ريم معلقة بعمير بينما تجرها نبيلة لباب الشقة، وودعتها
وما أن أغلقت الباب حتى انهار عمير ولم تعد ساقاه قادرة على حمله
فسقط على ركبتيه بينما ينتفض جسده بعنف، فأسرعت إليه نبيلة
وهي تناديه بجزع، فنظر لها بعينان زائغتين مليئة بالدموع:
- هل سمعتي ما سمعت؟!..هل سمعتي؟!..قولي لي..أنني أسأت الفهم...
قولي أنه تشابه أسماء فحسب.

لم تعرف نبيلت بما تجيبه، فلم تتمالك دموعها هي الأخرى، فhez رأسه
في عنف:

- مستحيل..... مستحيل...دكتور جوزيف هو نفسه....

لم يستطع أن يكمل فرغ رأسه عالياً ومصرخاً:

- لا...لا.. لا.....

ضمته نبيلت إليه مرددة:

- يكفي عمير..يكفي...يا الهي...يا الهي.

خرجت هدى على صراخه قائلة:

- ماذا حدث؟!

دفع عمير نبيلت عنه وأسرع يتعلق بذراع هدى:

- أمي... أخبريني...هل هو؟!... هل هو نفسه...؟!!

كان ينتفض بشدة ولم يقوى على إضافة كلمة أخرى فقالت نبيلت:

- ريم قالت أن اسم أبيها..ياسين يوسف حمدي.

أشاحت هدى بوجهها بعيداً وقد ارتسمت معالم الحزن والألم على

ملامحها، فتركها عمير وتجاوزها لكنها تعلقت بذراعه:

- إلى أين؟!

التفت إليها وقد بدأ الغضب يتسرب لنظراته:

- أتركيني أمي....أريد أن أتحدث إليها...يجب أن أفهم.

تمسكت به بقوة أكبر قائلة وهي ترجوه:

- ليس الآن...إنها منهارة...هي ستخبرك بكل شيء...لكن ليس

الآن...أرجوك...تريث قليلاً.

صاح وهو يهتز بعنف:

- إلى متى سأتريث؟!...لقد تريثت ٢٥ عاماً...ألا يكفي؟!

ريثت على كتفه قائلة بحنان:

- اهدأ عمير...لم لا تتوضأ وتصلي...ستهدأ إن فعلت.

عادت لرجاء تاركه عمير في نيران من المشاعر المتناقضة، لهيبها
يكاد يحرقه من الداخل... منذ متى وهو يحلم باليوم الذي يرى أباه

فيه.. منذ متى وهو يتمنى أن يعرفه وأن يعثر عليه، ولكن..ولكن..
أبدأ ليس بهذه الطريقة.

اقتربت منه نبيلت وأمسكت ذراعه:

- تعال عمير...فلتد خل غرفتك لترتاح قليلاً.

تحرك معها كالمنوم، لا يشعر بقدميه أين تأخذانه، أجلسته نبيلت
على فراشه قائلة:

- سأحضر لك ماتشربه.

كان ما زال في بحر أفكاره المتلاطم الامواج:

- اذا كان هو أبي حقاً لم ردت فعله كانت هكذا؟..لقد سألتني إن

كانت أمي...ثم تركنا وابتعد وكأن ما يحدث لا يعنيه في شيء.. هو

لا يعلم عني..بالتأكيد هو لا يعلم عني... ولكن كيف...كيف لا

يعلم عني...ألم تخبره أمي؟!.. أمي... أمي... قلما تحدثت عن أبي وإذا

قالت شيء كان دائماً أنها أخطأت في حقه وأنه لا يجب أن ألومه أو

أكرهه فهو لم يكن يقصد هجري.... فما هو هذا الخطأ الذي يجعله

لا يهتم بي؟...دكتور جوزيف الذي عرفته ليس بشخص غير مسئول

.....، إنه ليس بالرجل الذي يهجر أطفاله...إلا إذا لم أكن أبنة!..!!

انتفض من مكانه حين وافته تلك الفكرة فهز رأسه وقد زاد بكاءه:

- أعوذ بالله...لا..أمي..أمي...ليست....

عجز عقله عن الاستيعاب أو التفكير ولم يشعر بنفسه إلا وهو يوجه

قبضته للمراه محطماً إياه، في نفس الوقت الذي دخلت فيه نبيلت

لتصيح:

- عمير.. يا الهي...ماذا فعلت؟!...لقد جرحت نفسك.

لم يهتم للأمر أسرع إلى تمسك كفه المجروحة وأجلسته، وجدت

الدماء تنزف بغزارة مما أفرعها فأسرعت لأمها تناديا فخرجت لها هدى

وتبعتها لغرفة عمير لتفرع لما رآته، فأسرعت تحضر الضمادات وعادت

له تضمد جرحه، بينما كان ينظر لها بوجه خال من أي تعبير، حتى أن

دموعه تحجرت في عينيه وكأنها تأبى التحرر.

وما أن انتهت حتى قال بصوت يصد من أعماقه:

- ابن من أنا؟!
عقدت هدى حاجبيها لعدم استيعابها السؤال، فرفع رأسه لها ليمنحها
نظرة لم تراها أبداً من قبل:
- هل أنا ابن ياسين يوسف حقاً... أم منحني اسمه فقط؟!
اتسعت عيناى هدى لهول ما قرأت بين جنبات كلماته:
- عمير... كيف تفكر بهذه الطريقة؟!... نعم أنت ابن ياسين
يوسف... ومن صلبه... وليس لك أب سواه.
وقف قائلاً:
- حقاً... ولم لا يعرف عني شيئاً إذا... أي خطأ ارتكبته أمي في حقه
ليتركها ويتركني؟!
خفضت هدى بصرها لتقول:
- لقد أعطيت أمك مهدناً لتنام... فحالتها سيئتر... ستتحدث معك
صباحاً، ليس من حقي قول شيء، لم لم تفعل كما قلت؟!... قم
لتصلي... لتبعد عنك الشيطان الذي يبث سمومه في رأسك.
قالت كلماتها وانصرفت، بينما عاد عمير يجلس وقد وضع رأسه بين
كفيه، اقتربت نبيلتر لتجلس بجانبه، لتربت على كتفه وتواسيه..
فقال:
- يمكنك أن تدعيني وحدي... سأصلي لربي... عسى ينجدني مما أنا
فيه.

.....

ما أن دخلت ريم منزلها حتى سألت مدبرة المنزل عن أبيها وأسرعت
لمكتبه الذي علمت أنه لم يخرج منه منذ ما حدث وقبل أن تمد يدها
لمقبض الباب نادتها أمها:
- ريم... لا تتحدثي لأبيك الان تعالي.
التفتت لأمها التي وقفت على الدرج ثم استدارت لتصعد وتبعثها ريم
إلى غرفتها ليجلسا على الفراش فقالت ريم:
- ماذا قال لك أبي؟!
- قال لا أريد أن يحدثني أحد.

- ماذا؟!... أتقصدين أنك لم تعرفي شيء.
هزت أمها رأسها:
- لا... وأبيك لن يتحدث إلا إذا أراد أن يتحدث، المهم كيف حال السيدة رجاء؟
- بخير..على ما أعتقد.
- هل قالت شيء؟
- بتاتاً... لقد دخلت حجرتها مباشرة وتحدثت أنا لعمير قليلاً ثم طلب مني أن أغادر حتى لا أتأخر ولم نصل لشيء وإن كنا نثق بأن ثمة معرفة سابقة بينهما ولكنها ليست معرفة طيبة.
- شردت أمها قليلاً ثم قالت في تأن:
- ربما.
- ومتى سيتحدث أبي؟
- لا أعلم.
- لا يا أمي يجب أن يتحدث ، فالامر لا يخصه وحده بل يخصنا جميعاً بلا استثناء.
- ثم تنهدت قائلة:
- وأشعر أن ما يجري قد ينهي كل ما تمنيته وحلمت به ، وسيبعد عمير عني إلى الأبد.
- اقتربت منها أمها ومسحت على رأسها:
- لا تقولي هذا يا عزيزتي...إن شاء الله لن تفترقا... وسيتم كل شيء كما تريدي.
- ثم احتضنتها ورددت ريم:
- أرجو ذلك يا أمي ..أرجو ذلك.
- أرادت أن تصدق نفسها ، لكن شعور داخلي يخبرها بأن توابع هذا اليوم لن تكون هيئه أبداً.

.....

أشرقت شمس اليوم التالي ووقف عمير أمام النافذه يتابع الشروق فهو يحبه ويراه دافع للتضاؤل أما هذه المرة فلم يجده كذلك ، لقد كانت

الكآبه تملأ جوارحه ولم يعد يرى أي سبب للتناؤل أو الشعور بالراحة،
سمع طرق على الباب لتدخل نبيلة:

- كيف حال جرحك؟!

منح كفه المصابة نظرة لامبالاه ثم قال:

- هل استيقظت أمي؟!

أومأت نبيلة برأسها:

- نعم...وتريدك أن تذهب إليها.

ذهب إليها بخطا بدت وكأنها على أشواك من جمر... صحيح أن صلاته
هدأت من روعه قليلاً... لكن اقترابه لمعرفة الحقيقة التي حرم منها
لسنوات أعادت لروحه لهيبها.

هال رجاء مظهر ابنها.... الضمادة التي بكفه، وجهه الشاحب، وعيناه
الحمراوين فقالت:

- هل أنت بخير؟!

لم يرد عمير...فليس لهذا السؤال جاء... كانت لا تزال رجاء على
فراشها فمدت يدها لتأخذ بيد ابنها وتجلسه جانبها وهي تتطلع له وقد
برقت عينها بالعبرات بينما لم يحاول عمير أن يقول شيء حيث شعر
فجأة برجفة تسري في أوصاله وكأن موجة من الجو البارد قد ارتطمت
به فارتعش جسده وارتجفت يده في كف أمه فضمتها إليها قائلة:

- ماذا بك يا عمير...هل تشعر بالبرد؟!

وكالمرّة الأولى كان الصمت هو جوابه مع نظرة خالية من أيت مشاعر،
فضمته إلى صدرها بقوة :

- لا تنظر لي هكذا يا ولدي... فنظرتك هذه أقسى علي من طعنة
سكين.

ألمها أنه لم يحرك حتى ذراعيه ليضمها كما اعتاد أن يفعل إذا ضمته
إليه، شعرت بجسده مازال ينتفض ضمته أكثر وكأنها تريد تدفئته
وأخيراً همس في أذنها:

- الحقيقة يا أمي.... لا أريد سوى الحقيقة.

احتضنت وجهه بكفاها ومسحت على رأسه وهي تنظر له:

- على أن تعدني بشيء.
ضاقت عينا عمير، فأردفت:
- لا تكرهني ... لا تهجرني.
هز عمير رأسه وزاد ارتعاش جسده:
- أمي بالله عليك...تكلمي..تكلمي فلقد نفذ صبري...ولم أعد
أحتم...

وضعت كفها على فيه والعبرات تنهال من عيناها:
- اهدأ... اهدأ... حسناً... سأخبرك بالحقيقة.
رددت في نفسها:
"...سبحان الله...من بين كل فتيات العالم يحب هذه... ومن بين كل
مدربي العالم يدرس عنده...وما هذا بصدفة..وانما هي أقدار كتبها
الله علينا... فأسألك ربي اللطيف بنا...أسألك ربي اللطيف بنا..."
ثم قالت له:

- ولكني سأعود بك إلى زمن بعيد ، وسأخبرك بكل ما أعرف وإن
كنت لا أعلم أسيكفي هذا أم لا.....
..... عندما كنت أصغرك بسنوات قليلة ... كنت أدرس بكلية
نظرية .اشتركت تقريباً في كل أنشطة الجامعة سواء الطلابية أو
الاجتماعية، فكوني وحيداً جعلني أحب أن أكون في اجتماعات
طوال الوقت، فكما تعلم جدتك ماتت وأنا صغيرة ولم يكن لي أخوة
ورعاني أبي طوال الوقت حتى أنه رفض الزواج بآخرى كي لا يجرح
مشاعري ... المهم قضيت عاماً مستقراً في الجامعة وفي العام الثاني
إلتقيت به.... شاب متدين متفوق، كان جدير بالاعجاب حتى أنني
اندهشت من كوني له الحظ طوال العام الماضي ، كان له أنشطة
كثيرة أيضاً في الجامعة ولكنه كان أكبر مني حيث كان يدرس
في السنة النهائية
توقفت عن الكلام ثم أردفت:

- لا أتخيل أنني سأقص عليك هذه القصة، ولكن سأقصها على كل حال، يجب أن تعرف كل ما مر بي وكيف كانت مشاعري ، علك تعذرني.

لم يصف عمير شيء فعادت تروي قصتها:

- بدأ يشغل حيزاً كبيراً من تفكيري ولكني أبدأً لم أنسى ربي ولم أنسى ديني...، وهو كان محط اعجاب كل الفتيات الملتزمات منهن وغير الملتزمات، وعندما زاد تعلقي به بدأت ألوم نفسي.... فهو ربما لا يظكر بي على الاطلاق خاصة أنها السنة النهائية له ولن أراه بعدها ، حاولت أن أنزعه من تفكيري ولكني فشلت.... انتهت هذه السنة وكم بكيت لأنني لن أراه مرة أخرى حتى أنتي لم أطيع أن أعود للدراسة العام التالي... ولكني طبعاً عدت ولم يشعر أبي بشيء، فقد استحييت أن أحدثه في أمر كهذا، وجاء العام الجديد وتصورت أنني سأراه لكن هذا لم يحدث وجاءت فتاة لتحدثني...كانت هدى وكان أول لقاء لي بها قبل أن تصبح صديقتين لا يفترقا، وبعد أن تعرفنا..أخبرتني بما أسعدني ، لقد جاءت لي وسيط منه لتخبرني أنه يتمناني له زوجة ولكنه لا يقدر على نفقات الزواج الآن كما أنه لاحظ علي يسر الحال ، فقد كان واضح علي مظاهر الغنى من ملابسي وسيارتي الخاصة، وأراد أن يتقدم لي عندما يكون جديري ... احترمت رغبته وعلمت أنني يجب أن أنتظر ما لا يقل عن ٣ سنوات، وقد بقي لي عامين في الجامعة إذاً لا بأس، علمت أيضاً أن هدى تخرجت من الجامعة العام الماضي مثله وأنها زوجه وأم لطفلة رضية وأن زوجها صديق له وهو الذي أخبرها برغبته وجاء معها ليريها إياي، أخبرتها أن تعود له بالبشرى ومنذ ذلك الحين أصبحت أرى هدى كثيراً وأصبحنا صديقتين مقربتين لبعضنا ولكن لم يحدث أن حدثتني عنه كثيراً...فهي لا تعرفه شخصياً إلا أنه صديق زوجها فحسب، ومرت الايام والشهور ونجحت وتخرجت من الجامعة ولم يتبقى غير عام واحد لأتزوج ممن أريد....والذي لم ينقص حبه في قلبي ذرة رغم عدم رؤيتي له كل تلك الفترة، ولكن ليس كل ما يريد المرء يدركه... ففي نفس الاثناء كانت هناك أشياء

تحدث لم أنتبه لها ولم أعيرها أي اهتمام، أشياء غيرت كل شيء وقلبت
الامور رأساً على عقب.

أغلقت رجاء عيناها وهي تتذكر كل ما حدث

.....

الفصل الثامن

تذكرت وجه أبيها وهو يدخل عليها حجرتها مبتسماً...

- رجاء... بنيتي... لدي لك خبراً سيسعدك حتماً.

ابتسمت له قائلة:

- ما هو يا أبي؟!؟

اقترب مني وجلس جوارى وقال:

- لقد اخترت لك شاباً ممتازاً ليكون زوجاً لك.

شعرت بالصدمة وحدثت في وجهه قليلاً ثم تصنعت الضحك قائلة:

- زوج... أتريد التخلص مني يا أبي؟

ابتسم لي ومسح على رأسي قائلاً:

- بل أريد أن أطمئن عليك، فأنت لا يخفى عليك مرضي.... وأخشى أن

أتركك دون معين.

- أبي لا تقل هذا، أدعوا الله دائماً أن يبارك لك في صحتك

وعمرك... أما مرضك فالاطباء قالوا إن صاحبتك صاحبك وإن عاديتك

عاديك... وأعتقد أنك صاحبتك منذ زمن يا أبي.

- نعم... لكنه ما زال مرض... والمرض ليس آمن.... ثم أنك لم تهتمي أن

تسأليني عن الشاب الذي اخترته لك.

- لأنني لا أفكر في الزواج الآن أبي، ما زال الحديث عنه باكراً.

- ماذا؟!؟!... أنت في العشرين من عمرك... وهناك من هم أصغر منك

ويحملون أطفالهن على حجورهن، وأنت تقولين باكر... لا ليس

باكر.... وعلى كل حال لقد خطبتك له بالفعل.

اعتدلت في جلستي وشعرت بضربات قلبي تتضاعف وقلت في قلق:

- ماذا تقصد يا أبي؟!؟

- أقصد أنني تحدثت له عن رغبتني في أن يكون زوجاً لك... وهو رحب كثيراً...كنت أعلم أنه يكن لك كل مشاعر الموده والاحترام.
- قفزت من مكاني وأنا أنظر لأبي في ذهول:
- كيف؟..كيف يا أبي تفعل شيئاً كهذا دون أن تعود لي؟!...
ستزوجني دون رغبتني؟!
عقد أبي حاجبيه :
- أنت لم تعرفي بعد من هو.
- لأنني أتحدث عن المبدأ... وهو مرفوض ..حتى لو كان هذا الشخص لا عيوب فيه.
- وقف أبي وصاح في وجهي:
- رجاء... لا تنسي نفسك.
- انتبهت أن نبرة صوتي قد علت قليلاً وأني فقدت أعصابي، عدت أجلس مكاني وقلت في هدوء حاربت لكي أصل إليه:
- أبي أنا أسفرت، لكني لم أتصور أن أتزوج بهذه الطريقة.
- لم أخبرك من هو بعد.
- من هو يا أبي؟
- مط أبي شفتيه مستاءً من أسلوب سؤالي قائلاً:
- ياسين ... ابن عمك يوسف رحمه الله.
- "...ياسين...ياسين..."
- ظلمت أردد اسمه في عقلي غير مصدقة، ياسين هذا ابن صديق أبي الوحيد رحمة الله عليه، تربيينا معا ..كنا نلعب معاً عندما كنا صغار وكان يكبرني بـ٤ سنوات ، وبعد أن كبرنا قل لقائنا ، ومات أبوه وهو يدرس بالجامعة وتولى شئون أبي خاصة أن عمي يوسف لم يكن صديق لأبي فقط وإنما شريكه في الاعمال أيضاً، لذا تولى أبي العمل ليركز ياسين في دراسته ، كان يأتي لزيارتنا كثيراً ولكن ليس دائماً كنت التقى به ، قطع حبل أفكار صوت أبي:
- رجاء.... ياسين ليس بغريب عنك وأنت تعرفيه جيداً، وأنا لن أجد من هو أفضل منه آمنه عليك وعلى مالك لأنه شريك معك في هذا

المال...وهو والحمد لله.... شاب على خلق... مثابر...عنيد... ، كما أنه
ذو هيئة رائعة...فما العيب الذي فيه كي ترفضيه؟!
- أنا لم أقل أن به عيوب يا أبي... ولكن ياسين بالنسبة لي أخ ليس
أكثر...لا يمكنني أن استوعبه في أي صورة أخرى.
- هو أخيك في الاسلام..ولكنك لست من محارمه.... ومرة أخرى لن
أجد من هو أفضل منه.
أدرت وجهي بعيداً عن أبي أكبح العبرات التي تريد أن تقفز من عيني
فإذا به يقول:
- أهنالك آخر؟!
نظرت له في ذهول ووجدتني أردد في استنكار:
- ما هذا الذي تقول يا أبي؟!
- بنيتي... كم أشعر أنني بحاجة لوجود أمك معنا الان فما كنت
ستخجلي منها مثل خجلك مني... حقاً الامر لا تعوض....أصدقيني
القول يا بنيتي؟..إذا كان هناك آخر.
نضيت بعنف وأنا أهر رأسي:
- كفى.... يا أبي.... كفى.
- لم البكاء إذا؟!
هدأت من روعي وأنا أردد:
- لا أريد أن أتزوج بهذه الطريقة.
مط أبي شفثيه في يأس ثم استدار مغادراً غرفتي دون أن يصف شيئاً،
أسرعت بالاتصال بهدى لتساعدني فاخبرتني أنها ستتحدث لزوجها
كي يخبر صديقه بما يجري وانتظرت أن تتصل بي ولكن مريومان
دون جديد كدت أفقد أعصابي وللأسف أهملت أبي وعلاجه وفجأة
أصيب بأزمة قلبية حادة.

صمتت رجاء ثم زفرت في حرارة:
- عند أصابته بتلك الأزمة لم أعرف ماذا أفعل فطلب أبي مني أن أتصل
بياسين وجاء ياسين واهتم بالامر كله وتصرف بمنتهى الرجولة وكان

أبي سعيداً به بينما كنت أراقبه دون أن يشعر وشعرت كأنني أراه لأول مرة... أبي على حق لا يوجد به شيء يدعوني لرفضه ولكن قلبي ليس ملكي ولا أستطيع أن أتقبله كزوج ، ليس وأنا أفكر في غيره، مرت أزمته أبي بسلام وظل ياسين معنا حتى عدنا إلى المنزل، كان في منتهى الود والرفق معنا ولم يشعرني من قريب أو بعيد أن أبي حدثه بأمر خطبتي ولكم احترمت هذا فيه، تحسن أبي وعاد يحدثني في أمر ياسين.

- بنيتي أرييت كيف تصرف... ألا تشعرني أنه أفضل من يمكن أن يركاك ويرعاني، أنا لن أكون مطمئناً إلا وأنتِ زوجته له.

- أيرضيك أن تزوجني إياه ولا أسعده يا أبي؟
ابتسم أبي:

- سيكون سعيداً ما دمتي معه...فهو يحبك.

- أقال لك ذلك؟!

- لا ولكني قرأتها في عينيه، وأنا واثق أنه بحبه لك سيحملك
تسعيده.

عدت إلى غرفتي أفكر في الامر، شعرت بالضيق لأن هدى لم تتصل بي أو تخبرني بشيء، ولا أدري لم لم أرغب في أن أحدثها، شعرت وكأن كرامتي تهان وأخيراً اتصلت هدى.. لا لتحل مشكلتي بل لتعقدها.. بأخباري أن ظروفه لم تتحسن خاصة بعد وفاة أباه، وأخبرتني أنه يتمنى لي السعادة مع الشخص المناسب..بكيت كثيراً...ولم يعد هناك مفر... وبدأت أفكر في ياسين وقلت ربما أبي معه حق... ووجدتني أوافق على طلب أبي وقلت إذا كنت لن أستطع أن أحصل على ما أريد فلأحقق لأبي ما يريد وقررت أن أنسى من أحببت ... وتزوجت ياسين...لن أنكر أنه أثبت حبه لي بشتى الطرق ولكني أبدأ لم أستطع أن أبادله نفس الشعور، ومرت الايام والشهور ومرض أبي بشده وتوفاه الله، فضاغف ياسين من حبه وحنانه لي ، أحيانا كنت أشعر أنه يدرك عدم حبي له ومع ذلك كان يتقبل الامر، رغم أنني عاملته بما يرضي الله طوال

الوقت، إلا أنني لم أقل أبداً كلمة أحبك في حين هو كان يردها كثيراً....

صمتت رجاء وشعرت وكأن قلبها ينتفض لقد وصلت إلى النقطة التي ستفسر لابنها الكثير وهي نفسها النقطة التي تكرهها وتشعرها كم أذنبت في حق ياسين وابنها.... ظلت على صمتها حتى سمعت صوت ابنها: - أمي لا تتوقفي...

لم ترفع عينها لتتنظر إليه بل أكملت....

- استمرت صداقتي بهدى طبعاً، ولكن لم يحدث أبداً أن تحدثنا فيما مضى.. أحياناً كنت أشعر برغبة عارمة لأسأل هدى عنه ولكني سرعان ما استعيد من الشيطان ولا أفعل، في هذه الاثناء كانت هدى حامل في طفلتها الثانية ولكن الحمل لم يكن طبيعي كحملها الاول بل كانت تتعب بسببه كثيراً لذا كنت معها معظم الوقت ولم يشعرني ياسين أن ذلك يضايقه بل كان يحثني دائماً على أن أذهب إليها خاصة أنها كانت بحاجة لمن يرعى طفلتها الكبرى نشوى،

وانتهت الشهور التسع وساءت حالة هدى وصدقني تصورنا أنها لن تنجو... ذهبنا إلى المشفى أنا وياسين وعاطف الذي كان حاله يرثى له بسبب قلقه على هدى وبينما أدير رأسي بعيداً رأيت أمامي وجهاً لوجه وما هي إلا نظرة واحدة ثم أدت وجهي بعيداً وأوصالي ترتجف رجفاً لقد عادت ذكريات ما مضى تحاصرني وتهاجمني.. وأنا لا أصدق أنه بعد ٣ سنوات

تقريباً أراه أمامي ، ٣ سنوات المده التي حددها لي حتى يتم زواجنا ولكن ها أنا أقف بجانب ياسين زوجي ، وهو أيضاً لم يطيل النظر لي بل اتجه مباشرة إلى عاطف ليسانده ويشد من أزره وظل معه بينما انسحبت

أنا ووقفت بعيداً وكان زوجي أيضاً يقف معهما وخرج لنا الطبيب وأخبرنا أن هدى أنجبت توأم لكن أحدهما ولد ميتاً وكانا فتاتان أما الطفلة الاخرى فحالتها تحتاج إلى المتابعة وكذلك الام ، رغم حزننا على المولدة المفقودة إلا أننا سعدنا أن هدى نجت وكذلك الطفلة الاخرى والتي هي نبيلة، عدنا للمنزل متأخرين وقد بلغ منا

التعب أقصاه حتى أننا لم نتبادل كلمة واحدة بل غرقنا في نوم عميق، وفي الصباح استيقظت وشيئاً تغير في قلبي، أو هكذا صور لي الشيطان ، الذي للأسف الشديد تركت له عنان نفسي ليجول ويصول بها كيف يشاء... واستمعت له وتصورت أنه حديث نفس ، فزين لي حبي القديم وأشعرني وكأنه يملك كل كياني ، بل كره لي حياتي مع ياسين الذي لم يخطيء في حقي أبداً... كم له طرق عديدة وكثيرة للغواية... لقد صور لي الامر وكأنني سأذنب إذا بقيت مع ياسين ، وأني يجب ألا أقبل أن أعيش معه وأنا أفكر في غيره... وإلا سأكون خائنة ولو بالفكر فقط.... فجعل الذنب حسنة والحسنة ذنب... خرجت من البيت لأذهب إلى المشفى... بينما مازال ياسين نائم وما أن اتجهت لحجرتها وجدته خارجاً منها... نظرت له غير مصدقة.. ومن خجلي أطرقت رأسي وقلت:

- السلام عليكم.

رد السلام ثم تنحى جانباً ليوضح لي طريق الدخول لهدى واستدار مغادراً المكان بخطوات هادئة ولكم شعرت بالضيق أنه تركني دون حتى أن ينطق بكلمة معي، ثم ذكرت نفسي....

- كيف تريدي أن يكلمك وهو يعلم ما في قلبه، وربما ما في قلبك.... كما أنك زوجه للرجل آخر وحتى إذا حاولتي أن تنس أنتِ فلن ينس هو.... نعم... لن ينس هو.... يجب أن أصحح هذا لوضع... سامحني يا أبي... سامحني يا ياسين.

دخلت لأرى هدى وكانت مازالت متعبه وكان معها عاطف الذي تركني معها وخرج ليطمئن على ابنته الرضيعة التي كانت في الحضانت ، بقيت معها طوال اليوم تقريباً ولم أهتم لحظه بالسؤال عن ياسين أو حتى أخبره بمكاني وقلت لنفسي... سيخمن أين أنا.... بعدها عدت للمنزل قبيل صلاة المغرب لأجد ياسين هناك.... شعرت بضيق شديد.. أصبحت فعلاً لا أريد أن أدخل المنزل، ولا أن أتحدث لياسين.. الذي ما أن رأني حتى سألني عن حال هدى وطفلها الرضيعة فأجبتة

على مضض واستأذنته في أن أدخل لأنام حيث كنت متعبه فعلاً فإذا به يقول:

- لا داعي لاستئذاني ... فلقد خرجت صباحاً دون استئذاني.

حدقت في وجهه للحظة ثم قلت بلا مبالاة:

- لقد كنت متعباً.. فلم أرد أن أزعجك.

- لا بأس.... هل تناولتي طعاماً؟!

- نعم... منذ ساعة فقط.

مط شفتيه قائلاً:

- حقاً... كنت في انتظارك لتناول الطعام معاً... ادخلي لتنامي إذا

كنت متعبه.

استدرت دون أن أضف كلمة واحدة... مرت ثلاث أيام بهذا الحال كنت

أخرج في الصباح وأبقى مع هدى إلى المساء ثم أعود للمنزل دون أي

حوار لي مع ياسين الذي ظل محتملاً ولم يلومني في شيء، وبعد أن

أعدت هدى لمنزلها ، عدت لمنزلي ليستقبلني ياسين كالعادة ويسألني

عن هدى وطفلها ، ولكن هذه المرة طلب أن يتحدث معي فجلست أمامه

ولم أنطق بكلمة، فقال:

- رجاء.... لا أعرف ماذا يحدث بالضبط... هل أخطأت في شيء أم كل

هذا بسبب قلقك على هدى؟

نظرت له لثواني ثم قلت:

- لم تقول ذلك... ماذا حدث؟!

- معقول؟!... أتعتقدين حقاً أن لا شيء يحدث؟!... رجاء نحن طوال

ثلاث أيام لم نتحدث لبعضنا البعض.

- لأنني أعود متعبتة ليس إلا.

- متعبتة... أم غاضبتة... أم حزينة؟!!

نفيت بهز رأسي:

- فقط متعبتة.

- أعتقد أنني أعرف ماذا بك؟

شعرت بقلبي ينتفض وحدقت في وجهه قائلة:

- عما تتحدث؟!
- أعلم أنك تتمنين أن تكوني أما مثل هدى.... ولكل شيء أوان.
زفرت في ارتياح حيث أصابني القلق مما قال وقلت:
- أنا لا أفكر في هذا الامر البتة.
عقد حاجبيه قائلاً:
- حقاً... لماذا؟!
- مازال الوقت باكراً ، وكما قلت لكل شيء أوان.
- نعم.... ولكن هذا يعيدنا للسؤال ماذا بك يا رجاء؟!
وقضت من مكاني قائلة في توتر:
- لا شيء... أنا متعبه ، وأريد أن أنام.
أردت أن التفت لأغادر من أمامه فاستوقفتني:
- انتظري يا رجاء.... حوارنا لم ينتهي بعد..ولن ينتهي قبل أن أصل
لتفسير منطقي لما يجري حولي.
رددت في نفسي
".... بالله عليك لا تفعل.... لا تجبرني على أن أسبب لك الالم..."
أردف قائلاً:
- تكلمي رجاء.... ماذا يدور برأسك؟!
نظرت إليه نظرة غاضبه فقال:
- هل تعلمين كم أحبك؟!.... هل شعرتي يوماً بتقصيري معك؟!....
أنا لم أخطيء في حقك يوماً ..كنت أسعى لتلبي طلباتك حتى قبل
أن تنطقي بها.... أعطيتك الحرية الكاملة في تصرفاتك لثقتي
الكبيرة بك.... لم أقيدك أبداً ...بل إنني لم أكن أكثر عليك من
طلباتي كي لا تضيق بها....
قاطعته قائلة:
- كفي يا ياسين كفي.
- كفي ... لا ليس كفي.... أنا من حقي أن أعرف ماذا يجري حولي...
ولم تعامليني بهذه الطريقة؟!.. رجاء لم لا أستطيع أن أشعر بحبك؟!
وجدت نفسي أصيح :

- وكيف أشعر ك بشيء لا أشعر به؟!
ثم استوعبت قسوة ما قلت عندما نظرت لوجه ياسين الذي كان يحدق
بي في ذهول وقال بصوتٍ مبحوح:
- ماذا...ماذا قلتي؟!
أشاحت بوجهي بعيداً وبدأت العبرات تنهال على وجنتي فاقترب مني
قائلاً:
- أنت لم تشعري أبداً بحب نحوي....كيف...بل لماذا؟!
- لست أنا من يملك القلوب.
- أعلم ذلك.... ولكني لا أتصور أن يعامل أحد شخص بهذا القدر من
المودة والرحمة ولا يحبه، طوال ما يقرب العام.... لم تستطعي أن
تحبيني، لم ما الذي يمنعك؟!
أحسست بالالهم لنبرة صوته وأردت أن أفر من أمامه.... أردت أن أختبئ
فرددت:
- كفى يا ياسين.... دعني لحالي.
أمسك ذراعي وأدار جسدي ناحيته ثم قال:
- أهناك سبباً.... أتعلمين لم أنت فيه سبباً؟!
أشحت بوجهي مرة أخرى ثم ألقيت بنفسي على الكرسي وأخفيت وجهي
بين كفي وأجهشت في البكاء فجلس على ركبتيه أمامي قائلاً في
حزن وألم واضحين:
- ما هو السبب يا رجاء بالله عليك أخبرني؟!
قلت من بين دموعي وما زال كفي يغطي وجهي:
- توقف...توقف.
صاح في غضب:
- لا لن أتوقف.... قبل أن أعرف.... ماذا يمنعك؟!
ثم سكت لحظة وقال بصوتٍ يشوبه الحذر:
- أهناك حباً آخر منعك من أن تحبيني.... تكلمي يا رجاء بالله
عليك أريحيني.

رفعت عيناى إليه وبهما الكثير من الحزن والالام وأيضاً الخجل فأطرقت
برأسى أرضاً فعاد يقول:

- تكلمي يا رجاء.... أرجوكِ.

هدأت قليلاً ووجدت أنه من الافضل أن استغل هذه الفرصة فلعلها لن
تتكرر وأزبح عن كاهلي هماً كبيراً أو كما صورلي الشيطان ذنباً
كبيراً:

- نعم لقد كان قلبي مليء بحب آخر قبل أن تدخل في حياتي
بزمن.

هب من مكانه يحدق في وجهي مذهولاً وعاد خطوات للوراء ولم ينبس
بكلمة، فأردفت:

- أي أنه لم يظهر في حياتي بعد الزواج وإنما قبله..... بكثير.
قال في ألم:

- لم قبلتي الزواج مني إذاً ولم لم تتزوجيه هو؟!

- كان عزيز النفس. ولم أعرف أنه يريدني زوجةً إلا بعد تخرجه حيث
أرسل لي وسيط، ولكنه لم يرد أن يتقدم لي إلا بعد أن يتيسر حاله فهو
لم يكن ذا مال وطلب مني أن أنتظره إن شئت وانتظرته إلى أن انتهت
دراستي ولكن أبي لم يمهلني أصر على أن يتم زواجنا، وهو ظروفه لم
تسمح له بأن ينقذني فوافقت بالزواج بك من أجل أبي فحسب، وأقسمت
أن أخلص لك ولكني أبداً لم استطع أن أحبك... فلم يكن الامر
بيدي، وعشت معك طوال هذه الفترة ولكن....

لم استطع أن أكمل فقال وهو يقف بعيداً عني:

- ولكن...ماذا؟!

أجهشت في البكاء مرة أخرى:

- ولكنني تعبت.... ولم أعد أحتمل المزيد، أنا لن استطع أن أسعدك

أبداً يا ياسين، ولا يمكنني العيش معك وقد يأخذني فكري

لغيرك.... لذا.... أريد أن أكون حرة يا ياسين.... أريد أن أكون حرة.

سكت وانتظرت أن يقل شيء ولم أقوى على أن أرفع رأسي إليه فقد كان

يقف بعيداً عن ناظري واستمر الصمت لحظات ثم سمعت صوت صفعة

الباب بقوة وقفت فلم أجده في المكان لقد غادر دون كلمة واحدة،
جثوت على ركبتي وأنا أبكي:
- ما هذا الذي فعلتي يا رجاء..... ياسين لا يستحق منك ذلك، لا
أعرف أظلمتي نفسك أم ظلمتيه هو؟! سامحني يا أبي، سامحني يا
ياسين.

.....

الفصل التاسع

توقفت رجاء عن السرد وسكنت لتلتقط أنفاسها وهي ما زالت تبكي،
فها هي تذكر كل الاحداث التي فعلت المستحيل لتدفنها داخلها،
صحيح أنها كانت تذكر نفسها أحياناً، ولكنها أبداً لم تقص الأمر
لأحد، التفتت تنظر لابنها لكنه ظل بوجه جامد ولم ينظر لها منتظراً
أن تكمل فالحديث له حتماً بقيته.

- لم أنه في هذه الليلة، أعدت الامور كلها أمامي وللحظة تصورت أن
ليس هذا ما كنت أريد بل تمنيت أن أعد ولأبحث عن ياسين في كل
مكان وأطلب منه أن يسامحني ، ولكن هيهات فعدو الله الذي مكنته
من نفسي لن يتنازل عن فرصته هذه لحظة فعاد يردد أني كنت صادقة
معه وهذا حسن أما أن استمر معه وهو لا يعلم فكأنها خيانة، لم أفكر
أن ألجأ إلى الله... لم أدعو ربي أن يساندي وكان هذا خطئي الاكبر،
اعتمدت على نفسي فخسرت كثيراً ولهذا يا عميري علمتك أن تلجأ
إلى الله دائماً إذا ضاقت بك الدنيا،.... المهم أني انشغلت بحالي

وتقريباً اعتكفت في غرفتي لا أخرج منها إلا للضرورة.. لم أكن أجيب
على الهاتف ولم يدق أحد بابي ، وكنت أكتفي في يومي بأكلتي
وشربتي صغيرة...حتى صديقتي هدى لم أسأل عنها أو أعرف كيف
حالتها، مريوم تلو الآخر حتى لم أعد أعرف في أي يوم أنا.. لا أحد
يعرف شيئاً عني ولا أنا أعرف شيئاً عن أحد، حتى دق جرس الباب
فاتجهت إليه بجسد واهن مرتعش وسألت من بالباب فأجاب:
- أنا هدى يا رجاء افتحي.

فتحت الباب وما أن رأت وجهي الشاحب حتى قالت :

- رجاء ..ماذا حدث...أين أنت؟!
لم أجيب بشيء بل أردت أن استدير وأدعوها للداخل ، وما أن تحركت
حتى ارتعشت قدماي وكدت أن أسقط لولا أن أمسكت بي هدى
فتماسكت أكثر قائلة:
- ماذا تفعلين؟!...أنت ما زلت متعبه يا هدى .
- أنا بخير...تعالى واجلسي.
جلسنا فقلت:
- كيف حالك وكيف حال طفلتك؟
ردت سريعا:
- بخير.... بل كيف حالك أنت وماذا أصابك أنتِ وياسين ولم لا يرد
أحد على الهاتف؟!
أذرفت عيني الدموع سريعا وأنا أقول:
- سامحيني لم يكن في وسعي أن أزورك أو أطمئن عليكِ.
- توقفي عن هذا وأخبرني...ماذا يجري بالضبط؟!
سكت ثم قلت:
- لقد أسأت له كثيرا.... بل صدمته وأذيت مشاعره.
- عن من تتحدثين....ياسين؟!
أومأت برأسي..ولم أستطع أن أضيف كلمة واحدة فظلت تحدق في
وجهي ثم اتسعت عيناه وأمسكت ذراعي قائلة:
- ماذا قلت لزوجك يا رجاء؟! تكلمي.
- قلت له كل شيء.... أخبرته بالسر الذي دفنته وعاد للحياة بعد أن
رأيته في المشفى.
شهقت هدى ورددت:
- مستحيل...مستحيل... أنت لم تكن ما قلتى.
- بل أعني كل حرف.... نعم أخبرته عن حبي القديم الذي منعني من
أن أبادله حبه.
صاحت هدى في وجهي:

- كيف تجرؤي؟... كيف لامرأة مسلمة أن تقول لزوجها مثل ما قلتني،
وتقولينها لمن... لياسين.... ياسين الذي لم أر رجل يعامل زوجته مثلما
يعاملك.... الذي احتمل منك الكثير رغم جفاءك معه.... إنني
أتصور أن ياسين هذا على استعداد أن يضحي بحياته من أجلك... فلا
يجد مقابل لهذا إلا طعن رجولته .. ومن ماذا؟!.. من وهم يسيطر
عليك.... انتهى منذ زمن... وهم عيش....
قاطعتها صائحت:

- كفي يا هدى ... يكفي ما أنا فيه.

- ومن هذا الذي جعلك فيما أنت فيه... لا أحد سواك، رجاء أنت لا
تعرفي شيئاً عن الآخر... صحيح أنه رجل ذو دين ولا عيب فيه، ولكنه
لن يكن لك مثلما كان ياسين.... وحبك للآخر هذا مجرد وهم ...
أنت لم تحاول أن تحبي ياسين، لأنني لا أتصور أيما امرأة تعيش مع رجل
يعاملها هكذا ولا تحبه.

زاد بكائي وعلا نحيبي وأنا أقول:

- صدقيني يا هدى.... أشعر بما تقوليه الان... فكلما تذكرت كلامي
له .. أشعر وكأنني لست من كان يتكلم، وكأنني كنت مسيرة لا
مخيرة، أشعر الان أنني أريد أن يعود لي... نعم يا هدى أريد ياسين أن يعود
لي، لم أعد افكر في الآخر أريد زوجي.

ضمتني هدى إلى صدرها وأنا أبكي بشده ومسحت على رأسي قائلة:

- اهدئي يا حبيبتي... هو يحبك... إن شاء الله سيسامحك ويعود .. إن
شاء الله.

وبينما أبكي وهي تهديء من روعي طرق أحدهم الباب فذهبت هدى

لتفتحه ، فسمعتها تتحدث مع أحد لم أعرف من هو ثم سمعت شهقة

عاليه منها إلا أن ضعفي منعني من محاولة الحركة لمعرفة ماذا

يحدث.. فبقيت في مكاني إلى أن عادت وقد شحب وجهها تماماً ونظرت

لي بعينين زائغتين فقلت :

- ماذا حدث؟! ماذا هناك؟!

رفعت يداها بورقة كانت تمسكها قائلة:

- وثيقتي..... طلاقك..... من ياسين.
انحبس الصوت في حلقي وقفت في بطاء فأسرعت نحوي فأمسكت
الورقة لأنظر فيها وكأنني لا أصدق ، ولكنها الحقيقة ..لم يحتمل
ياسين إلا أن يلبي طلبي الأخير كما اعتاد أن يفعل... ها هو أعطاني
حريتي ..مادت الارض بي وسقطت وقد أظلمت الدنيا من حولي.....
.... أفقت لا أعرف بعد كم من الوقت، فتحت عيني في وهن شديد
فسمعت هدى تسألني:
- رجاء...رجاء... هل أطلب لك طبيبتي؟!
تماسكت وأنا أقول:
- لا...ساعدني كي أعود إلى سريري.
بقيت هدى معي واشترت لي طعام وشراب فلم يكن في البيت شيء ولم
تتركني إلا بعد أن أكلت، وظلت تحديق في وجهي في شفقة فقلت وقد
استعدت بعض قوتي:
- لقد حقق لي رغبتني... أنا طلبت ذلك، نعم أنا طلبت ذلك.
- لا بأس عزيزتي... سنعمل أنا وعاطف على إصلاح الامور بينكما.
- لا ...لا تخبري عاطف بشيء.
- لا تقلقي لن أحدثه في التفاصيل ... فقط سيعرف أن ثمة مشكلت
بينكما وهو لن يسأل عن التفاصيل ... وسيعمل على حلها إن شاء الله.
- كيف هذا؟، أوتتصورين أن يعد لي.... أنت قلتها يا هدى ..أعطاني
كل طيب وأنا كفاءته بطعنته في رجولته.. لن يعد لي.... أعلم ذلك،
وربما ما حدث هو الافضل، ولا أعتقد أنه سيعيش معي بعد ما قلته ،
صحيح أنني ندمت كثيراً لكن...لا فائدة...فلنتركه لحاله... هو
ما زال شاباً ، يمكنه أن يبدأ حياته من جديد ، والحمد لله ليس بيننا
أطفال.
- أهذا رأيك النهائي؟
- نعم.... وهذا أيضاً رأي العقل.
- وماذا عن رأي القلب؟!

- القلب...القلب قد جرح.... وطعن...وجرح القلب صعب مداواته...وهو
لن ينجح في مداواته..أنا أعلم..فقلبه رقيق..وأنا مزقته...واستحق كل
ما يجري لي.

رن الهاتف فأسرعت هدى تجيب فسمعتها تقول:

- نعم...يا عاطف ما زلت عند رجاء... نشوى ... عند جارتني، حقاً هل
سمح الطبيب بإخراج رضيعتي من المشفى... حسناً مر علي هنا،...
صوتي... لا شيء.... حسناً سأخبرك عندما أراك.

عادت لي فقلت:

- كيف تتركين نشوى ورضيعةك كل هذا الوقت؟
- نشوى عند جارتني لديها بنات في سنها تلعب معهن، أما رضيعتي فأوقات
زيارتي لها محددة وكنت عندها قبل أن أتيك، ولكن عاطف
أخبرني أنهم سيخرجونها الليلة وسنعود بها إلى المنزل.
- هذا خبر طيب، بارك الله لكما فيها.

.....

جاء اليوم التالي لكنها لم تأتيني إلا متأخرة وكانت تحمل رضيعتها
معها:

- سامحيني يا رجاء.

كان وجهها قلق قليلاً فسألتها:

- ماذا هناك؟!

ترددت ثم قالت:

- في الحقيقة لقد تأخرت بسبب...

- بسبب ماذا؟!

- صديق زوجي ، زفاه الليلة.

- حقاً.... هذا جيد.... لم القلق إذا؟!

- إنه... حبك القديم.

شعرت بقبضة باردة تعصر قلبي وكان كل شيء يتحطم أمامي
ووجدتني أردد:

- سيتزوج....سيتزوج.

ثم انفجرت باكية وأنا أنوح:

- ياسين... لكم أخطأت في حقك... ليتك تسمعني... ليتك
تسامحني.

- اهدئي يا رجاء يجب أن نفكر... كيف نعيد ياسين لك؟!
- لن يعد... لن يعد.

- بل إن شاء الله سيعود، اسمعني.. هو يحبك والدليل أنه لم يطلقك
فور أن طلبتي بل ظل يفكر وربما كان يعاني، أريدك أن تكتبي له
رساله توضحين له كم تتألمي لبعده عنك وأنت لم تعرفي قدره
عندك إلا بعد أن غاب عنك ولا تذكر شيئا عن حبك القديم أو
زواجه

- أسيكفي هذا؟

- إن شاء الله سيكفي.

بالفعل كتبت الرسالة له وارسلتها لمكان عمله ولم يمهلنا الكثير بل
رد برسالة أخرى لازلت أحتفظ بها إلى الان....

وأخرجت ورقة من طيات ثيابها وأعطتها لعمير ليقرأها، وأردفت:

- عندما قرأتها.. وكان سكاكين تمزق جسدي، ومرة أخرى فقدت

وعي.. لتحضر هدى الطبيبة لتخبرنا بما صدمنا، أني حامل... الخبر

الذي انتظرتة عليه يُحسن من حياتي مع ياسين جائي بعد أن تركني

ياسين... لكن هدى ظنت أن هذا هو الطريق الافضل لإعادة ياسين،

لكني رفضت... رفضت أن ألوي ذراعه وأجبره على العودة فقط من

أجلك، لكن هدى لم تهتم لكلامي وأخبرت عاطف وطلبت منه أن

يعثر على ياسين بأي طريقة، وعندما ذهب عاطف لمكان عمل

أباك.. علم أنه سيغادر البلاد نهائياً فأسرع ليصل إليه قبل سفره

بسويعات، ورغم أنني لم أوافق إلا أنني كنت مترقبة مجيء عاطف

ليخبرنا برد فعل ياسين لكنه عاد وهو في شدة الحزن وقال لنا كلمته

واحدة....

"لم يصدقني..".

وغادر ياسين البلاد.... ولم أعرف عنه شيئاً البتة.... هذا هو كل شيء
ولا يوجد لدي المزيد لأخبرك به...

زفرت رجاء وكأنها ارتاحت من هم طال حملها له وسكنت ثم رفعت
عيناه لعمير الذي كان يقف عند النافذة ويوليها ظهره، ثم استدار لها
ببطء وظل يحدق فيها بنظرة غاضبة فأشاحت بوجهها بعيداً وهي
تبكي قائلة:

- أرجوك لا تنظر لي هكذا... أنا اعترفت بخطئي فوراً سمعت
صرختك يوم ميلادك، شعرت وكأنك تصرخ في وجهي لتسألني عن
أبيك، تأكدت كم ظلمتك بحرمانك من أب كان سيعاملك أفضل
مني ولهذا أقسمت أن أعاملك كما كان يعاملني، ولكم صليت وتوبت
إلى الله من ذنبي ودعوت أن تكون علامة غفرانه لي في تفوقك
ونجاحك في حياتك والحمد لله كلما كنت تكبر وأراك تزداد
ذكاءً وتفوقاً... أزيد من استغفاري وتوبتي وأصلي لله شكراً.
سكنت بينما ظل عمير ينظر لها دون أن يضيف شيئاً فقالت في حزن
عميق:

- قل شيئاً يا ولدي.... لا تتركني هكذا.

تحرك عمير ليغادر من أمامها في صمت فوقفت وتعلقت بذراعه وهي
تصيح في بكاء هستيري:

- لا... لا تذهب هكذا وتتركني.... أرجوك... لا تتركني... قل لي
ماذا ستفعل؟! أنا سأقبل منك أي هجوم بل وأسامحك عليه.. قبل
حتى أن تقوله... ولكن لا تتركني لا تهجرني.... ليس لي سواك يا
ولدي... لقد عشت حياتي كلها من أجلك دون حتى....

قاطعها وقال بنبرة حنق شديد:

- كفى يا أمي... كفى.

حدقت بوجهه في فزع، فهذه المرة الأولى التي يصرخ بوجهها، تركها
ليغلق باب غرفتها خلفه فجلست على فراشها ودفنت وجهها بين كفيها
باكية ومرددة في لوعة:

- ابني...ابني-

ما أن خرج من غرفة أمه حتى اتجه لباب الخروج مباشرة فأسرعت نبيلت خلفه:

- عمير..انتظر...إلى أين أنت ذاهب؟!.

لم يهتم حتى بالاجابة عليها بل تركها مغادراً فالتفتت لأمها قائلة بقلق:

- أمي...عمير..ماذا أصابه؟!

اقتربت منها أمها:

- اهدئي...هو تحت تأثير الصدمة الآن...بالتأكيد لم يتوقع ما

سمع..ربما من الأفضل أن نتركه وحده.

أما عمير فاستمر في السير بغير هدى، لم يعرف أين يذهب ولا ماذا يفعل؟!...كان في حالة عدم تصديق، وعادت نفسه لتجاوره..

"..إلى متى ستستمر في السير...يجب أن تتوقف وتفكر..ماذا ستفعل؟!"

- معقول هذه هي أمي التي ربنتي....كيف تكون بمثل هذه

الانانية؟!!!..

"..لقد أوهمها الشيطان بأنها حتى إذا أخطأت فهي تخطيء في حق

نفسها..."

- ولكن هذا ليس صحيح.... فجميعنا تحملنا هذا الخطأ..... بل حتى

من لا علاقه لهم بنا وفي مقدماتهم ريم...

وما أن نطق باسمها حتى شعر بغصّة في حلقه وهاجمت العبرات عيناه

وهو يردد:

- ريم...ريم..... يا الهي....أختي...لقد أحببت أختي.... أكان من

الممكن أن يتم زواجنا دون أن نعلم بهذا.....يا لها من كارثة..... أنا

أتزوج أختي.....

لم يستطع أن يكمل حيث شعر بامتعاض شديد واشمئزاز من مجرد

الفكرة فتوقف مكانه وهز رأسه بعنف وهو يتمتم في حنق:

- كيف تفعلين هذا بي يا أمي...كيف؟!... أهنت عليكِ.
وجد نفسه في حديقتة عامه فجلس بمقعد بها :
- وكأني في كابوس بشع...أتمنى أن استيقظ منه سريعاً.
كانت النيران المشتعلة داخله تزداد تأججاً، وسرعان ما ذهب
بتفكيره لأبيه، فعقد حاجبيه في غضب..متذكراً كلمات أمه عندما
أخبره عاطف بحملها "لم يصدقني"..
"....في ماذا تفكر يا عمير؟.... هو أباك شئت أم أبيت..."
- لكنه تنكر لي...ورفض الاعتراف بي
"....من قال هذا؟! هو لم يصدق..."
- لم يصدق ماذا؟!...أن تكون المرأة التي تزوجها وعاش معها حامل
منه.... هل الامر غريب لدرجة أن لا يصدقه.
"....ربما ظننا خدعت لكى يعود...."
- لم لم يكاف نفسه عناء التأكد؟
"...عليك أن تعذره فلم يكن بحالته الطبيعية..."
ابتسم في سخرية لحديث نفسه متمتماً:
- كانت تقول كن أفضل من الجميع ليكون فخوراً بك...وصدقت
كلامها وكافحت كي أكون أفضل من الجميع ليكون سعيداً بي
...وانتظرته...لياالي طويلاً...كل عام كنت أنجح فيه كنت أتصوره
سيعود ويضمني إليه ويقول أنه فخوراً بي....ثم اعتدت غيابه..فلم أعد
أنتظره.... ولكني أيضاً اعتدت أن أكون الافضل.. فإذا به لا يعترف
بوجودي أصلاً.
وقف وقد ظهر الغضب من عينيه:
- سألقنه درساً...
- "...ما هذا الذي تقول...إنه أباك...أم أنك قررت أن تنفض عن غضبك
من أمك وتنتقم منه هو"
صاح عمير في غضب:
- اصمت...أنا لا أب لي.
وسكت الصوت فعلاً، ليتحرك عمير من مكانه.

.....

أسرعت ريم إلى أمها عندما رأتها تخرج من حجرتها:

- أمي هل استيقظ أبي؟

- هو لم ينم ليستيقظ.

ريم في دهشة:

- ماذا؟! ماذا تعنين؟!

- لم يصعد لحجرتنا أعتقد أنه ظل بالمكتب ولم يخرج منه.

- تقصدين أنه في المكتب الآن؟!

- أعتقد ذلك.

أسرعت ريم لتهبط الدرج وتبعثها أمها وهي تناديها:

- ريم... انتظري لا تذهبي إليه... لا أعتقد أنه سيتحدث إليك الآن.

- لا يا أمي.. لن أنتظر يجب أن نتحدث... يكفي أنني قضيت ليل...!

قطعت كلماتها عندما رأت أبيها يخرج من مكتبه حاملاً حقيبته

الصغيرة الخاصة وكان في طريقه للخروج فنادته:

- أبي... انتظري لا تغادري قبل أن تكلمني.

إلا أن أبيها أكمل طريقه وكأنه لم يسمعها فأرادت اللحاق به

فأمسكت بها أمها:

- قلت لك لن يتكلم مادام لا يرد.

زفرت ريم في ضيق وظلت تحديق في الباب الذي تركه أبوها وغادر.

ركب ياسين سيارته وانطلق بها وعقله سابحاً بعيداً بعيداً الكثير من

الأمور في ذاكرته.....

"...ياااااه يا رجاء... كم فعلت المستحيل لأنسى... وها أنت تعود مرة

أخرى وتعيدي معك ألم تصورت أنني قد تغلبت عليه ونسيته ولكن ما

أن رأتك عيناى... وكان ما كان منذ ٢٥ عاماً صار بالأمس... دقائق قلبي

عادت تدق بقوة كنت نسيته... شعرت بالغضب ليس من رؤيتك بل من

تأثيرك علي رغم كل تلك السنوات.... إلى متى ستبقى تفكري يا

ياسين هناك أمر لابد أن تتأكد منه.... عمير.... يجب أن تعرف هل تخمينك صحيح أم لا؟! معقول أكان ما يقوله عاطف حقاً؟"

وعاد بذاكرته ربما للمرة المئة ليتذكر هذا الحديث الذي دار بينه وبين عاطف... آخر حديث جمع بينهما....

- عاطف... ما الذي جاء بك إلى هنا؟!

- أهكذا تستقبل ضيوفك؟!

- أسف... ولكن كما ترى ، لقد أعدت حقائبي... السفر بعد ساعتين فقط.

عقد عاطف حاجبيه مردداً:

- ساعتين... أما زلت مصراً على السفر؟!

- لم يعد لي شيء هنا.

- بل لك... لك ما لا يجب أن تتركه أبداً.

- عاطف... أرجوك لقد أنتهينا من هذا الامر.... لن أعد لها.

- ومن قال أنني أتحدث عنها.

ياسين في دهشة:

- ماذا تقصد؟!

ابتسم عاطف في دفاء:

- أتحدث عن ستنظره بفارغ الصبر حتى تسمع منه أعلى لقب على الارض.

- عاطف لا وقت لدي لمثل هذه الالغاز... طائرتي ستقوم بعد ساعتين والسائق أنزل الحقائب وهو في انتظاري.

- طائرة ماذا التي تتحدث عنها؟! لا سفر.. يا عزيزي.... لا سفر... ألم تفهم؟

تحرك ياسين وأراد المرور من جانب عاطف قائلاً:

- حسناً... حسناً... لقد فهمت الخطأ.... المفروض أن تعطلني حتى

أفقد الطائرة.... صحيح... أريد أن أطمئنك... سأغادر فإن لم يكن في هذا الطائرة ففي التي تليها أو التي تليها... لن يهمني.

- عقد عاطف حاجبيه ثم أمسك بذراعه ليمنعه من المغادره قائلاً:
- عنيد.... أنا أتحدث عن طفلك الذي تحمله رجاء في أحشائها.
حدق ياسين في وجهه لحظات ثم ابتسم ثم زادت الابتسامه وتحولت
لضحكة سخريّة وهو يقول:
- ماذا ... طفلي أكذبة أبريل هذه؟!
عاطف في غضب:
- أنا لا أكذب يا ياسين.
تجهه وجه ياسين وظل يحدق في وجه عاطف ثم قال وهو يسحب
ذراعه من يد عاطف:
- وأنا لا أصدق.... ربما استطاعا أن يخدعاك.... لكن عد لها وأخبرها
أنها محاولة فاشلة.... لقد عشت معها عام كامل لم يمن الله علينا
بالذريّة فلما الان والان بالذات.
- استغفر الله...أتعرض على مشيئته....ولعل له حكمه في ذلك... لا
تضيع الفرصة بعنادك.
وقبل أن يقول شيء تعالى صوت ألة التنبيه للسيارة فالتفت للنافذة ثم
نظر إلى عاطف:
- ربما سأعود يوماً لأتأكد مما تقول.... رغم أنني لا أصدق.
حدق عاطف في وجهه بنهول:
- ياسين..... سيكون لك ابن أو ابنة.
اتجه للباب ثم التفت له قائلاً:
- إذا كان ما تقول صحيح.... فأوصيك به خيراً... والان إلى اللقاء...
فربما يكون بيننا لقاء.

.....

الفصل العاشر

أفاق ياسين على صوت نفير قوي جداً ، ليفاجأ بشاحنه أمامه فأدار
عجلة القيادة ليتفادها ليفاجأ بنفسه يسير في منتصف الطريق ويعوق
السيارات القادمة من الجهة المقابلة ، عاد إلى طريقه ومرت الشاحنة
بجانبه وأطلق سائقها سباباً سخيفاً ولكن ياسين لم يعيره أدنى اهتمام

وأكمل طريقه وكلما اقترب من مبنى الجامعة زاد توتره وقلقه، قفز من سيارته فوراً وصل وأسرع الخطى إلى مكتبه وما أن استقر عليه حتى رفع الهاتف الداخلي:

- شئون الطلبة.... معك دكتور جوزيف.... أريد أوراق الدارس عمير....
الذي يدرس عندي، نعم أوراقه كاملة...التي تحوي كل شهاداته...حتى شهادة الميلاد.... لا تتأخر.

ظل ياسين ينقر بأصابعه على مكتبه :

- عمير لم لا أذكر سوى أسمك الأول فقط....لم أهتم يوماً بمعرفة أسماء طلابي كاملة....هل تزوجت رجاء بعد أن قضت عدتها أم إنك ابني أنا؟!..

طرق أحدهم الباب فاعتدل بعصبية وحاول تمالك نفسه وقائلاً:
- ادخل.

ظل يحدق في وجه عمير الذي كان يقف عند الباب... مرت ثواني وكلاهما يحدق في الآخر.... وتمنى كل واحد أن يقرأ ما في رأس الآخر. حتى أشار ياسين -الذي انتفض قلبه بين ضلوعه- له بالجلوس:
- تفضل اجلس.

اتجه عمير ببطء وهو يركز عينيه في عيني ياسين
"...أنت حقاً أبي؟.... سامحك الله....وان كنت لا أعلم هل يجب علي أن أسامحك...لكم حلمت بمثل هذا اللقاء ..كنت أتصوره أسعد لقاء في حياتي..... ولكن... لم أشعر بالغضب والحزن والضيق؟..... لست سعيداً برؤيتك دكتور جوزيف.... ويبدو أنك ستظل بالنسبة لي دكتور جوزيف....."

استقر عمير في مقعده ولم يبادر بالكلام فقال ياسين عندما لاحظ ضمادة يديه:

- ما بها يدك؟

رد عمير بلا مبالاة:

- لا شيء...لا تشغل بالك.

صمت ياسين وهو يحدق بوجه عمير الذي كان ينظر بعيداً، ثم قال:

- كيف حال السيدة أمك؟!
أجاب عمير:
- بخير والحمد لله.
وعاد الصمت يغلفهما حتى قطعه ياسين مرة أخرى:
- أليس لديك شيء تريد أن تقوله؟!
مط عمير شفثيه ثم نظر ياسين قائلاً:
- وماذا تريدني أن أقول؟
هز ياسين كتفيه وقال:
- هل فسرت لك أمك ما حدث بالأمس؟!
كان التوتر واضح عليه بعكس عمير الذي بدا هادئاً وهو يقول:
- ما حدث لا يحتاج إلى كثير من التفسير.... فمن الواضح أن ثمت
معرفة سابقة بينك وبين أمي.... ولكن يبدو وأنها ليست معرفه سعيدة.
أعاد ياسين ظهره للخلف محاولاً أخفاء توتره قائلاً:
- ليس تماماً.... يمكنك أن تقول أنها كانت معرفة طيبة وسعيدة
ولكنها.... انتهت نهاية غير عادية.
- ومن السبب في هذه النهاية؟!
عاد ياسين يستند على مكتبه سائلاً:
- هل حقاً لم تخبرك أمك بشيء؟!
تنفس عمير في بطء وكأنه يحاول السيطرة على مشاعره وقال:
- أخبرتني.. ما يهمني.. أو بمعنى أصح يخصني... أما التفاصيل كاملة
فهي تهم شخصاً آخر.
قال ياسين في دهشة حقيقة:
- شخصاً آخر.... من هذا؟!
صمت عمير قليلاً وعاد يتنفس في هدوء ثم سمع الصوت المعتاد...
"....عمير.... لا تخطيء في حق نفسك كما أخطأوا في حقك.... لا
تفعل أرجوك...."
قال عمير غير مبالياً لهذا النداء:
- أخي الأكبر.

ذهل ياسين من الاجابة فردد:

- أخوك الاكبر!!

"...عمير...توقف...هذه تحسب كذبه... أفق يا عمير...لا تستمع
للشيطان.. كن مع الله ليبق الله معك... إذا لجأت لأساليب الشيطان
سيوكاك الله له.... وهو ليس بوكيل...."

- اصمت...

قالها عمير في همس، فقال جوزيف:

- ماذا قلت؟!

- لا شيء... فقط كما قلت أخي الاكبر... هو شقيقي من أمي.... و....
لم يكمل عمير فزادت ضربات قلب ياسين وهو يحدق في وجه عمير
وحثه على الكلام قائلاً:

- ..ماذا؟!

تجنب عمير النظر لعينه قائلاً:

- ...ابنك.

رغم أن ياسين توقعها أو خمنها إلا أن وقعها عليه كانت أقصى مما
يتصور فارتجفت أطرافه وشعر بقلبه وكأنه ينشطر نصفين وظل يحدق
في وجه عمير الذي كان يراقب ردت فعله باهتمام واضح، فردد ياسين:
- ابني!!

ظل عمير يحدق به ليرى ارتجاف شفتي أباه، فحدث نفسه:

- "هل اندهشت دكتور جوزيف؟!...لم أنتهي منك بعد."

حاول ياسين أن يتمالك نفسه قائلاً:

- وأين ابني هذا؟!!

ظل عمير ينظر له ثم قال:

- للأسف لن تستطع أن تلتقي به.

وقف عمير مكماً:

- يجب أن أغادر...أعتقد أنك بحاجة أن تبقى وحدك.

- انتظر...

التفت له عمير فقال ياسين متلهفاً:

- كيف يبدو... ما اسمه؟!
- شعر عمير باللهفة في صوته فمنع ظهور شبح ابتسامته السخرية التي أرادت أن تبدو على شفثيه فظل يحدق في وجهه قليلاً ثم قال بوجه جامد:
- صدقني لا فائدة... كان من الممكن أن تسميه أنت وتكون أول من يعرف الاسم... ولكنك من أبي.
- عقد ياسين حاجبيه قائلاً:
- لم تتكلم معي هكذا؟... أتنتقم مني؟؟.. لصالح أخاك.
- عقد عمير ذراعيه أمام صدره:
- ولم لا؟!.. فأخي لن يستطع الانتقام لنفسه.
- ماذا تقصد؟!
- قالها ياسين في قلق، فاتجه عمير ليفتح الباب ثم التفت لياسين قائلاً:
- أخي مات في حادث سير منذ ٣ سنوات.
- حدق ياسين به مذهولاً، بينما حدق عمير بوجهه المصدوم للحظات ثم غادر مغلقاً الباب خلفه، تاركاً ياسين الذي ارتقى على كرسيه بعد أن عجزت قدماه على مساندته أكثر وهو يردد:
- مات.. ابني مات.
- شعر بأن هناك من يطوق رقبتة، حل ربطة عنقه في محاولة يائسة للتنفس، ولكنه لم يستطع فهذا الضيق الذي ملأ صدره كان داخلياً.
- "معقول... معقول ياسين... اللحظة التي تعرف بها بوجود ابنك هي نفسها اللحظة التي تعرف بها فقدك إياه... وللأبد"
- عقد حاجبيه بشدة وهو يستعيد كلمات عاطف...
- " عنيد.... أنا أتحدث عن طفلك الذي تحمله رجاء في أحشائها "
- لست عنيد فقط... بل كنت أحمق... ما كان يجب أن تتركني أرحل عاطف... كان يجب أن تجرني جراً إليها... ماذا تقول ياسين؟ .. هل تريد أن تحمل عاطف مسؤولية عنادك وكبريائك.
- القي برأسه على راحتيه وقد انطلقت الدموع أخيراً من عينيه مردداً في أسى:

- "...أتبكي الان يا ياسين... لقد مات... ولم يعد يعنيه أمرك... لم تكن تعني له شيئاً ولن تعني له شيئاً...."
انهمرت الدموع من عينيه وقد شعر بألم شديد في قلبه وكم تمنى أن يرى ابنه ولو للحظة واحدة.

مسح دموعه عن وجهه وقاتل ليقف على قدميه، لن يمكنه البقاء.. عليه الذهاب.. لم يفكر حتى في حمل حقيبته بل اتجه للباب خارجاً وما أن فتحه حتى وجد شاباً أمامه الذي اندهش لهيئته لكنه قال:
- لقد أحضرت الاوراق التي طلبتها دكتور جوزيف.
منحه ياسين نظرة خاوية، وكأنه لم يسمعه أو يفهم ما قال فقط تركه وابتعد فعقد الشاب حاجبيه وقال مرة أخرى:
- أوراق الدارس عمير دكتور أن تراها؟!
لكنه لم يلقى أي جواب، وظل ياسين يسير في طريقه بخطوات مهتزة ورتيبتة.

أما عمير فقد أسرع يبتعد عن المكان، كان يعلم أنه أخطأ خطأ جسيماً، وبينما يحاول الهرب من المكان وفعلته أوقفه صوت مميز جداً:
- عمير... عمير... انتظر.

انقبضت كل عضلاته ولم يحاول حتى الالتفات لمصدر الصوت الذي يعرفه جيداً... انها ريم... التي اقتربت لتقف أمامه قائلة:

- عمير... لم تعد وهكذا؟!

انتبهت ليد المجرحة فقالت:

- ما هذا؟!... ماذا أصاب يدك؟!

لم يسمع عمير فلم يكن في حاله تسمح له بسماعها.. ظل يحدق في وجهها الاشقر وشعر بقلبه يتمزق لقد أحب هذا الوجه بكل تأكيد... لقد أحب كل شيء متعلق بها... كيف يمكنه التغلب على هذا الشعور الآن..... كيف يمكن أن يبدله بهذه السهولة وينظر لها على أنها أخته فحسب.. كيف؟!

"...يا الهي...ماذا ستفعلين عندما تعرفين الحقيقة يا ريم...."
لم ينتبه لنفسه ولا لرد فعل ريم المندهشة من تأمله لها صامتاً؛ فهذه
المرّة الأولى التي يظل ينظر لها دون أن يدير بصره عنها لكنها
ابتسمت قائلة:

- هذة المرة الأولى التي تحدد بها في وجهي طويلاً.
انتبه عمير لما يحدث فلام نفسه ثم أدار بصره عنها ليكمل طريقه
قائلاً:

- أسف.... أعذريني يجب أن أذهب.
أسرعت ريم خلفه وهي تضحك قائلة بنبرة حب واضحة:
- انتظر أنا لم أتضايق...هذا هو عمير الذي أعرفه..والذي.....
استحيت أن تكمل كلماتها إلا أن عمير استطاع أن يستنتج نيتها فنظر
لها مستنكراً وزاد ألم قلبه وتأثره وشفقته عليها بل وزاد غضبه على من
تسببا في هذا فأسرع الخطى أكثر فأسرعت هي بدورها قائلة:
- أنا لم أقل شيئاً، وما كنت سأقوله لم يكن سيء.
لم يعلق على كلماتها بل كان يحدث نفسه:
"ابتعدي عني ريم..بالله عليك..توقفي عن تعذيبي..يكفي ما أنا
فيه..".

- عمير...لم العجلة؟!
ما زالت ريم تحاول اللحاق به فوقف مولياً إياه ظهره قائلاً:
- ريم...يجب أن أعود للمنزل.
صحيح أن هذا كان أسلوبه معها ولكن منذ أن قرر خطبتها، أصبح
أكثر ليناً معها، وهي الآن لا تفهم..لم عاد لأسلوبه القديم؟
- لماذا؟... هل السيدة رجاء ما زالت متعبه؟
- لا... لقد أصبحت بخير...عودتي للمنزل ليس لها علاقة بأمي...
هناك أمور يجب أن أتتها .
- ولكن هل تحدثت مع أبي؟
صمت عمير قليلاً ثم قال:
- نعم، ولقد اعتذرت له عما حدث بالأمس.

- ألم تعرف شيء عن سبب ما حدث البارحة؟!
استمر صمته هذه المرة فتره أطول ثم قال في اقتضاب:
- ليس لدي ما يمكنني أخبارك به؟!
قالت ريم في دهشه:
- ولم؟!
- لأنني لا أريد... ولا أريد مزيد من الاسئلة.. بعد إذنك..
غادر من أمامها بينما زاد ضيقها وتسرب الغضب إليها.. لم يعاملها بتلك
الطريقة ما الذي يحدث؟!... فكما تصورت أنها ستفهم ما يجري ...
تجد نفسها تفرق أكثر في بحر من الحيرة.

.....
وصل ياسين لمنزله، فكل ما كان يرجوه هو الاستلقاء على فراشه،
وهذا ما فعله فور أن صعد إلى غرفته، كان يحدق بشرود في سقف
الغرفة ولم يشعر بدينا وهي تدخل عليه وتغلق الباب خلفها، اقتربت
منه وجلست بجانبه على الفراش، شعرت بالدهشة من هيئة زوجها التي
لم تكن على ما يرام ابدأ فقالت:

- يوسف.. يوسف... أئن تتكلم معي؟!.. ما الذي يجري لك؟!
ظل ياسين على حاله، فعقدت حاجبها وقد شعرت بالضيق فقررت أن
تخرج ما تكتمه داخلها قائلة:
- هل هي نفسها؟!
ارتجفتا عيانان ياسين وهو ينظر لها فأردفت:

- رجاء.. أم عمير... هي نفسها طليقتك.
لم يكن ياسين أخبرها عنها من قبل، فقط اكتفى بقول "كنت
متزوج ولم تنجح الزيجة" اعتدل جالساً:
- ولم استنتجتني هذا؟! هل تحدثتي معها؟!
هزت رأسها ثم أشاحت بوجهها بعيداً لتخفي ملامح الألم التي ارتسمت
على وجهها:
- لا.. لم يتحدث معي أحد... ولكنني أبدأ لم أنسى كيف كنت تنطق
اسمها؟!
اسمها؟!
اسمها؟!
اسمها?!

زادت دهشة ياسين:

- هل أخبرتك باسمها من قبل؟!

مطت شفيتها:

- نعم..ولكنك لم تكن تقصد...في الحقيقة..بعد زواجنا وفي أكثر لحظاتها خصوصية نطقت باسمها..اعتقد أنك كنت تتمنى لو أنها هي التي بين ذراعيك وليس أنا.

فغر ياسين فاه غير مصدق، هل فعل هذا حقاً واستمع لزوجته تكمل:

- لم أفهم في البداية معنى كلمته رجاء...حتى علمت أنه يمكن أن

يكون اسم امرأة...وللأسف كررت هذا الأمر أكثر من مرة...كنت

تناديه بشوق هائل..وحب كبير...تمنيت لو كنت تناديني بنفس

الطريقة.

شعر ياسين بالألم يتجسد في صوت دينا،عض شفيتها قائلاً:

- أ..أنا..أسف..لا أصدق أنني كنت أفعل هذا حقاً.

ابتسمت دينا بحزن:

- أعلم أنك لم تحبني كما أحببت زوجتك الأولى.... وهذا ما كان

يجعلني أتساءل..لم تركتها؟...مادمت أحببتها بتلك القوة...ولكني

لم أجرؤ على سؤالك.

وضع يده على كتفها وأدارها نحوه ونظر لعينيها التي ترقق الدمع بها،

ضمها إلى صدره هامساً:

- سامحيني...ولكن ثقي...أنتِ وريم أعلى ما لدي بهذه الدنيا...أنا

أحبك دينا.

رفعت رأسها تتأمل وجهه الذي طالما أحببت النظر إليه وابتسمت في حنو:

- أعلم...فلم تنطق اسمها أبداً بعد ولادة ريم..وكان ريم هي التي

أخرجتها من قلبك وعقلك.

قام من فراشه واتجه للنافذة قائلاً:

- لن تصدقي ما عرفت اليوم.

تبعته هي الاخرى لتقف خلفه قائلة:

- ماذا؟!

- رجاء... كانت حامل مني حين تركتها... وأنجبت ولداً.
شهقت دينا في فزع وقد قفز استنتاج واحد لرأسها:
- لا تقولها... عمير.
هز رأسه:
- لا... بل الاكبر منه.. يبداً وأنها تزوجت سريعاً بعد أن انجبت.. والا ما
كان عمير سيكون في هذه المرحلة التعليمية.
- الاكبر منه... غريب... عندما زارتنا.. قالت أن عمير ابنها الوحيد.
أطبق جفناه وقد شعر بالألم يعاوده:
- ربما.. لأنه أصبح في عداد الأموات.
وضعت كفها على فمها تكتم شهقة أخرى:
- مات!!
أوماً برأسه، وقد عادت الدموع تصاحب خداه:
- مات.. دينا... مات دون أن أعرف عنه أي شيء.
أسرعت تضم زوجها إليها وقد رأت ملامحه تنم عن ألم شديد.
-
- جلس عمير وحيداً ، كان يريد أن يلتقط أنفاسه..
"ايها الأحمق لم فعلت ذلك"
أجاب وكأنه يبرر كذبه:
- أرادت أن أرى بعيني شوقه ولهفته لمعرفتي.... وكذلك ألمه وحزنه
لفراقي.
"وبماذا سيفيدك هذا؟!"
صمت عمير فلم يجد أجابة، نعم.. بماذا أفاده ما فعله إلا رغبته في أن
يؤلم أباه فحسب... هل ينتقم فعلاً كما قال ياسين له؟؟
لكنه قال باصرار:
- لا يهم... عشت بدون أب... وسأكمل حياتي بدونه.

دخل عمير إلى المنزل متجهاً إلى حجرته مباشرة دون الحديث مع حد، وما أن دخل غرفته حتى رأى أمه التي جلست على مكتبه ناظرة إليه وقالت:

- كنت أعلم أنك لن تمر على حجرتي....فضلت أن أنتظر ك هنا. حدق بها للحظات ثم اتجه لدولابه ليبدل ثيابه قائلاً:

- وما الداعي؟! اقتربت منه لتضع يدها على كتفه لينظر لها، نظرة باردة خالية من المشاعر، ألمتها كثيراً فهزت رأسها في أسي:

- هذه ليست نظرة ابني الذي أعرفه ... ابتسم في سخرية مريرة قائلاً:

- حقاً...إذا فأنا لست ابنك أيضاً.... ابن من أنا يا ترى؟! صاحت في وجهه:

- لا تسخر مني.... وإياك أن تكلم أمك هكذا. رفع إحدى حاجبيه:

- أمي!!

- نعم أمك...أم ستنكر علي هذا؟! مال مقترباً من وجهها قائلاً:

- هل تدركين معنى كلمة أمي....يا أممي. ضغط على كلمته الأخيرة كثيراً فاتسعتا عينا أمه وانتفضت قائلة:

- ماذا تقصد بهذا؟!... كيف تجرؤ؟! أنسيت كل ما فعلته من أجلك، لقد فعلت المستحيل كي تكون سعيداً.... كان كل همي أن أحسن تربيتك...لتكون الاحسن بين الناس.... والان تقول أنني لا أعرف من هي الام؟! عقد عمير ذراعيه أمام صدره:

- نسيتي أن تضيفي بعض الأشياء البسيطة.... حرمتني من أبي طوال عمري.... جعلتي أحيا حياة طويلة في حيرة وألم.... كدت أن أتزوج أختي.... وقضيت بالامس أسوء ليلة في حياتي. صاحت رجاء:

- أنا لم أكن أقصد.... لم أكن أقصد.
رددتها وانهارت لتعود لبكاءها وعمير يراقبها في صمت.....
"....عمير..أمك تبكي لم تكن تحتل دموعها فيما سبق.... اذهب
لتخفف عنها..."
- ومن سيخفف عني أنا؟!
"....عمير توقف عن هذا...يكفي ما فعلته مع أبيك...لمَ لم تعد
تستمع لي؟!..."
عقد عمير حاجبيه بينما هدأت دموع أمه ونحيبها فرفعت رأسها إليه
لتجده ما زال ينظر لها:
- كنت في الماضي... لا تتركني أبكي.
- يبدو أن كثيراً من الامور لن تحدث في الحاضر.
لم يعرف عمير كم كانت هذه الكلمة قاسية على رجاء التي شعرت
بقلبها يتمزق من كلمته التي قالها في جفاء شديد إلا أنها ابتاعتها
بصعوبه وأرادت أن تسأله:
- هل التقيت به؟!
"....أجب ..أجب يا فالح...وقل لها ماذا فعلت مع أبيك وكيف جعلته
يظن أن أمك تزوجت وأنجبتك من رجل آخر..."
صمت عمير قليلاً ثم قال:
- أيرضيك أن أبقى معه هنا ولا أعد للوطن؟!
- ماذا... أهو طلب ذلك؟!
- ولمَ لا؟.. أأست ابنه؟! وافتقدني ٢٥ عاماً.
أسرعت إليه لتمسكه من ذراعه:
- ولكنك لن تتركني.... أنا لا استطع العيش بدونك.... نحن لم
نفترق أبداً...وأنت بالتأكيد لن تقبل هذا الطلب.
- لمَ يا أمي؟! أليس من العدل بعد أن عشت معك كل هذه السنوات أن
أعيش معه ما بقي له من عمر أو ما بقي لي... لا أحد يعلم من سيلقى ربه
أولاً؟!
هزت رجاء رأسها مرددة:

- لا..لا...أنت لم تأتي إلى هنا للبقاء.... أنت قلت أنك ستعود للوطن.
- ولكني إذا عشت معه سأكسب الكثير، على الأقل سأضمن مزيد من
الاهتمام برسائلي وربما يساعدني لأعمل بالجامعة في مكان مرموق.
- لم يكن كل هذه يستهويك...أنت دائماً كنت تحلم بأن تحترف
العلم نفسه ، وتصبح عالم كبير...أم نسيت أحلامك.
- ألم أقل لك أن كثيراً من الماضي قد لا يحدث في الحاضر؟!
ارتجف قلب رجاء بين ضلوعها وقالت في لوعه:
- تريد أن تعاقبني!!
صمت عمير وهدق في وجهها قليلاً ثم قال:
- أنا لم أتم منذ أول أمس...ورأسي يكاد ينفجر.... أريد أن أنام... بعد
إذنك.
إنحدرت عبرة جديدة من عبراتها على خدها ولكنها آثرت الصمت
لتخرج من حجرة ابنها وإن كانت تشعر بحسرة وألم لم تشعر بهما أبداً
.... حتى عندما تركها ياسين.
بدل ثيابه... ليفترش سريره وقبل أن يغرق في نومه....
"...يبد وأنك فعلاً قررت أن تعتمد على نفسك وتتوكل على
شيطانك... فلن يكن لي دوراً معك.... ولكن اسمعني ولو للمرة
الآخيرة...ستتجرع كاسات الندم وحدك...."
رفع عمير وسادته ليضعها على رأسه وكأنه يكتب هذا الصوت...الذي
سكت هذه المرة دون أن يأمره عمير بذلك.

.....

الفصل الحادي عشر

جلس ديفيد أمام مكتبه يراجع بعض الأوراق ثم رفع رأسه فوراً شعر
بدخول زوجته التي وضعت على المكتب كوب من اللبن فمط ديفيد
شفتيه قائلاً:

- كنت أفضل كوب من القهوة.
- هزت ريتشي رأسها قائلة:
- ليس قبل النوم ديف.

- ومن قال أني سأنام.
- أنا لقد تأخر الوقت ويجب أن تنام.
- عزيزتي أنا لم أنهي ما بيدي بعد... هذا عملي.
- وأنا أيضاً أؤدي عملي.... وهو رعايتك والاهتمام بصحتك.
- وقبل أن يصف شيء رن جرس هاتف صغير موجود في رف بالمكتبه ما أن سمعته ريتشي حتى عقدت حاجبها متذمرة:
- ماذا يريد منك في هذا الوقت المتأخر؟! كان هذا الهاتف ..هاتف خلوي أعطاه حاييم لديفيد ليتصل عليه دائماً كما أن ديفيد لا يستطيع استعماله إلا للاتصال بحاييم ظل يحدق بالهاتف قليلاً ثم نظر إلى زوجته لتعطيه الهاتف إلا أنها أشاحت بوجهها واستدارت لتغادر المكان:
- هذا الرجل بالذات ليس من اختصاصي.
- فرجع ديفيد حاجبيه في دهشه ثم قام ليحيط على الهاتف وما أن رد حتى صاح حاييم:
- كل هذا لتجب...أين كنت؟! حاييم توقف عن مخاطبتي كطفل.
- لا يهم..... اسمع... كيف حال دكتور جوزيف هذه الايام؟! ما هذا السؤال؟! اجب فحسب.
- صمت ديفيد هُينه:
- أعتقد... طبيعي... وإن كنت علمت اليوم أنه رحل سريعاً ولم يكن في حاله طبيعيتة.
- كلمت أعتقد هذه لا أحبها...فعملنا لا يقوم إلا على الحقائق فقط... والان اسمعني...أريدك أن تتابع جوزيف هذا عن كثب... خاصة أحواله في الجامعة ومع الدارس الذي عنده المسمى بعمير وإذا حدث أي غريب اتصل بي وهذا يعني ألا تترك هذا الهاتف في المنزل أبداً مفهوم.
- ولماذا كل ذلك؟.... ولم عمير بالذات؟!

- لأننا لدينا شكوك في علاقته بهذا الشاب وربما ستأتينا أخبار من مسقط رأسه في الصباح تؤكد لنا ما نشك فيه.
- وما هذا الذي تشكون فيه؟!
- إنه أمر إن صدق.... يمكن أن نستغله جيداً لمصلحتنا ونزيح جوزيف هذا من الطريق بل ربما هو نفسه سيعتذر بعد أن تكثر حوله الاقارب. سكت ديفيد مفكراً ليستشف شيئاً يروي ظمأ حيرته لكنه لم يصل لشيء فاخترقت أذنه ضحكه ساخرة من حاييم:
- لا تحاول أن تبحث عن تفسير يا دكتور..... فليس كل ما يعتمد على العقل يمكن أن تتوصل إليه... خاصة إذا كانت أفكار شيطانية. ثم عادت ضحكته تخترق أذن ديفيد الذي شعر هذه المرة فعلاً أنها ضحكة شيطان ورغم أنه يعرف أن كل هذا يسير لمصلحته إلا أن شيئاً ما داخله لم يروق له ما يحدث على الاطلاق.

.....

لم تعرف ريم كيف مريومها..لم تستطع التركيز في أي من محاضرتها، أرادت الذهاب لمكتب أباها لكنها علمت أنه غادر منذ الصباح ولم يلقي أياً من محاضراته، عادت لمنزلها سريعاً وقد قررت أنها لن تنام الليلة قبل أن تفهم ما الذي يجري حولها. عندما وصلت التقت بأما التي أخبرتها أن أباها نائم منذ فترة ولن يستيقظ إلا في الصباح وعندما رأت إصرار ريم على الحديث معه أخذتها لغرفتها لتتحدث هي معها.

- حسناً...إذن أبي تكلم معك...جيد...أخبريني إذا..ما الذي يجري؟!
- تأملتها أمها بحزن ثم قالت:
- ما كان أحد ليتوقع هذا أبداً...بنيتي..إن رجاء أم عمير...هي نفسها طليقة أباك.

رفعت ريم حاجبيها:

- ماذا؟!.. لم أكن أعرف أن أبي تزوج قبلك؟!
- معلومة لم أعتقد أنها ستفيدك.. فلم أخبرك بها؟!
- لم تمهلها دينا وأكملت:

- وهذا ليس كل شيء...يبدو أن رجاء كانت حامل عندما طلقها أباكِ.. وأنجبت ولداً.
- اتسعت عينا ريم في فزع وهرب الدم من وجهها فأسرعت أمها تقول:
- ليس عمير... بل أخاه الأكبر... هذا ما قاله عمير لأبيكِ... ولكن للأسف.. هذا الابن مات منذ ثلاث سنوات... وأباكِ مصدوم للغاية.
- وضعت ريم كفها على جبهتها:
- مهلاً أمي... هذا كثيرٌ علي... هل من المفترض أن أستوعب كل هذا في وقتٍ واحد؟
- ربتت أمها على كتفها:
- نعم بنيتي... هو كثير على أباكِ أيضاً... ولكن ماذا يمكننا أن نضعل؟!... إنه القدر.
- حاولت ريم أن ترتب تلك الأحداث التي تلتها أمها دون هدنة في محاولة لاستيعابها ومعرفة تبعاتها، وقبل أن تصل لنتيجة قالت أمها:
- ريم.. أعتقد أن ارتباطك بعمير... لن يكون فكرة جيدة. نظرت لها مندهشة:
- أمي ماذا تقولين؟!... ما ذنبنا نحن؟!!
- أسفه حبيبتي... ولكن... ولكن أباكِ قال أن عمير كان يتحدث معه بجفاء شديد وكأنه غاضب منه لأنه ترك أمه بحملها وذهب.
- صمتت ريم تفكر في الطريقة التي تحدث بها عمير معها وكانت أيضاً ليست جيدة على الإطلاق، عقدت حاجباها قائلة:
- ربما لأننا في البداية فحسب.. كل شيء سيتحسن مع الوقت. وقفت دينا تقول:
- لا ريم... لا أعتقد أن أباكِ يريد لرجاء أن تعود لحياته.
- وما شأنها بنا؟.
- التفتت أمها لتقول بعصبية:
- أنا أيضاً لا أريدها أن تعود لحياته... لقد بذلت الكثير من الجهد لينسها... لقد تألمت كثيراً لحبه الشديد لها... لم لا تظهمين؟
- حدقت ريم بأمها التي كانت تنتفض بالفعل فرددت:

- أمي..

تنفست دينا بهدوء لتستعيد تماسكها رفعت شعرها عن وجهها قائلة:

- ها قد عرفتي كل شيء الآن...يمكن أن تنامي صحيح.

تركتها، بينما ظلت ريم تحديق في لا شيء غير مصدقة ما يجري

حولها، ولكن عاد عقلها يعمل لتتذكر اسم عمير الذي لم

تناسه.. "عمير ياسين" هو لم يخبرها أبداً أن له أخ ماتزال هناك حلقة

مفقودة....وستعمل على إيجادها.

.....

فتح عمير جفناه ببطء وشعر بأنهما ثقيلان فتأوه في ألم وأمسك رأسه:

- يا الهي.... مازال هذا الصداع متعلقاً برأسي، رأسي تؤلمني!!

قام من على فراشه ونظر للساعة فإذا بها قاربت على العاشرة صباحاً:

- يا الهي...لقد نمت لصباح اليوم التالي...أهذا ما يسمى بنوم الهروب؟

حك رأسه وكأنه يطرد الصداع عنه ثم خرج من حجرته ليرى أمه

وهدى يجلسان في الردهة تعلقت عيونهما به فقال:

- لم لم يوقظني أحد للصلاة لقد فاتتني ٤ صلوات؟!

- رُفع القلم عن النائم حتى يستيقظ.

قالتها أمه وهي تمنحه نظرة مليئة بالحب والقلق في نفس الوقت، لم

يطيل النظر إليها ذهب وتوضاً لئتم صلاته، لكنه وبعد ان وقف على

سجادة الصلاة وقبل أن يرفع يده لتكبيرة الأحرار تسمر مكانه

للحظة إذا عاوده الصوت من جديد ولكن ليس لمحاورته وإنما

لمهاجمته:

- "كيف تجرؤ؟...هل حقاً ستقف بين يدي ريك؟...بعد الكذب

على أبيك وإسأتك لأمك.."

ارتعشت أوصاله وعاد يتذكر ما حدث بالأمس... وللحظة تصور أنه لم

يكن هو من كان يتكلم، سقط على ركبتيه وشعر بقلبه ينتفض

داخله:

- يا الهي...ما هذا الذي فعلت؟! كيف تصرفت بهذه الطريقة؟!...لست

أنا...لست أنا من يفعل ذلك؟! سامحني يا ربي...سامحني...لقد أعماني

غضبي...أردت لهما أن يتألما مثلي....لكم تألمت لغياب أبي
عني....لكم عانيت وأنا أنتظر عودته... بينما هو هنا يربي ابنته على
أنها الوحيدة في حياته...ماذا سأفعل الآن؟!...كيف سأعود له لأخبره
أنني أنا أبنة..بعد أن أوهمته بأني ميت...ماذا فعلت يا عمير...ماذا فعلت
يا أحمق؟!!

التفت على طرق باب غرفته لتدخل له نبيلة واتسعت عيناها عندما
رأت دموعه تنسال ثانية على خديه:

- عمير...ألا يكفي؟!...لم تعد للبكاء؟!!

ظل يحدق بها دون رد...بينما يحدث حاله:

- "يا الهي..هل أخبرهم بما فعلت؟!...ستغضب أمي كثيراً لو أخبرتها."

- عمير هل تسمعني؟!!

انتبه أنها أصبحت تجلس بجواره فقالت:

- أنت لم تأكل شيء من أول أمس...أم إنك أكلت بالخارج.

إكتفي بهز رأسه نفيًا فقامت :

- هذا ما توقعته خالتي رجاء....سأعد لك شيء تأكله...لا أريد أن

أعد وأجدك ما زلت تبكي....لكل شيء حل عمير..ثق بربك.

تركته وذهبت دون أن تدري وقع أخر جملتها عليه إذ زاد بكائه:

- أثق بربي...لقد خنت ربي...لقد خنت ربي.

تماسك أكثر وقام لصلاته...وان كان أدها بين دموع ونحيب، دخلت

نبيلة بالطعام لتجده قد أنهى صلاته، وهزت رأسها لعلمها أنه لم يكف

عن البكاء، وضعت الطعام قائلته:

- هيا عمير..تعال لتأكل؟!!

نظر للطعام ورغم أنه بالفعل كان يشعر بالجوع، لكنه فقد الآن أي

رغبة بالأكل، فلم يتحرك من مكانه، وضعت نبيلة كفيها على

خصرها:

- هكذا..سأنادي خالتي...هي فقط التي تطعمك حين ترفض الطعام.

خرجت فقام من مكانه، ليجد أمه بالفعل تدخل الغرفة وهي تمنحه

نفس نظرة الحب، قائلته:

- عمير...يجب أن تأكل...لن يحتمل جسدك كل هذا.
تأملها بنظرة لم تراها من قبل، لم تعرف هل هي نظرة قلق..أم خوف..أم
حزن، اقتربت منه لتمسك يده لتجلسه أمام الطعام قائلة:
- سأفعل كما كنت صغيراً وترفض الطعام هل تذكر؟!
رفعت الملعقة بالطعام إلى فمه مردفة:
- أطعمك بنفسني.
تجنب النظر إليها، فقربت الطعام أكثر إلى فمه:
- هيا عميري...هيا صغيري..افتح فمك.
كلماتها أعادته سنوات للوراء، حينها كانت أمه هي دنياه.. ماضيه..
وحاضره... هي كل شيء بحياته...وهو كان لها كذلك.
فتح فمه فعلاً وقد تحجرت الدموع بمقلتيه، ابتسمت أمه وقاومت هي
الأخرى رغبتها بالبكاء لتطعم ابنها، تشعر أنها تستعيد ابنها
ثانية..كانت تعلم أنه لن يبتعد عنها كثيراً، أما عمير فقط ذهب
بعقله لكثير من ذكرياته مع أمه، دوماً كانت معه..في فرحه
وحزنه...في صحته ومرضه...كم تعبت معه..ومع ذلك كانت دائماً
تقول له أنه أهم سبب لشعورها بقيمتها بقائها على هذه الأرض.
استسلم تماماً لإطعام أمه له حتى أنهى طبقه فعلاً، صحيح أنهما لم
يتبادلا كلمة واحدة..لكنه شعر بشيء كبير من الراحة، وكذلك
هي...مسحت على رأسه قائلة:
- تحدث معي يا بني...أفصح عما في داخلك....لقد كنت دائماً تقص
علي ما في قلبك..... لا تحرمني من هذا يا ولدي.
ظل صامتاً فأضافت:
- تكلم يا عمير... أنت لن ترتاح إلا إذا تكلمت...صدقني.
أطلق زفرة حارة قائلاً:
- ماذا تريدني أن أقول؟!
- قل ما تشعر به.
نظر لها ثم أشاح بوجهه عنها:
- أنا لا أشعر بشيء.

- بني... لا تتعبن ... أرجوك تكلم... صدقني أنا لن أغضب... فقط تكلم.
- دعيني وحدي.
- لا.. لن أدعك... حتى تتكلم.. هيا أسمعك.
- صمت لوهلة ثم قال:
- حسناً... عندما تركتك وخرجت لم أكن أفكر إلا في شيء واحد... أنا نيتك....
- والتفت لها ليكمل:
- نعم أنتِ أنا نيتي... هذا ما أشعر به بالضبط... وليس أنتِ فقط ، بل هو أيضاً كلاكما أنا نيتي... كم أنا مندهش... هل يمكن أن يكون البشر بهذا القدر من العمى... ولم لا ينظرون إلا أسفل أقدامهم؟؟؟
- قال كلمته الاخيرة وهو يضرب الارض بقدميه مستطرداً:
- لم هم فاقدا والبصر والبصيرة؟؟... لم فعلتما هذا بي؟؟!!.....
- إنحدرت الدموع من عينيه:
- أكان يجب أن أكون أمامكما بشراً سوياً لتعلمنا أن لي حقوق عليكما؟؟!!..... أكان يجب أن تسمعي صرختي لتفريقي من أنا نيتك؟؟!!
- أكان يجب أن يأخذني أبي عاطف معه له كي يراني ويصدق أن له ابن؟؟!!.....
- لم يتمالك نفسه أكثر وزاد بكاءه قائلاً:
- أقسمت طوال عمري أن أحبك... ولا يسعني غير أن أبقى أحبك، ولكن... ولكنني حقاً صُدمت.... لم أتصور يوماً أن الامر التي ربتني وعلمتني الايثار هي نفسها التي جعلتني أعيش يتيماً بلا أب، والسبب أقل من أن يذكر.
- قالت رجاء من بين دموعها:
- ولدي لقد تغيرت... لم أعد كذلك.
- رفع وجهه الغارق في الدموع:
- ولم أفقتي متأخرة؟.
- الله.. أراد ذلك.

هب من مكانه صائحاً:
- لا يا أمي لا... لا تقولي هذا.
ثم أدار وجهه عنها وأردف:
- صحيح أن كل شيء يجري بإرادة الله لكنه أيضاً أعطانا إرادة خاصة بنا وهي التي سنحاسب عليها، فلو كان كل خطأ سنرتكبه في حياتنا سنقول الله أراد ذلك لبرأنا كل مذنّب على هذه الأرض... والأ ما فائدة الجنة والنار مادام سندخلها فقط لأن الله أراد ذلك..... نحن من يختار يا أمي....، أنت من اختار هذا المصير وهو من اختار الالبتعاد، ولكن ما نحن مسيرين فيه فعلاً هو أنني إلتقيت بريم وأحببتها وأردت أن أتزوجها ولكن حمداً لله... الذي كان رحيم بنا فعلمنا الحقيقة بكونك معي هنا وإذا لم تكوني معي لربما عدت لك أحمل طفلاً بين يدي من ريم ثم نعلم بالفاجمة..... فكم كان الله رحيم بنا. ردها في خشوع فقالت أمه:
- معك حق يا ولدي.... ولهذا استغضرت كثيراً، وتوبت إلى الله، وتصورت أن المشكلت انتهت ولن تعد للظهور.
- ولكن هناك أمور لا بد من نتائج لها لتكون لنا درساً وعبرة وهذا ما نحن فيه ولعل توبتك هذه هي التي جعلت الله يرأف بنا ويهون علينا المصيبة وأوقفنا عند هذا الحد، والا كانت الكارثة ستكون أكبر وتمتد إلى ذريتنا من بعدنا.
نظرت أمه إليه وقد هدأ كلاهما كثيراً:
- أريدك أن تسامحني.
صمت عمير قليلاً ثم استدار لينظر لها قائلاً:
- سبق أن أخبرتك أنني أقسمت أن أحبك، ولكني لا أعلم هل هذا الجزء الذي يشعر بالغضب والضيق داخلي سأتغلب عليه بسهولة أم لا ولكني أعلم أيضاً أنكِ أمي التي ليس لي سواها... والتي أشتاق لحضنها الدافئ دوماً.
ما أن قالها حتى أسرعت أمه إليه لتضمه لصدرها، ليشم رائحتها التي افتقدتها فعلاً، أخذت تمسح على ظهره مرددة:

- ابني... عمري... أنت عمري كله يا عمير... عمري كله.

تفرقا عند دخول نبيلة الغرفة لتقول:

- عمير... ريم هنا.

حق بها بذهول:

- ماذا؟!!

- قالت أنها تريد الحديث معك.

التفت لأمه التي وضعت كفها على فمها مرعدة:

- سامحني.. يا بني... سامحني.

حك جبهته بارهاق قائلاً:

- حسناً أخبريها أنني قادم.

قالت رجاء وهي تنظر له في أسى:

- هل ستخبرها؟!!

- لا أستطع.

قالها بلهجة مزقت قلب أمه، فقالت:

- ماذا ستفعل إذا؟!!

- لا أعلم... لا تخرجي إلينا.

جلست ريم على الأريكة تلاعب أصابعها بعصبيه، فقال:

- أهلا ريم.

نظرت له، ثم وقفت قائلة:

- هاتفك مغلق منذ أمس.... لا أستطع الاتصال بك.

عقد حاجبيه وكأنه يتذكر شيء:

- هاتفني... لا بد أن بطاريته فرغت... ربما جاسر أيضاً لم يستطع الاتصال

بي.

ظلت ترمقه بنظراتها الغاضبة، والتي اخترقت كل جوارحه....

"ريم... أرجوك سامحيني.."

قالها في نفسه قبل أن يسألها:

- ماذا يمكنني أن أقدم لك؟
ريم في دهشة:
- ما هذا السؤال؟!... عمير كان من الممكن لولا ما حدث أن نكون خطيبين.
أشاح بوجه عنها بعد أن ارتسم الالم عليه:
- نعم ولكن حدث ما حدث.... وانه لقد راللله علينا أن يحدث.
قالها في حزن شديد فتمنت ريم أن ترى وجهه لكنها لم تحاول الاقتراب فقالت:
- ألك أخ أكبر يا عمير؟
التفت إليها ذاهلاً :
- ماذا؟
- ألم تسمعي؟
صمت عمير قليلاً ثم نظر بعيداً كما يفعل قائلاً في توتر:
- لم تسألني؟
- أعتقد أن من حق زوجة المستقبل أن تعرف على الاقل أفراد عائلتك.. أم إن هذا ليس من حقي؟
".... زوجة المستقبل.... يا لها من كلمة كلما لمحتي إليها أزداد كرها لما هو حولي وأشعر بالاشمئزاز من نفسي التي تمنتك يوماً ... لن نتزوج يا ريم... أنت أختي...."
- عمير.. أجبني.. لا تصمت هكذا.
أدار ظهره لها:
- ريم... أعذريني... ولكن.. نحن... لن....
لم يعرف كيف ينطقها لكنه تماسك مردفاً:
- لن.... لن نتزوج.
لم يرى ريم أو ردت فعلها، فقد اتسعت عيناها في ذهول وشعرت وكأن هناك من وضع قضيباً من الثلج في قلبها فجأة وظلت تحرق في ظهره غير مصدقة وتمنت لو أن أذناها قد خدعاها فقالت:
- ماذا قلت.... أقلت أننا لن نتزوج؟

خفض عمير رأسه:

- ريم لا تصعبى الامر علي.... بالله عليك.

أراد الابتعاد من أمامها لولا أن صاحت ريم بغضب شديد:

- توقف... أنا لم أسمح لك بالانصراف.... أم تتصور أنك وحدك الحاكم بأمره.

توقف دون أن ينظر لها ولكنه استطاع أن يشعر بما تشعر به فقالت والدموع تترقق في عيناها:

- لقد طلبت مني الزواج بأكثر الوسائل ابداعاً بالنسبة لي وحينها لم أسألك لم اخترتني؟!.. لأن السبب واضح فإي إنسان طبيعي لن يتقدم لأحد إلا إعجاباً ورغبة فيه أما الان فأنت تقول العكس وهنا السبب ليس واضح بالنسبة لي....من غير المعقول فقط أن معرفة بين أبي وأممك تكون سبباً...أنا أريد أن أعرف السبب الحقيقي؟!.

هز رأسه والتفت لها ناظراً في حزن:

- ريم...أنت أفضل من عرفت في حياتي.

- لماذا إذن؟!.

- قضاء الله وقد ره.

قالت في عند :

- أريد أن أفهم.

- يوماً ما ستفهمي.

صاحت في غضب:

- أريد أن أفهم الان.

- أسف... ليس لدي ما أضيفه...يمكنك الذهاب الآن...فأنا متعب للغاية.

ظلت تحديق به وقد أصابها الذهول والغضب الشديد ، فقالت في حنق وهي تغادر:

- شكراً لك...شكراً على كل شيء.

خرجت لتصفع الباب خلفها فأسرعت نبيلتة إليه:

- ماذا حدث؟!.

- لا شيء-

دخلت ريم لغرفتها دون أن يشعر بها أحد ، فلم تكن في حاله تسمح لها
الحديث مع أحد .

كيف أمكنه أن يفعل بها هذا...

"لن نتزوج"

قالها وكأن شيئاً لم يكن...وكانه لم يحبها أصلاً..هي تعلم أن
علاقتها به لم تتوطد كثيراً.. لكنها كانت واثقة من شعوره ناحيتها ،
وهي أيضاً أحبته...ولكن لماذا؟؟..فقط لأن أمه طليقة أباه...

مستحيل... لا يمكن أن يكون هذا هو السبب الوحيد...انفجرت
باكية وهي تشعر بالعجز لما يحدث حولها...وربما هي المرة الأولى
التي تشعر فيها بهذا الشعور... طالما كانت تمتلك زمام أمورها...وهي
التي كانت تقرر قراراتها المصيرية... ترعرعت على تحمل نتائج
اختيارتها...لم فجأة تشعر أنها أصبحت كالدمية التي يحركها
الآخرون؟؟...لم لم يعد من حقها أن ترفض هذا المصير الذي فرضه
عمير عليها؟؟

ولكن ماذا يمكنها أن تفعل؟...هو أنهى كل شيء بكلمة...وهي لا
تستطع أن تفعل أي شيء... أخذت تتنفس بصعوبة...وتذكرت النوبة
المرضية التي كانت تتابها عندما تتأزم نفسياتها...أزمت مرضية قد
نسيته تماماً... افترشت فراشها وحاولت أن تهدأ كي يعود تنفسها
طبيعي... رن هاتفها الخلوي رفعتة إليها لتجد اسم جاسر، تنفست بمزيد
من الهدوء لتسيطر على صوتها وهي تجيبه:

- جاسر...كيف حالك؟!

- أنا بخير...كيف حالك أنت؟!

- الحمد لله...ماذا هناك؟!

- لم أرى عمير منذ أمس...وأتصل به لا يجب...فقلت ربما تعرفين أنتِ

أين هو...أنا لا أعرف عنوان منزله..هل يمكنك إعطائه لي؟

- حسناً...ولكن جاسر...دعني أسألك أولاً.

- تفضلي.
- هل لعمير أخ أكبر توفاه الله؟
شعرت بالدهشة في صوته:
- ماذا... عمير... لا... في الحقيقة هو لم يخبرني بشيء كهذا... على حد علمي... هو ليس له أخوة من أمه لا ذكور ولا إناث... فقط له أخوات من الرضاعة... أنتِ التقيتي أحداهن يوم الخطبة.
- اعتدلت في فراشها وقد زاد توترها:
هل أنت متأكد؟!
- نعم... إلا لو كان أخفى علي الأمر... هو الذي أخبرك بذلك.
قفز إلى ذهنها اسم والد عمير الذي هو ياسين.. هي متأكدة فقالت:
- جاسر... هل تعرف اسم عمير بالكامل؟!
- ما هذة الاسئلة الغريبة ريم؟!
- فقط أجبني... هو ليس سراً... أنا فقط أعرف اسم أبوه... أريد أن أعرف الاسم بالكامل.
- حسناً... أنا أعرف الاسم الثلاثي فقط... عمير ياسين يوسف.
- تحجرت أصابعها على الهاتف، ودارت عينها في محجريها، بينما يردد جاسر:
- ريم... هل تسمعي؟!
- تحرر الهاتف من بين أصابعها التي تجمدت ليسقط أرضاً فانفصلت بطاريتة عنه لينطفيء، ثم بدأ جسدها بالارتعاش وعادت تحارب لتأخذ نفسها من جديد... وبدأ وكأن الهواء أنسحب من الغرفة تماماً، حاولت النزول من الفراش لكن ما أن وقفت على الأرض حتى سقطت من جديد...
- لم تصدق ما سمعت.. عمير... أخوها... رفعت كفها إلى رقبته لتحاول باستماته التنفس... يجب أن تطلب المساعدة... زحفت بكل ما أوتت من قوة لتفتح باب غرفتها لتخرج رأسها منها.. حاولت أن تنادي أحد... لكن صوتها لم يكن يخرج إلا كشهقة فحسب.. رفعت يدها تضرب المائدة الصغيرة التي بجوار باب غرفتها وتزينها مزهرية صغيرة لتسقط أرضاً

متحطمة ومحدثه صوتاً عال، انقلبت على ظهرها وهي ما زلت تحارب
كي تتنفس فقط، فتح باب غرفة أبويها لتطل منها دينا:
- ماذا يجري هنا؟!

وما أن سقطت عيونها على ابنتها حتى صرخت:

- ريم...ابنتي..ماذا بكِ؟!...

خرج وراءها ياسين الذي اصطدم بوجه ابنته الذي بدأ يميل إلى
الزرقطة، جثا بجانبها على ركبتيهما لترفعها أمها عن الارض:

- ريم..ماذا حدث؟!...ماذا بكِ؟!..افعل شيئاً يوسف.

أسرع ياسين قائلاً:

- سأطلب الاسعاف.

ضمت دينا ابنتها لصدرها وهي تردد في جزع:

- ماذا بك يا ريم؟!

نظرت لها ريم بعينان زائغتان وقالت بصوت مبجوح:

- عمير.... عمير...

لم تستطع أن تكمل بل شهقت مرة أخرى بقوة أكبر وهي تضع يداها
على صدرها:

- ريم ..اهدائي حبيبتي..اهدئي..أرجوكِ حاولي التنفس بهدوء؟!

عاد ياسين:

- سيكونوا هنا بعد دقائق....ريم حاولي أن تهدئي لتتمكني من
التنفس.

لم تكن ريم تسمع ما يرددوه كانت تريد أن تخبر أباهما بما عرفت:
- عمير..ابنك.

لم يسمعا شيئاً فقط شفاها التي ازرققت تماماً تتحرك فحسب:

- ماذا تقولين ريم....صوتك ليس واضح...لا تتكلمي...فقط اهدائي.

كان هذا آخر ما وصل إليها من صوت أبوها ولم تستطع الصمود
أكثر...وسرعان ما سقطت في ظلامٍ دامس.

.....

الفصل الثاني عشر

جلس ديفيد بمكتبه يتابع عمله، عندما تعالى رنين هاتف حاييم
فظهر الضيق على وجهه مردداً:

- ماذا وراءك؟!!

ما أن أجاب حتى قال حاييم:

- أما زلت في مكتبك؟

- بلى.. هل هناك شيء؟!!

- أريدك أن تذهب إلى مشفى الطواريء.

عقد ديفيد حاجبيه:

- لماذا؟!!

- ابنتي جوزيف هناك.

هب ديفيد من مكانه صائحاً:

- ماذا فعلتم بها؟!!

جاءه جواب حاييم:

- لم نضع شيئاً يا رجل.... أصبتها أزمته ما... وطلبوا لها الاسعاف.

ردد ديفيد:

- أزمته؟!!

- نعم.... اذهب إلى المشفى أنت وزوجتك... وحاول أن تعرف... ما الذي

يجري بالضبط عندهم؟... وما سبب أزمته ابنتهما تلك؟!.. واخبرنا في

الحال هل تفهم؟!!

- ولكن..

- لا لكن... فنحن ربطنا الكثير من الامور معاً والامور كلها تسير في

صالحنا ويمكننا أن نستغل دخول ابنته المشفى دون حاجه لمعرفة

السبب... لكن نحن نحب أن نعمل على وقائع يمكن استغلالها.... حتى

لا يجد أحد ثغرة يستغلها ضدنا.

- عما تتحدث.. أنا لا أفهم... شيئاً...

- ليس الان دكتور... ستفهم كل شيء قريباً... قريباً جداً... المهم أن

تفعل ما طلبته منك.

- حاضر.

أغلق الهاتف في غضب:

- تباً لكم....ماذا ستفعلون بي؟! بل ماذا ستفعلون بجوزيف؟.... يا الهي
لو عرف أنني أشاركهم في ذلك ... سيكرهني طوال عمره... أرجو في
النهاية أن أحقق ما أريد... بدلاً من أن أخسر كل شيء.

.....

تطلع ياسين لزوجته المنهارة تماماً:

- يوسف...ابنتنا تموت.

أخذ يمسح على رأسها ليهدئها بينما كان قلبه ينتفض فزعاً:

- إهدأي يا عزيزتي... ستكون بخير إن شاء الله.

خرج الطبيب في هذه اللحظة فصاحت دينا:

- ماذا أصاب ابنتي؟! ماذا حدث لها يا دكتور؟

أمسك بها ياسين ليهدئها قائلاً:

- دكتور..طمئنا أرجوك.

هز الطبيب رأسه متفهماً:

- في الحقيقة الوضع ما زال حرج.... لقد أصيبت ابنتك بضيق حاد في

الشعب الهوائية كاد أن يوقف رثتها عن العمل لولا أنها وصلت هنا في

الوقت المناسب لما كتب لها النجاة....المهم أنها الآن على جهاز التنفس

الصناعي برغم أن رثتها عادت إلى العمل لكن لا بد لنا من الاطمئنان

حيث أن الرئتان ما زلتا معتمدتان على التنفس الصناعي ولكن ما أن

يعودا للعمل بنسبة مئة بالمئة سنخرجها في الحال... وليس علينا سوى

الانتظار.... ولكني أريد أن أطمئنكما أعتقد أنها ستكون بخير حيث

أن رثتها عادت للعمل سريعاً.

ارتاح قلب ياسين وزوجته قليلاً فأكمل الطبيب:

- لكن هناك أمر هام..

سأله ياسين:

- ما هو دكتور.

فأجاب:

- لابد من حل المشكلة أو الازمة التي تسببت بهذه الصدمة لابنتك
لا نريد أن تعد لها هذه الازمة مرة أخرى...هذا ليس في صالحها....
أرجوا أن يكون كلامي واضح.
تبادل ياسين مع زوجته النظرات وقالوا معاً:
- واضح... دكتور.
ثم قالت دينا:
- أريد أن أراها دكتور أرجوك.
صمت الطبيب قليلاً ثم قال:
- لا بأس... يمكنكما الدخول معاً لكنكما ستروها من خلف حاجز
زجاجي فغير مسموح بالدخول للحجرة وذلك حرصاً على سلامة
ابنتكما.
أومأ برأسهما متفهمان وقادهما الطبيب إلى حجرة ريم وما أن رأوها حتى
انتفض قلبهما عليها حيث كانت مدفونه داخل جهاز ضخ لا يظهر
منه غير رأسها ولم يزل وجهها به بعض الشحوب لم تتمالك دينا نفسها
فأشاحت بوجهها بعيداً وانهمرت الدموع من عينيها فأشار الطبيب لياسين
بأن يأخذها ويخرجها فألقى على ابنته نظرة أخرى حانية ثم جذب
زوجته برفق للخارج. أجلس زوجته لأقرب مقعد وجده وهي ما زالت
تبكي جلس بجانبها ثم قال:
- بالله عليك إهدأي يجب أن نعرف ماذا حدث بالضبط قبل أن تصاب
بهذه الازمة؟
رفعت رأسها ونظرة له بعين غاضبة قد زاد إحمرارها:
- كل هذا بسببك...وسبب طالك هذا.
عقد ياسين حاجبيه:
- ماذا تقصدين؟؟
- عندما كنت تطلب الاسعاف...كانت تردد اسمه.
- اسم من؟؟
- عمير..من غيره.
تجهم ياسين قليلاً قائلاً:

- تردد اسم عمير..لماذا؟!...

قالت دينا بعصبية:

- وكيف لي أن أعرف؟!!

صمت ياسين مفكراً، ما الذي يمكن أن يكون حدث بينهما ليصب
ابنته ما أصابها...ريم ..ابنته القوية..التي يعلم أنها لا تنهار بسهولة،
هل انتهى أمر خطبتهما مثلاً...ولكن هذا لن يقض على ابنته
هكذا..لا..بالتأكيد الأمر يتعدى هذا بكثير...ولكن ما هو؟!...ما
هو؟!..

.....

أعاد عمير تشغيل هاتفه ليتصل بجاسر الذي ما أن أجاب حتى قال:

- أخييبييراً...أين أنت يا فتى؟...لقد أرهقتني من البحث عنك.

حاول عمير الابتسام لكنه لم يفلح فقال:

- أسف..كنت مرهق...جداً..أسف حقاً.

شعر جاسر بالقلق من نبرة صوته:

- ماذا بك؟!..لم يبد و صوتك حزين؟!!

صمت عمير، ماذا يمكن أن يخبره؟!...ما يحدث ليس أمراً قابلاً

للتداول..ولا حتى بين الأصدقاء.

- عمير هل تسمعني؟!!

- نعم...أسمعك...أسف جاسر...لست في حاله تسمح لي

بالكلام...سامحني.

- ماذا بك يا أخي...هل ستخفي علي؟!هل الأمر متعلق بريم؟.

أغلق عمير عينيه مع ذكر اسمها، وقد ازدادت لوعته قلبه، فقال جاسر:

- لم أنت صامت...بالتأكيد هناك شيء حدث بينكما..هي أيضاً

كانت تسألني أسئلة غريبة حينما هاتفتها لطلب عنوانك.

اعتدل عمير في مكانه قائلاً:

- ماذا؟!..أي أسئلة تلك؟!!

- سألتني إن كان لك أخ أكبر...صحيح هل لك أخ أكبر؟!!

اعتصر عمير قبضته وهو يقول:

- لا... وأنت تعلم.

- جيد... هذا ما أخبرته لريم.... كذلك سألتني على اسمك
بالكامل.

سقط قلبه بين قدميه وهو يستمع لجاسر:

- فأخبرتها باسمك الثلاثي... صمتت بعدها ثم أنقطع الخط وعندما

حاولت محادثتها وجدت الهاتف مغلق، لعله فرغ صحيح؟!؟

لم يجب عمير فلقد ذهب في عالم آخر... عالم يبد وأنه سيعيش فيه
لفترة طويلة... عالم من الالم والحسرة... من الحزن والضيق... لقد عرفت
ريم... بالتأكيد عرفت ما أخفاه عنها.. ترى كيف تراه الآن؟..
هل ستتفهمه أم ستظنه كذب عليها وخذعها، وليس هذا فحسب..
ستخبر أباها حتماً لتكتمل صورة المخادع التي رسمها لنفسه دون
قصد.

"كنت تلوم أبويك على عماهما وأنا نيتهما... بماذا تسمي فعلتك التي

ليس لا أي مسمى آخر سوى الكذب والخداع"

وأبي كذب.. إنه الكذب الذي يحطم القلوب.. ويدمي الروح... لقد أقنع
أباه أنه ميت... والآن سيعرف أنه خدعه... بما سيفسر تصرفه... حتماً لن
يكن لصالحه.

خرج من خواطره بصوت جاسر:

- يا الهي... ما خطبك كما؟!... عمير هل تسمعي؟!؟

جاهد عمير ليخرج الحروف لتشكّل كلمات يمكن استيعابها:

- نعم جاسر... أسمع... سألتقي بك غداً في الجامعة... لن أخرج اليوم.

صمت جاسر كان يريد أن يراه.. أن يزوره... لكنه لم يجد تشجيع من

عمير ففضل تنفيذ طلبه الواضح بأن يتركه وحده.

وضع عمير الهاتف جانبا، شعر بالضيق التام... لم يبد وأن الأمور تتأزم

بدون قصد منه؟... لم يكن في استطاعته أخبار ريم.. لم يكن في

مقدوره أن يمتلك تلك النوع من الشجاعة، هز رأسه في ألم:

- ماذا سأفعل الآن؟!؟

وجد هدى أمامه، لم يشعر بدخولها، اقتربت منه قائلة:
- طرقت بابك ولم تجب...أريد أن أتحدث معك قليلاً...أعتقد أنك
هدأت كثيراً الآن.
هدأ..هل حقاً هدأ؟...لم يشعر أنه أبعد ما يكن عن الهدوء؟... لكنه
لم يمانع...فليسمعها...يعلم أن كلامها قد يريجه..طالما كانت الام
المكملتة بالنسبة له.
- عمير...أعلم أنك غاضب...وحزين...ومصدوم...من كل ما سمعت من
أمك. ولك كل الحق في ذلك، ولكن بني أريدك أن تعرف شيئاً
واحد...أمك أخطأت لكنها اعترفت بهذا الخطأ...ندمت عليه كثيراً
تألمت بسببه ليالٍ طويلت... رسالتة أبوك لها..أصرت على الاحتفاظ
بها...كانت تقرأها كل ليلتة...وتبكي...تبكي حياة كانت ستوفر
لك الاب والام...تبكي حياة عاشها ابنها الوحيد كاليتيم...لم تفتقر
عن ذلك ولا ليلتة...ومع ذلك لم يحدث أن عرفت بذلك أبداً طوال
عمرك...لم يحدث أن رأيتها وهي تبكي على وسادتها كل ليلتة...لأنها
كانت تعاقب نفسها فقط...ولم ترد لك أن تعاني معها....كانت
تستيقظ في الصباح وهي تحمل لك ابتسامتها المشرقة وحبها
اللامحدود وفخرها بكونك ابنها... أنت فقط من هون عليها مصيبتها
وأنت فقط من جعل ندمها أضعاف مضاعفة.
رفعت كفها لترت على خده:
- أنت فقط...تمثل لها الحياة بكل معانيها....والذي لا تعرفه...أن أمك
تقدم لها أكثر من خاطب عندما كنت طفلاً صغيراً...ولكنها
رفضت... كانت واثقة أن لا أحد منهم.. سيكون كياسين
لك..فرفضت أن تخوض بك تلك التجربة...فضلت أن تعيش لك
فحسب...أعلم أنك لن تكره أمك أبداً...ولكني أيضاً أريدك ألا
تغضب منها...تذكر كل ما فعلته لأجلك منذ ولدت إلى الآن...
وستجد أنه كثير... كثير جداً عمير.

مست كلماتها قلبه، وحركته وبعنف..نعم أمه فعلت له الكثير.... ألا يستطيع أن يغفر لها أمراً فعلته وهي يافعة وصغيرة؟؟...لم تكن قادرة بعد على وزن الأمر بالشكل الصحيح...زفر بحرارة:
- شكراً أمي هدى...كنت بحاجة لأسمع هذا.
قبلته من رأسه قائلة:

- هذا جيد...والآن يمكننا السفر وترككما ونحن مطمئنان.
التفت لها مندهشاً:

- تسافران؟؟

أومات برأسها:

- تعلم أننا جئنا لحضور الخطبة فحسب...لم نتصور أن كل هذا سيحدث...أباك عاطف يكاد يجن من نيرة أنت تعلم كم هي متعبت في الدراسة...وهذه المرة الاولى التي أبتعد عنهم فيها... عاطف قال أنه سيحجز لنا غداً...في الحقيقة هو لا يعرف ما يحدث هنا... لا يمكن قص الأمر على الهاتف...سامحني عمير أننا نترككما الآن..ولكني واثقت أنكما ستجتازا هذه المحنة معاً...فدوماً كنتما معاً...وهناك شيء آخر...ياسين أبوك...يجب أن يعلم بوجود ابنه الوحيد..يجب أن تتحدث معه يا بني...وليس هو فقط...بل وريم أيضاً...لن تتمكن من التغلب على مشاعرك تجاهها إلا بالحديث معها.
هز رأسه بعنف:

- هذا صعب... لا أستطع.

- دائماً البداية تكون صعبة في كل شيء حتى في الفرح.. عمير... أنت كلما فكرت بريم ستفكر في الفتاة التي اعجبت بها وكدت أن تخطبها.. فعقلك لا يملك إلا تلك الذكرى عنها... وهذا لن يساعدك في مواجهة الواقع.... أما لو تحدثت معها حديث الاخ لأخته... سيبدأ العقل في استيعاب تلك الفكرة... وستتغير نظرتك لها تدريجياً... صدقني دوماً العقل يحب المواجهة المباشرة لاستيعاب الأمور... ثق بي... وحاول الحديث معها.

لم يستطع عمير إلا أن يضمها ل صدره هامساً:

- شكرا أمي...دوماً كنت أقول أنني محظوظ...فأنا لذي أم رومانسية
وعاطفية...وأخرى عقلانية وواقعية.
ابتسمت هدى قائلة:

- هذا جيد...لكن عليك الاعتراف..الام العاقلة وهي أنا ...أفضل
...أليس كذلك؟!

ضحك عمير، وكانت المرة الأولى التي يضحك فيها منذ تلك
الاحداث الأليمة، وأخيراً ابتسم قلبه قليلاً بعد كثير من الحزن.

.....

كانت الشمس قد غربت فعلاً وبينما جلس ياسين ودينا يترقبان حالة
ابنتهما:

- ديفيد...ريتشل.

قالها ياسين وهو يقف ليستقبلهما:

- ما كان يجب أن ترهقا أنفسكما بالمجيء.

أسرعت ريتشل لدينا تضمها في رفق:

- كيف تقول ذلك جوزيف؟!..فوراً قال لي ديفيد لم استطع البقاء
وجئنا فوراً.

عقد ياسين حاجبيه:

- كيف عرفت ديفيد؟!

ارتبك للحظة ثم قال:

- لقد...لقد اتصلت بالمنزل لأطمئن عليك بعد أن علمت أنك غادرت
باكراً فأخبروني بالأمر.

تفهم ياسين ... فقالت ريتشل:

- كيف حالك يا دينا؟!

قالت في ألم:

- أخشى على أبنتي كثيراً.

- لا تقولي هذا ستكون بخير... سيساعدها الله فهي فتاه طيبة.

ابتعد ياسين وديفيد عنهما قليلاً وقال ديفيد:

- كيف حالها بالضبط؟!

- أخبره ياسين ما قاله الطبيب في كلمات سريعة فقال ديفيد في دهشة:
- وأي ضغطٍ عصبي...يؤدي بريم لهذه الحالة؟!؟
- نظر له ياسين دون أن يعلق ثم أشاح بوجهه بعيداً فالتفت ديفيد ليرى دينا تتحدث إلى زوجته فقال في نفسه:
- "ليتك تعرفين شيئاً يا ريتشي.... فجوزيف لن يقل شيئاً... أنا واثق"
- قال ديفيد:
- هل يمكنني أن اقدم لك أي شيء؟
- التفت له ياسين ثم قال بعد قليل من التفكير:
- في الحقيقة...نعم؟!؟
- قل يا صديقي.
- صمت ياسين قليلاً ثم قال:
- أنت تعرف الطالب عمير...صحيح؟!؟
- نعم أعرفه.
- حسناً أريدك أنت أن تتولى أمر رسالته.
- عقد ديفيد حاجبيه:
- ماذا...لمَ؟!؟ هل ضايقتك في شيء؟!؟ ألم تكن تقول أنه ممتاز
- ويمكن أن يفعل الكثير؟!؟
- بلى قلت ذلك... ولكن لي أسبابي في عدم رغبتني في الاستمرار معه...وعلى إذا لم ترد ذلك...فلا بأس، أنت لست مضطراً لهذا...كل ما في الامر أنني لم أرد له أن يقل في مستواه العلمي وأنت الوحيد الذي يمكنك أن تحافظ له عليه.
- أوماً ديفيد برأسه:
- حسناً كما تشاء...لا مشكلة بالنسبة لي....ولكن...
- ولكن ماذا؟!؟
- أعتقد أن المشكلة ستكون بالنسبة له.... لأنه لا يطيقني... وأنا لا أعرف لماذا؟!؟
- لا يطيقك!!!
- نعم....كلما رأيته نظر لي في اتجاهه وبرود.... وكأنني عدوه.

- أطرق ياسين مفكراً ثم قال:
- لا يهمك...لأنه إذا رفض سيكون هو الخاسر.
- ابتسم له ديفيد وقال:
- هل ستبقون في المشفى؟
- نعم...لا يمكننا أن نتركها... سنبقى هنا.....ولا تنسى أن تعتذر بالنيابة عني للجميع وإذا استطعت أن تحل مكاني في محاضراتي سأكون شاكراً...فأنت تعلم أنني أكره أن أعطل أحد.
- سأفعل ما بوسعي.
- اقتريا منهما كلاً من دينا وريتشل فقال ياسين:
- أعتقد أنكما قمتما بواجبكما على أكمل وجه..لا نريد أن نسبب لكما المزيد من التعب..إذا جد شيء سنتصل بكما.
- ربت ديفيد على كتف صديقه:
- سننتظر ذلك....ونرجوا أن تتصل لتخبرنا أن ريم أصبحت على ما يرام.
- إن شاء الله.
- رددها ودينا في وقت واحد فنظرا لبعضهما، ثم غادر ديفيد وريتشل.

- وما أن ركب السيارة حتى سألتها ديفيد:
- ماذا قالت لك دينا؟!
- بخصوص ماذا؟!
- عقد ديفيد حاجبيه:
- ما هذا السؤال؟!.... أنا أتحدث عن حالة ريم.
- آه...فهمت، لا شيء.
- ماذا تقصدين؟ ألم تخبرك سبب الصدمة العصبية التي تعرضت لها ريم؟
- نظرت له زوجته قائلة:
- ألم يخبرك جوزيف؟!
- لا لم يفعل.

ظلت تحقق في وجهه فقال:

- ريتشي بالله عليك...إذا كانت أخبرتك بشيء...أخبرني.

- لماذا؟!

سألته في تحفظ، فنظر لها مستنكراً:

- لماذا؟!!...لكي أطمئن.

رفعت إحدى حاجبيها:

- حقاً.

- ريتشي...ماذا أصابك؟!!

- أرجو ألا يكون أصابني شيء.

ثم زفرت قائلة:

- دينا لم تقل الكثير.... لكنني استنتجت من كلامها أن كل ما

يجري لهم بسبب حفل الخطبة الذي لم يتم.

- هكذا...يبدو أن كل هذا مرتبط بشكل أو بآخر بالفتى المسمى

عمير...فلقد طلب مني جوزيف أن أتولى أمر رسالته بدلاً منه...وهي

المرّة الأولى التي يترك لي أمر طالب من طلابه.

توقف عن الكلام واسترجعت ذاكرته كلمات حاييم....

".... لدينا شكوك في علاقته بهذا الشاب...."

ثم تمته:

- ترى ماذا وراء هذا الشاب؟!

- ماذا قلت عزيزي؟!!

- لا شيء...لا شيء.

وصلا إلى منزلها وما أن دخلا حتى علا صوت رنين الهاتف الخليوي الذي

يحملة ديفيد فالتفتت إليه زوجته بنظرة غاضبة ولم تقل شيئاً بل

صعدت لأعلى ، فاتجه ديفيد لحجرة مكتبه قائلاً وهو يجيب على

الهاتف:

- نعم...حاييم.

- لم تقولها بهذا الضيق؟!

جلس خاف مكتبه قائلاً:

- لا تعطلني... ماذا هناك؟!
- أنت الذي من المفترض أن يخبرني، ماذا فعلت في المشفى؟!
- لا شيء.
- ماذا تقصد بلا شيء؟!... أنت ذهبت لتعرف ماذا يجري.
- لم يحدث أن عرفت أكثر مما تعرفوا... بل إنكم تعرفون أكثر بكثير مما أعرف.
- ماذا يعني هذا الكلام السخيف؟!
- أعني أنكم تعلمون كل شيء فعلاً.... بل إنكم واثقون مما تعرفون.
صمت حاييم قليلاً ثم قال في هدوء:
- أنت تحاول أن تقلب الادوار إذا.... وأصبح أنا في مقعد الجاهل للأمور.
- وهل نجحت؟!
جاءته لحظات صمت قطعتها ضحكه ساخرة كادت تصم أذنه فأزاح الهاتف عنها ثم أعاده صائحاً:
- ماذا تفعل إيها الوغد؟!
قطع حاييم ضحكته قائلاً بلهجه مخيفتة:
- احترس لكلامك ديفيد.... ولا تجعلني أضعك في خانة الاعداء....
لأنك حينها ستندم وقت لن ينفع الندم، وكف عن هذه السخافات
وقل لي ماذا قال لك جوزيف هذا؟!
كتم ديفيد غيظه الشديد قائلاً:
- قلت لك ليس كثير.... فقد طلب مني أن أتولى أمر رسالت عمير...
- ماذا؟!... حقاً طلب منك ذلك.
- نعم.
- ممممم، هذا جيد.... إذن هو يخشى المواجهة.
عقد ديفيد حاجبيه وقبل أن يعبر عن دهشته قال حاييم:
- لا تفكر كثيراً فيما أقول... فلن تصل لشيء... والآن أريدك في الصباح الباكر أن تطلب من أحد الموظفين الاتصال بعمير هذا كي يأتيك لتخبره أنك أصبحت المسئول عن رسالته.
- ولم؟!!

- لأن الوقت يمر ولا داعي للتأخير أكثر من ذلك..كما أن كل الخيوط أصبحت في أيدينا...ولم يعد ينقصنا سوى المواجهة.
- ماذا؟!!

قالها ديفيد في حيرة شديده فقال حاييم:

- ستعرف كل شيء..المهم أن تفعل ما قلت ...وعندما يأتيك هذا الشاب أخبره أن جوزيف أعطاك مسئوليته لقلقه الشديد على ابنته التي ترقد في المشفى بسبب صدمة عصبية شديدة...وحاول أن تقنعه أنها في خطر وأنه السبب في ذلك بشكل أو بآخر.
- ولم كل هذا؟!!

- كي يذهب إلى المشفى في الحال يا عبقرى.

زفر ديفيد في يأس من محاولته استيعابه للأمور، فقال في حنق:
- تبا لك.

تعالى صوت ضحكات حاييم الساخرة وهو يقول:

- سأعتبره مديحاً منك يا ديف ... نوماً هنيئاً.

وضع ديفيد الهاتف وأراح رأسه على كفه مضكراً، كان يحاول استنتاج أي شيء من كلام حاييم لكن كل محاولاته باءت بالفشل.

جلس عمير يهدى أمه التي كانت تبكي منذ رحلت هدى ونبيلتاً فجراً:

- أمي يكفي....وكأننا لن نراهم ثانية...أرجوك اهدائي.

- أشعر أننا مازلنا بحاجة لهما هنا...ما كان يجب أن نسمح لهما بالذهاب.

- لا بأس أمي...أبي عاطف في حاجتها أيضاً وهو أولى بها منا...سنكون بخير.

ضمها لصدره مردداً :

- سنكون بخير.

كان عقله مشغول أيضاً بهذا الاتصال الباكر الذي أطلعه بأمر انتقال رسالته لكتور ديفيد ، وكان عليه الذهاب لاستطلاع الأمر.

.....

الفصل الثالث عشر

- اتجه عمير لمكتب دكتور ديفيد محدثاً نفسه:
- معقول.... هل حقاً أصبح دكتور ديفيد هو المسئول عن رسالتي؟!
"...ولمَ لا أله تكذب على أبيك؟!...."
- كف عن ذلك.... ثم لم يحدث شيء ليبعدني دكتور جوزيف.
".... كف عن ترديد هذا اللقب...هو أبوك...فلقبه بهذا...."
- عقد عمير حاجبيه عند هذه النقطة....
- ترى هل سأستطيع حقاً أن ألقبه بهذا اللقب؟
شعر عمير ببعض الغرابة وهو يتخيل نفسه يقول له لقب ..أبي
...الكلمة التي لم يقولها إلا لعاطف الذي كان يعتبره أباه الوحيد.
وصل عمير لمكتب دكتور ديفيد فطرق الباب بهدوء حتى سمع الاذن
بالدخول، دخل ليجلس أمام دكتور ديفيد الذي استقبله بابتسامه
عريضة لم يبادلها عمير إياها، وبدأ ديفيد الكلام.
- أرجو أن يكون من اتصل بك وضع لك الامر.
أجاب عمير في اقتضاب:
- تقريباً.
- شعر ديفيد ببعض الحرج ولم يفهم أبداً لمَ يكرهه عمير بهذا الشكل
فنظر له قليلاً ثم قال:
- هل وجودك معي يضايقك؟!
لم ينظر له عمير وقال:
- يضايقني!!... ولمَ سيضايقني؟!
- أنا الذي أسألك.
- لا يوجد شيئاً يضايقني.
- حقاً.... أم أن كل هذا لأنني يهودي.
التفت عمير له ليحدد في وجهه فلم يتوقع منه مثل هذا التعليق
لكنه فكر قليلاً ثم قال:
- لا أعتقد أن هذا يسبب مشكله والدليل أن أفضل أصدقاءك مسلم.
أوما برأسه:

- هذا صحيح...
أطرق عمير برأسه ثم قال:
- هل لي أن أسأل سؤال؟!
- تفضل.
- لم ستتولى أمر الاشراف على رسالتي؟
صمت ديفيد وتذكر ما قاله حاييم له...
".... اخبره أن جوزيف أعطاك مسئوليته لقلقه الشديد على ابنته التي
ترقد في المشفى بسبب صدمة عصبية شديدة... وحاول أن تقنعه أنها
في خطر وأنه السبب في ذلك بشكل أو بآخر....".
- في الحقيقة... ليس لسوء بك... كل ما في الامر أنه سيكون
مشغولاً جداً هذه الايام بسبب ابنته.
عقد عمير حاجبيه:
- ريم... ماذا بها؟!
نظر له ديفيد قليلاً:
- غريب... أنت لا تعرف.... ألم تكن ستخطبها منذ أيام؟!
أشاح عمير بوجهه بعيداً وقال:
- بلى.... ولكن... المهم... ماذا بريم؟!
مال ديفيد للأمام قليلاً:
- ألن تتزوجها؟!
قال عمير في ضيق:
- أعتقد أن هذا شأننا وحدنا... وليس لأحد الدخول فيه، أي أحد.
عاد ديفيد للوراء رافعاً كفيه:
- اهدأ.. اهدأ... أنا لا أقصد شيئاً.... المهم أن ريم منذ يوم الخطبة وهي
تتدهور صحياً، وللأسف بالامس تعرضت لأزمة صحية شديدة بعد
عودتها من الجامعة وكانت تحتضر.
قفر عمير من مكانه:
- ماذا قلت؟!!

- هي في المشفى منذ أمس وجوزيف وأمها معها، ولم تمر مرحلة الخطر بعد.... ولهذا طلب مني جوزيف أن أتولى أمرك، ولا أعرف إذا كان في عقله شيئاً آخر من ناحيتك.

اعتدل عمير في وقفته وهو مذهول، فقال ديفيد:

- يمكنك أن تسأله بنفسك...أعتقد أنه لن يخف عليك ما في صدره لأن الأمر يخصك.

نظر له عمير قليلاً ثم استدار مسرعاً ليغادر المكان. وما أن أغلق الباب خلفه حتى أمسك ديفيد بهاتفه الخليوي ليتصل بجاييم:

- لقد جاء الفتى...وتحدثت معه...وأعتقد أنه ذاهب الآن للمشفى.

- هذا جيد.... سنكون مستعدين لهذا اللقاء.

- وما هذا الذي سيستدعي الاستعداد؟

- قد أتصل بك مساءً وسأخبرك.... وداعاً.

زفر ديفيد في ضيق عندما شعر أن ما يخططون له قد اقترب تنفيذه ورغم أنه لا يعرف شيئاً كما أنه عضو فيما يجري إلا أنه شعر بالقلق الشديد على جوزيف.

.....

كان يسير بخطوات سريعة مضطربة...

"....أرعبت ماذا فعلت؟!...ريم تموت...تموت...وأنت السبب...أرعبت ماذا

فعل غباءك؟...لن يسامحك أبوك أبداً...وبعد أن كنت صاحب

حق...أصبحت ملزم بحق...كذبت على أبيك...ولم تخبر ريم

الحقيقة...."

- أنا لم أكن أقصد كل هذا.

"...لكنك أخطأت..ولا بد لهذا الخطأ أن يكون له ثماره التي

ستكون أكثر منه سوءاً...."

- ماذا سأفعل الآن؟ يا الهي ساعدني.

جلست دينا بجانب زوجها وقد وضعت رأسها على كتفه من كثرة

التعب:

- آه... لقد تعبت كثيراً... لمَ لم يخبرنا الطبيب شيئاً عن ريم بعد؟
- أعتقد أنه لو جد شيئاً سيخبرنا.
رفعت رأسها عن كتفه لتحدق في نهاية الممر وقالت:
- ماذا يفعل هذا الشاب هنا... أيريد أن يقتل ابنتي؟!
نظر ياسين إلى حيث تنظر زوجته فرأى عمير يتطلع لهما فعقد حاجبيه
ووقف وقد ارتسم الغضب على وجهه فأمسكت دينا بذراعه:
- ليس هنا يوسف... دعه يذهب لكن دون مشاكل... أرجوك ابنتنا
مريضة.
تحرك نحوه وهو يقول:
- لا تقلقي... لن أقتله.
ما أن اقترب من عمير حتى أمسك بذراعه وأخذ يجذبه بقوة لخارج
المشفى... كان عمير يسير معه في استسلام لكنه لم يتوقف عن
محاولة اقنعه بعدم جذبه هكذا... شعر بالقلق الشديد.. ترى هل
أخبرته ريم بالأمر... هل يعلم أن ما هي فيه بسببه... ماذا ينوي أن يقل
له؟!
أصبحت خارج المشفى فدفعه بقوة أكبر وهو يتركه ثم قال:
- إياك أن تدخل هذا المشفى مرة أخرى... أو أن تحاول الاتصال بابنتي
بأي حال من الأحوال... يكفي ما فعلت.
عقد عمير حاجبيه، يبدو أن ريم لم تخبره... لا يبدو أنه يعرف
حقيقته، حاول التماسك قائلاً:
- أنا لم أقصد أن أؤذيها أبداً... صدقني.
- كفاك... أنا لا أعرف لمَ تفعل كل هذا أو لمصلحة من؟! فأنا لم
أخطيء في حقك ولا ابنتي... وإن كنت تعتبر أن ما حدث في الماضي
خطأ مني في حق أمك وأخاك فابنتي لا ذنب لها... واخبر رجاء أنه إذا
كانت تريدك أن تترك ابنتي لأنها أحبتك كتصفية لحساب
قديم... فاعلم أن الله سيعوضها خيراً منك... كما عوضني خيراً
منها.

ذهل عمير لكلماته التي ألمته كثيراً والتي قالها ياسين واستدار
ليعود للمشى فأوقفه عمير بقوله:
- ألم تكن تريد أن ترى أبك؟!
تسمر ياسين مكانه وقد تسارعت دقات قلبه....
"..ابني...."
اقترب منه ورفع له بطاقة صغيرة:
- هذه بطاقته لم لا تنظر فيها؟!
التفت له ياسين ورغم ضيقه الشديد... لكنه لم يستطع أن يمنع رغبته
الشديدة في رؤية ابنه الوحيد... حتى ولو كان متوفٍ. مد يده ببطء
ليمسك البطاقة وتعلقت عينيه بالصورة في لهفة واضحة ولكن ما أن
نظر للصورة حتى عقد حاجبيه:
- أتريد أن تلعب بأعصابي؟... هذه صورتك أنت.
قال عمير بلسان مضطرب:
- انظر للاسم جيداً دكتور جوزيف... انظر للاسم كله.
عاد ياسين ينظر في البطاقة ليقراً الاسم ثم اتسعت عيناه في ذهول
وأخذ ينقلها بين عمير والبطاقة وبدأ يستوعب الأمر فارتجفت عضلات
وجهه وارتسمت عليها علامات الذهول وهو يقول:
- أنت.... أنت.
ثم قال في غضب:
- ...كيف؟! ..كيف؟! ألم تخبرني؟!...أأأ...!!
حشرت الحروف في حلقه، فلم يكن يتصور أبداً أن يخدع بهذه
الطريقة، كيف أستطاع خداعه.. بل لماذا؟!... لماذا فعل به
هذا؟!... هل هو ينتقم منه فحسب... ولكن مهلاً... وريه... هل كان
ينتقم منها هي الأخرى... تراكمت الأفكار في رأسه.. وكلها لم تكن
لصالح عمير.. الذي كان يقف ناظراً لأباه مترقباً لردة فعله.
زادت ملامح الغضب على وجه ياسين وهو يصيح:

- أيها الكاذب..المخادعالان فهمت كل شيء..أيها الحقيير....
الندل..... كيف تجرؤ؟!..... تجعل ابنتي تحبك وأنت تعلم جيداً أنها
اختك...أهذا ما خططت له مع رجاء للانتقام مني.
شعق عمير في ذهول وهو يسمع هذا الكلام وظل يردد:
- لا...لا...أنت مخطيء...لا...لا.

أردف ياسين وكأنه لم يستمع له:

- تقطعان كل هذه المسافة إلى هنا لتدمراني تأتيني كطالب
عادي.... وتتعرف على ابنتي... ثم...ثم.....أنا لا استطع أن
انطقها....وبئالاه من مسلسل رائع الذي قمتم به يوم الخطبة.... ثم
تكذب علي لتزيد من ألمي وحسرتي على ابني الذي مات دون أن
أراه....معقول...هل هناك مثل هذه القلوب القاسية؟!....أيها السافل
الوضيع....

صاح عمير:

- لا....كفى أنا لست كذلك...كل ما تقوله ليس صحيح.
- اخرس.

قالها ياسين وهو يرفع كفه وأراد أن ينهال به على وجه عمير لكنه
توقف في منتصف الطريق ليضم قبضته إليه قائلاً:
- لا أنت لا تستحق...لن أدنس يدي وألمس وجهك.... والاولى لك أن
تغادر البلاد.... لا أريد أن أرى وجهك أبداً.

ثم استدار عائداً للمشفى وعمير يحدق فيه بذهول، كان قلبه يعتصر
ألماً...لقد توقع أسوأ السيناريوهات لهذا اللقاء...لكن ما حدث...أبشع
من أن يتبادر إلى ذهنه.... كيف يظنه بهذا الاخلاق؟!...كيف يفسر
الأمور بتلك الطريقة الغريبة؟!...لم يعرف كيف استطاع أن يحرك
قدميه ليبتعد عن المكان.... لا فائدة...يبداً وأن الالم والحزن
سيصاحبانه لفترة طويلة...طويلة جداً.

وفي غياب كلاهما وقف شخص يمسك بكاميرا فوتوغرافية
حديثاً...يراجع الصور التي أخذها لهما وابتسم أمام الصورة التي كان
سيضرب فيها ياسين وجه عمير ثم اتسعت ابتسامته سخرية على شفثيه.

.....

جلس عمير على الارىكة وما زال الذهول ساكن وجهه اقتربت منه أمه
وقد لاحظت تغير وجهه:

- عمير...ماذا بك يا ولدي؟!...

رفع عمير عيناه إليها، فرفعت حاجباها في تأثر عندما رأتها مليئتان
بالدموع فجلست بجانبه وضعت يدها على كتفه:

- ماذا حدث يا عمير...أين كنت؟!..ألم تذهب إلى الجامعه؟!؟

قال دون أن ينظر لها:

- حقيير...سافل... وضيع.

قالت في دهشة:

- من هذا الذي تتحدث عنه بهذا الشكل؟!؟

قال في ألم:

- أنا.

شهقت رجاء:

- لا..ما هذا الذي تقول؟!...أنت أبعد ما تكون عن هذه الصفات.

هز رأسه:

- لكنه يراني هكذا...ما تصورت أبداً أن ينعتني أحد بهذه

الصفات...فما بالك عندما يقولها هو؟!؟

- عمن تتحدث؟!...أياً كان فهو لا يعرف شيئاً عنك... لا يعرف شيئاً

على الاطلاق.

- بل يعرف... لقد كذبت عليه...فهو يراني كاذب.

عقدت رجاء حاجبيها:

- من هو هذا ؟؟ ولم كذبت عليه؟!؟

أطبق جفنيه فقفزت العبرات منها وكأنها تجد الحرية التي كانت

تبحث عنها في عينيه فلم يشعر إلا وهو يميل لينام على صدر أمه

ويبيكي.... ضمته أمه إليها وقد تمزق قلبها عليه..هي تعلم أن كل هذا بسبب ماضيها الكئيب...ماذا يمكنها أن تفعل لتمحي كل شيء من رأس ابنها.
قال بكلمات متقطعه:
- أعلم أنني أخطأت عندما لم أخبره بحقيقتي من البداية، لكن لم استطع أن أمنع نفسي ، كنت أريد أن أرى ردت فعله لكني لم أتصور أبداً أن تتطور الامور بهذا الشكل.
- أمك لا تفهم شيئاً يا عمير.
رفع رأسه عن صدرها ليقص لها ماذا حدث منذ أن إلتقى بياسين بعد أن عرف أنه أبوه.
هزت رجاء رأسها في ذهول:
- معقول كيف تكذب مثل تلك الكذبة؟ كيف يمكنك فعل ذلك عمير...هل تعلم كم هذا مؤلم؟!...لا أصدق... ولكن كيف يتصور أننا جننا لنتقم منه؟ كيف يفكر بنا بتلك الطريقة... وكأنه لا يعرفني أبداً.
- يبد وأنه قرر ألا يعرفني أيضاً...لقد صرخ بوجهي أن أغادر البلاد.
عقدت رجاء حاجبيها:
- "ماذا أصابك ياسين ..منذ متى أصبحت بتلك القسوة؟"
أردف عمير بصوتٍ حطه ما تبقى من قلب امه.
- ريم...كادت أن تموت بسببي..... وهو يراني بأبشع الصور...طالما تخيلت اليوم الذي سأرى فيه أبي لأقول له أنا ابنك.... فإذا به ينعطني بأبشع الصفات... كنت أراني صاحب حق أما الان فأصبحت ظالم لنفسي ولغيري.
- اهدأ يا بني.... ستصبح الامور أفضل لا تقلق.
- كيف يا أمي...إنه لا يريد أن يرى وجهي مرة أخرى.
ضمته إليها مرة أخرى وهي تقول:
- هو الخاسر.... من ذا الذي يكون لديه فتى مثلك ويتنازل عنه بسهولة؟

- إنه لا يراني هكذا.

صمتت رجاء وأبقت ابنها في دفء حضنها وهي تمسح على رأسه في

حنان، فأردف قائلاً:

- وكمر أردت أن أطمئن على ريم... لكنه لم يسمح لي بأي شيء... أريد

أن أراها... أريدها أن تسمعني... لا أريدها أن تسمع منه.

- هو لن يقل لها شيء.

رفع رأسه إليها:

- حقاً؟!

- أظن أنني ما زلت أعرف كيف يفكر ياسين... رغم أنني مندهشة أنه

فكر فيك وفي بهذا الشكل... ولكن يمكن أن أعيد هذا إلى حالته

النفسية بسبب قلقه على ابنته، كما أنك كذبت عليه وهذا ألومك

عليه كثيراً يا ولدي، المهم أن مما قلت فريم تعاني بسببك بشكل أو

بآخر وأنا لا أظن أن ياسين سيجعل هم ابنته همين بأن يخبرها بظنونه

هذه.

- أرجوا ذلك يا أمي... أرجو ذلك.

.....

جلس ياسين بجانب زوجته ولم يستطع أن يمنع ارتجاف جسده بالكامل

من شدة الغضب الذي امتلكه تماماً... كان عقله يحاول انكار كل

ما حدث... كيف كان أحرق لتلك الدرجة؟... كيف لم ينتبه لقرب

سن عمير من الخامسة والعشرين؟... وكيف لم ينتبه عندما أخبره أن

اباه طلق أمه منذ زمن ولم يعد له دور في حياته؟... نعم هكذا قالها.. لم

يعد له دور في حياته، كيف كان أعمى لهذا الحد... كيف؟!!

أمسكت زوجته بكفاه لتضغط عليهما:

- اهدأ يا يوسف بالله عليك... ماذا حدث؟! أنت على مدار نصف

ساعة وأنت هكذا ولا ترد علي... ماذا قال لك هذا الفتى أغضبك

بهذا الشكل؟!!

أغلق ياسين عيناه وأخذ نفساً عميقاً كمحاولة لاستعادة هدوءه،

فسألته زوجته:

- ماذا حدث يوسف؟!
سمعته يقول بصوت مرتجف:
- عمير... عمير.
سألت في دهشه:
- ماذا به؟!
هز رأسه في أسي:
- إنه....ابني.
فغرت دينا فاها:
- ماذا قلت؟!
ردد في حنق:
- عمير..ابني...ابني.
- مستحيل...مستحيل...كيف هذا؟!..ألم يخبرك أن
- كذب علي...
قاطعها ياسين في غضب، فقالت في دهشه أكبر:
- معقول...لماذا؟!...لماذا يكذب في شيء كهذا؟!... يا الهي...هذا
يضر ما أصاب ابنتنا... هي عرفت بالتأكيد...ولم تحتمل الأمر.. يا
الهي.. من بين كل شباب العالم تلتقي ريم بأخيها ..و...و....حمداً لله
أن رجاء كانت هنا والا لكانت حدثت كارثة لنا جميعاً، المسكين
كان يتألم مثلها تماماً بل أكثر منها، لقد عرف أنها اخته ولم يستطع
أن يخبرها.
نظر لها:
- هل تتصورين أن هذه هي حقيقة الأمر؟!
- ماذا تقصد؟!
- لقد كذب علي...كان يعرف أنه ابني ومع ذلك تقرب لابنتي....
وكل هذا لينتقم مني... وأنا الذي ظننت أنه أخبرني عن أخيه
لينتقم....لكم كنت طيب حينها..ولم أتصور أبداً أن يكون انتقامه
أبشع من هذا وأمر.
- عمن تتحدث؟!
-

- نظر لها مستنكراً؛
- عمن؟..عن عمير..طبعاً؟!
حدقت في وجهه لحظات وقالت:
- مستحيل لا يمكن أن يفعل ذلك؟!
قال وهو ينظر لها في دهشة:
- وهل تعرفيه لتقرري؟!
- نعم أعرفه.
اعتدل محققاً في وجهها:
- وكيف لك أن تعرفيه؟!
- من خلال ريم...وخلالك...لكم كنت تمدح أخلاقه... وتفوقه...
ودينه... كيف... كيف؟!...
قاطعها بجدّه:
- لقد خدعنا...خدعنا جميعاً.
لوحث بكفها:
- لا أصدق..... لو سمعت ريم وهي تتحدث عنه...ما قلت هذا الكلام،
إنه شاب مثالي بكل المقاييس.
- وهل يكذب المثاليون؟!
- إنه بشر...وليس كامل.. ولكل انسان هفواته، ويجب أن تعذره..ففي
يوماً وليلتاً سرت له أب وهو لم يكن يفكر في ذلك على الاطلاق، بل
وكاد أن يتزوج أخته لولا أن شاء الله لنا السلامة، شخصاً في مكانه
كان يمكن أن يتصرف بتهور أكبر، أما هو....
قاطعها ثانيةً:
- لم تدافعين عنه؟!
نظرت له نظرة حانية وهي تقول:
- لأنه ابنك.
شعرياسين وكأنه يسمعها لأول مرة:
- ابني...
- نعم ابنك وأخ لابنتي.....ومن ينبج ريم...لا ينبج إلا عمير.

ثم نظرت له قليلاً وأردفت:

- هل تفهمني؟

شرد ياسين مفكراً، استرجع كل المواقف التي ربطته بعمير.. وكيف كان سعيداً بخطبته لأبنته وكيف كان يراه الشاب المثالي لريم، وملاّت عينه صورة عمير وهو ينظر له بألم وحنن شديدين وبدأ قلبه يأن

"....أيمكن أن أكون ظلمتك فعلاً.... وأن يكون الشيطان لعب برأسي بهذا الشكل...."

- تهانيا الحارة.

التفت للطبيب الذي كان يقف أمامهما محدثاً كلاهما فوقفا وقالت دينا وسألت في لهفة:

- هل أصبحت بخير؟!

- نعم... وهي الآن تتنفس بشكل طبيعي تماماً وسننقلها لحجرة عادية وستبقى تحت ملاحظتنا إلى الغد ثم ستعود معكما للمنزل.
قال ياسين:

- هل يمكن أن نراها دكتور؟!

- بالتأكيد...إذهباً للحجرة رقم ٢٥٥ حيث سننقلها.
- حسناً.

قالها ياسين وأمسك بزوجته واتجها للحجرة التي أشار لها الطبيب وانتظرا هناك حتى جاءت محفاه تحمل ابنتهما ووضعوها على السرير وغادروا المكان أسرع دينا تحتضن رأس ابنتها بينما أمسك ياسين بكفها في حنان ولهفة شديدين، كانت مغمضت العينين ثم بدأت تحركها لتفتح جفناه في وهن ونظرت لهما بعينين نصف مغلقتين قائلة:

- أبي...أمي، ماذا حدث؟!

مسحت أمها على رأسها:

- لا عليك حبيبتي أنت بخير... لا نريدك أن تفكري في أي شيء.
نظر لها ياسين بألم شديد وقد شحب وجهها بسبب ما تعرضت له وبدأ

يشعر أنه السبب فيما يجري لابنته، ولم يستطع أن يقل شيئاً على الاطلاق، أما ريم فاستكانت وكأنها تركز فيما يجري حولها وبدأت تتذكر ما حدث فانتفض جسده فضمتها أمها بقوة:

- ريم... ريم.. أرجوك... قلت لك لا تفكري في شيء... أرجوك يا بنيتي... لا تعيدي الكرة.

ضغط ياسين على كف ابنته قائلاً:

- ماذا نفعل عندما نبتلئ يا ريم؟!

نظرت له قليلاً ثم قالت:

- نصبر ونحتسب...

- اصبري واحتسبي إذاً.

- أبي...

- لا تقولي شيئاً الان يا ريم... أعدك وهذا وعدٌ مني... سنتحدث في

كل شيء... ولكن بعد أن تخرجي من هنا ليس الان.. أنت لا زلت مريضة.

دخلت ممرضة تحمل بعض الطعام فاخذته دينا:

- سأطعمها أنا.

أعطتها الممرضة الطعام وابتسمت لها:

- حسناً.. واذا احتجتني أي شيء... اضغطي على هذا الزر.

أومأت برأسها وساعد ياسين ابنته على الاعتدال قائلاً:

- الان.. يجب أن تأكلي.. كي تخرجي من هنا سريعاً... كي أفي بوعدتي لك.

ظلت ريم تحديق في وجهه بينما أمها تضع الطعام في فمها، فاستدار

ياسين ليقف عند النافذة مفكراً في كل ما حدث... وما يمكن... أن يحدث.

يحدث.

.....

حملت رجاء حقيبتها الشخصية وخرجت من حجرتها إلى الردهة التي

يجلس بها عمير في همٍ وحزنٍ شديدين، فلما رآها وقف قائلاً:

- إلى أين أنتِ ذاهبة أمي؟!

- لا تقلق.. لن أعب طويلاً... فالشمس قاربت على المغيب... وسأذهب وأعود قبل أن تغيب.
- نعم.. ولكن إلى أين أنتِ ذاهبة؟! صمتت قليلاً ثم قالت:
- لأطمئن على ريم.
- ماذا؟! ..
- نعم... أليست أختك؟!.. إذن هي ابنتي... ويجب أن أطمئن عليها.. أم تري... قاطعها وهو يقترب منها:
- لا أمي... لا تذهبي.
- عقدت حاجبيها:
- لماذا؟! لا تقلق علي لن يفعل لي شيء.
- لا أمي... إنه قاس... قاس جداً. سيجرحك أمي... سيجرحك.
- لا بني... أباك ليس قاسياً... لم يكن كذلك عندما عرفته وإذا كان الآن يبدي قسوة أحياناً فأنا واثقه أنها ليست لطبيعتاً فيه وإنما ذلك بسبب ما فعلته له يوماً، لكنه لن يجرحني صدقني.
- أطرق عمير برأسه:
- بل سيفعل.
- ألهده الدرجة كان قاس معك؟! رفع رأسه قائلاً:
- نعم وإذا أساء لكِ يا أمي... سو....
- لا تكمل ولا تتحدث عن أبيك بهذا الشكل... هو أبيك لا تنس ذلك. والآن لا تأخرنى... أريد أن أعود قبل المغيب.

.....

الفصل الرابع عشر

- خطا ياسين خارج حجرة ريم وزوجته خلفه وقال:
- ما سر اصرارك علي أن أغادر؟! ..

- لا يوجد سر يا عزيزي...سوى حبي الشديد لك وحرصى عليك...
عد للمنزل لتنام وترتاح وتعالى لنا غداً لنغادر جميعاً في الظهيرة ،
فريم أصبحت بخير وأنا سألقي معها فلا داعي بأن ترهق نفسك بالبقاء،
حتى أنا نمت وأنا جالسة ولكنك لم تنم منذ أمس...إن لبدنك
عليك حق، فاستمع لي وعد للمنزل وتعال لنا في الصباح ولا تتأخر
علينا.

صمت مفكراً ثم هز رأسه في استسلام:

- حسناً...ومن يستطيع أن يعصي لك أمراً.

ضحكت من قلبها:

- جيد.... هيا اذهب....ولا تفكر في أي شيء..فقط....نم.

- حسناً.

ترك زوجته لتعود لريم وأخذ هو طريقه للخارج وبينما يسير في ممر
المشفى وقبل أن يضع يده على زر المصعد خيل له وكأنه مر بجانب
شخص ينظر له فالتفت ثم عقد حاجبيه في ضيق ودهشة عندما رأى
رجاء تقف ناظرة له، بقى مكانه ... وشعر بقلبه ينتفض بين ضلوعه،
لطالما كان ينتفض لمرءاها....لكنه يشعر الآن بأن هناك
اختلاف...نعم...هو لم يعد يحبها كما كان...هو غاضب...غاضب
منها...لأنها حرمتها احساس لم يشعر به مرة أخرى مع أي امرأة ولا حتى
زوجته دينا...نعم حبه لها لم يكن كأي حب شعر به في
حياته....كانت رؤيتها تملأ قلبه بالسعادة...ابتساماتها تضيء له
الدنيا....شعور كان أحياناً يعجز عن وصفه...كيف تصف قلب يحلق
في سماء الحب الصافية بمجرد رؤية المحبوبة...حتى لمساته لها...وان
لم تكن متبادلة منها...إلا أنه كان كمن ملك الدنيا بحاذقها
...عض على أسنانه...ما هذا الذي يفكر فيه!!؟...

تأملته رجاء وهي تحدث نفسها:

"يااه ياسين...ها قد التقينا ثانية...لقد كبرت....ولكن وجهك

مازال محتفظ بوسامته وعيناك ما زالت محتفظة بلعانها....لكنها

كانت تلمع أكثر عندما تقع علي...ولكن هذا كان في الماضي...
قبل أن أحطمك وأحطم حياتي بيدي....ليتني عرفت كيف أحبك
كما أحببتني...ليتني لم أسمح لك بالمغادرة...ربما لو كنت جئتك
بنفسي والقيت بنفسي بين قدميك لكنت سامحتني...من الجيد أنك
نجحت..واستطعت الاستمرار في حياتك...سأتمنى لك التوفيق دائماً
ياسين"

نفساً عميقاً أدخلته رثتها قبل أن تقترب منه قائلة:

- كيف حالك ياسين؟!

لم يجبها فأردفت:

- وكيف حال ريم؟!

- ما هذا الحرص؟...جئتني بنفسك لتتأكد من نتائج مخططك مع
ابنك.

قالها في جفاء... عقدت حاجبها لتقول:

- ابني هو ابنك..وليست رجاء التي تربت معك يوماً وكانت لك
زوجة بالتي تخطط بهذا الاسلوب لتجرح الآخرين.

مط شفثيه قائلاً في سخرية:

- حقاً... ياللبراءة.

كان بالفعل يسخر...وهو يردد في نفسه "وماذا عن الجرح الذي سببتيه
لي....واحتجت سنوات كي أتناسها؟!"

ابتسمت رجاء في هدوء:

- أتسخر مني؟.... قال لي عمير أنك أصبحت قاسياً وأنت ستجرحني
لكني لم أصدق....لأنك لم تكن قاسياً أبداً.

- الفضل في هذا يعود لك.

خفضت بصرها :

- لقد ظلمت ابنك عندما لم تهتم بما قاله عاطف لك، فلا تظلمه
الان بمثل هذا الاتهام البشع..كلانا أخطأ ياسين...فلم يجب أن يدفع

ابننا الثمن؟...يكفي ما دفعه منذ مولده إلي الآن.

حدق بها بغضب:

- لقد كذب علي...كان يعرف من أنا؟!
قالت مدافعه:
- نعم...هو أخطأ واعترف بخطأه لي....لكنه لم يكن يعرفك من قبل...أنا لم أكن أحدثه عنك.
عقد حاجبيه وما زال الغضب يغلفهما فأردفت:
- أقصد...كنت أخشى أن أحكي له عنك....كي..لا يكرهني...
لكني دوماً كنت أقول له... لو كان أبوك معنا... لاقتخر بك كثيراً.
- لم يعلق بشيء فقط أشاح بوجهه بعيداً، مطت شفيتها:
- لقد جئت لأطمئن على أخت ابني.
- هي بخير..وستكون بخير...وليست بحاجة لأياً منكما، والان عذراً .
أراد أن يتركها ويغادر فأوقفته:
- معي شيء أريد أن أعطيك إياه.
لم يعلق فدست يدها في حقيبتها وأخرجت ورقة مطوية ومدتها له وهي تقول:
- كنت أقرأ هذه الكلمات لأعاقب نفسي على ذنب ارتكبته في الماضي وندمت عليه كثيراً، أما الان فيكفي العقاب الذي أناله من نظرة ابني الحزينتة وقلبه المجرع .
أمسك ياسين الورقه فاستدارت هي لتغادر المكان بينما اتسعت عينا ياسين وهي يقرأ الخطاب الذي كان أرسله لها كرد على طلبها بالعودة إليه.
-
- دخلت رجاء بيتها وتناهى إلى أذنها صوت عمير:
- نعم... أريد حجز مقعدين...ألا يوجد أقرب من ذلك...لا بأس....
مساء غداً... حسناً هذا جيد..أشكرك كثيراً.
- ما هذا الذي تفعل؟!
التفت لأمه وهو يضع سماعة الهاتف:
- أمي لقد عدتي..ماذا حدث؟!...هل رأيتي ريم؟!
.....

- لم تجبه أمه بل وضعت حقيبتها قائلته:
- أكنت تحجز للسفر؟!
- نعم..أمي.
- وكيف تفعل شيئاً كهذا دون الرجوع لي؟!
- لقد جئنا هنا..لأتمام دراستي..والان أنا أريد أن أتمها في موطني...أهناك مشكلة؟!
- حقاً... أهذا هو السبب؟!
أطرق برأسه فأردفت في غضب:
- تريد أن تهرب.
- أنا لا اهرب.
- بل تهرب...تهرب وستترك أباك يضع في رأسه كل كلمة اتهمك بها.
- أنا لا أب لي...
- ماذا قلت؟!
- ليس لي غير أباً واحد..هو أبي عاطف، أما هذا الرجل الذي تتحدثين عنه فهو لا يريدني وأنا لا أريده...
- كيف تتحدث هكذا...
قاطعها وهو يتشبث بذراعها:
- أمي اسمعني، لقد عاش حياة طويلة مع زوجة وابنة وهو يرانا الان شخصان يريدان أن يقلبا حياته رأساً على عقب، ويحولان سعادته إلى جحيم ، وأنا أيضاً أمي..دخوله في حياتي سيغير فيها الكثير...لذا الحل الامثل أن يعود الوضع كما هو عليه... سنعود نحن لموطننا وللعائلة التي هي كل شيء بالنسبة لنا وسنتركه هو مع عائلته التي هي أيضاً كل شيء بالنسبة له .
- وماذا عن ريم؟!...أختك.
- هي أيضاً ليست بحاجة لي...ولن تنس أبداً كلما رأته أنها أحببتي كشاب أجنبي عنها وكاد أن يتزوجها... صدقيني يا أمي الابتعاد هو الحل الامثل. كما أنني لست على استعداد لأقف أمامه مرة أخرى

ليسبني بأشع السباب ويقدفني بأفزع الاتهامات...التي تنهال علي
كسياط تمزق جسدي.

- ولهذا يجب أن تبقى...لتثبت له خطئه الفاحش في حقك.

- وما الفائدة أمة؟...ولماذا أهتم من الاساس؟...فإلى الان لم أشعر أبداً

أنه أبي ولم يميل له قلبي، وإذا كان يريد أن يبقى هكذا فليبق هو،

وحده سيتألم لأنني لا أحمل أي صفة من الصفات التي نعتني بها.

- ولكن...

اقترب منها وضمها إلى صدره:

- أمة...كنت دوماً لي الام والاب والاخت والاخ بل والصديق الوفي، أنا

لست بحاجة له، فلنبقى نحن معاً كما اعتدنا ولنتركه هو معهم كما

اعتاد.

اعتدل لينظر لها:

- السفر بعد غد يا أمة إن شاء الله، فالأفضل أن نستعد من الان.

نظرت له الام بعين يملؤها الالم:

- ودراستك...وتفوقك العلمي.

ابتسم في حزن:

- تتحدثين وكأنه لا علم إلا في هذه البلد...سأعود لأكمل رسالتي

تلك بمصر...ولكني سأحاول السفر للولايات المتحدة لتحضير

الدكتوراة...وبهذا لن أخسر الكثير...لا تقلقي أمة..العلم موجود

في كل مكان.

شعرت بالعجز أمامه...فالاصرار كان مرسوم على وجهه:

- كما تريد يا بني...هي حياتك..ومن حقك أن تخترها كيفما

تشاء...يكفي ما فعلناه نحن بك...عندما اخترنا لك ونحن نفكر في

انفسنا.

.....

أمسك ديفيد بالهاتف الخليوي مترقباً إتصال حاييم الذي ظل في

انتظاره ساعات طويلة حتى أن الساعة قاربت على منتصف الليل، كما

أنه حاول الاتصال به لكنه لم يجبه أبداً وفجأة علا رنين الهاتف

- فانتفض ديفيد في فزع مما أسقط الهاتف من يديه فأسرع يمسك به
ليجب:
- نعم.. أنا ديفيد.
- أعلم... أنك ديفيد... أليس لديك معلومة جديدة تفلها بدل من
اسمك هذا؟!
- كف عن السخرية يا حاييم... وقل لي ماذا لديك؟!
- لدي أنا... بل ماذا لديك أنت؟! ألم يعد الفتى إلى الجامعة؟!
- حاييم.. أنت تعلم جيداً.. أنه لم يعد ، فكف عن المحاورات الفارغة
وتكلم.
- بدأت تفهم... نعم هو لم يعد بل ذهب لمنزله مباشرة وبعد فترة نزلت
أمه وذهبت للمشفى والتقت بجوزيف ثم عادت وكذلك غادر جوزيف
المشفى وذهب لمنزله.
ثم ضحك في سخرية:
- مسكين هذا الرجل... حظه العاثر هو الذي أسقطه في أيدينا.
عقد ديفيد حاجبيه:
- ماذا ستفعلون بالضبط؟!
- لا تقلق يا عزيزي أخبرتك أننا عزفنا منذ زمن عن اللجوء للعنف
إلا عند الضرورة.
زفر ديفيد في ضيق:
- ماذا ستفعلون إذا؟!
- لا شيء... فقط غداً صندوق أول مسمار في نعش سمعت دكتور جوزيف،
وستترك للجماهير الباقي.
- سمعته...
قالها ديفيد في ذهول ثم انفجر ضاحكاً:
- سمعته.... يا الهي لم أضحك هكذا منذ مدة... هل هذه هي
وسائلكم المبدعة ستنالون من سمعته!..
- أصمت أيها الغبي.
قالها حاييم في غضب، فصاح ديفيد:

- إياك أن تسبني.
- وأياك أن تضحك وأنا أكلمك.
أخذ ديفيد نفساً عميقاً ليتمالك نفسه فقال حاييم:
- لا تتصور أننا سننال من سمعته بالطريقة التقليدية الغبية التي
يستخدمها البعض... لا، نحن لسنا بهذا الغباء... بل سننال منه بحقائق
لا يستطيع أن ينكرها. لقد تم اختياركما ليس فقط لكفائتكما في
العمل، بل ولخلقكما القويم... فكلكما لا يشوبه شائبة في خلقه
الانساني... ولكن هذا لن يدوم لدكتور جوزيف مما سيقبل من فرصته
أمامك... أفهمت؟!
صمت ديفيد قليلاً ثم قال:
- لكن لا يوجد في حياة جوزيف شيء يمس سمعته أو أخلاقه
الانسانية.
- دع هذا الأمر لنا، وستعرف الأخبار فاحجز نسختك من الآن.. فصحف
الصباح ستحوي الكثير من المفاجآت.
- صحف.... ستنشرون الأمر في الصحف.
- نعم.. يجب أن يأخذ الشكل الطبيعي له..حتى لا يظن أحد أننا وراء
ما يحدث... والآن سأتركك وكما قلت لك.. احجز نسختك فغداً
يوماً قاسي على صديقك...أمر آخر... حاول أن تكون بجانبه..أأست
صديقه؟!...ويا لك من صديق.
ثم عاد يضحك ضحكته الساخرة المعتادة التي دائماً تصم أذن
ديفيد.

.....

- جلس ياسين على مائدة الافطار وحده بينما وقفت بجانبه مدبرة
المنزل قائلة:
- أسفرت..دكتور...لقد أكدت علي السيدة دينا أن أتأكد أنك تناولت
افطارك قبل أن تذهب إليهما.
ابتسم ياسين:

- حسناً...فهمت...سأتناول الافطار ولا داعي لبقاءك بجانبى أين
صحف اليوم؟

- سأحضرها حالاً سيدي.

أسرعت للخارج وما أن رأت حارس المنزل قادم وهو يحمل الصحف وينظر
لها ذاهلاً حتى أشارت إليه:

- تعال..... لم تأخرت؟!

لكنه وقف مكانه وأشار لها بالاقتراب فجاءته مندهشه:

- ماذا بك؟!...دكتور جوزيف في انتظار الصحف.

هز الحارس رأسه:

- أعلم...لكنك لن تعطها له.

عقدت حاجبيها:

- لماذا؟!

- سأخبرك بعد أن يذهب...فقط اذهبي إليه الان وأخبريه أنني تأخرت..
ودعيه يغادر.

- حسناً...رغم أنني لم أفهم شيئاً.

عادت مدبرة المنزل:

- أسفرت سيدي...يبدو أنه سيتأخر....أعتقد أنه من الافضل أن تلحق
بالسيدة دينا كي لا تكون وحدها.

- معك حق.... لا داعي للتأخر أكثر من ذلك.

غادر مسرعاً ليركب سيارته منطلقاً بها إلى زوجته وابنته ليعود بهما
إلى المنزل. أسرعت المدبرة للحارس:

- الان اخبرني لم أردت أن تخفي الصحف عن الدكتور؟

لم يجيبها بل فتح لها الصفحة الاولى لتقرأ ما كتب فيها، فشهقت في
فرع وعيناها تلتهم ما كتب في الصفحة الاولى ورددت في ذهول:

- مستحيل....هذا مستحيل.

دخل ياسين المشفى متجهاً للمصعد لكنه توقف بعد أن شعر أن
موظفوا الاستقبال يحدقون فيه فالتفت لهم فأربكهم فأشاح بعضهم

بوجوههم بعيداً والبعض الآخر شغل نفسه في لا شيء فعقد حاجبيه ثم مط شفتيه وعاد لطريقه ليركب المصعد وخرج منه وزادت دهشته حيث شعر أن كثير ممن يعملون بالمشفى يحدقون فيه وإذا ما نظر لهم أشاحوا بوجوههم بعيداً، مما أشعره بالقلق على عائلته فأسرع أكثر ليطرق الباب ويدخل فرأى ابنته جالسة على فراشها وبجانبها أمها التي التفتت له:

- ها قد عاد أبوك.. هذا جيد... سيقوم الطبيب ببعض الفحوصات الأخرى ثم يغادر في الحال.

التفتت ريم لتنظر لأبيها وقد استعادت الكثير من عافيتها لكنه ظل يحدق فيهما فسألته:

- ماذا بك يا أبي... هل ترانا للمرة الأولى؟! انتبه لها قائلاً:

- ماذا؟! لا يا عزيزتي.. كل ما هناك أنني... لا يهم.. كيف حالك اليوم؟!

أجابت أمها:

- الحمد لله بخير... وسنعود جميعاً للمنزل... كم أفقد منزلي وفراشي. ابتسمت ريم:

- وأنا أيضاً يا أمي.

ضمتها أمها لصدرها:

- سنعود قريباً جداً.

ظل ياسين يقف بجانب الباب شاردًا...

"... كلاهما بخير... لمَ إذاً ينظر لي العاملين هكذا.. أنا لا أفهم...."

التفت للباب وفتحه مرة أخرى ليجد خلفه الطبيب المعالج ممسك بجريدة ومعه أحد الممرضيين يتحدثان بهمس وما أن شعرا بالباب حتى التفتا في ارتباك وقال الطبيب:

- دكتور جوزيف أنت هنا.

- نعم.

أجابه ياسين في شك:

- هل يوجد شيء تريد أن تخبرني إياه؟!
صمت الطبيب قليلاً ثم أمسك بيد ياسين ليبعده عن الحجرة وأغلق الباب جيداً وبعد أن ابتعدا بمسافة مناسبة رأى ياسين الكثير من العاملين يتابعونه مما دفعه ليقول في عصبية:
- ماذا أصاب العاملين بهذا المشفى؟...هل أصبحت فجأة نجم سينمائي؟!
- شيئاً من هذا القبيل دكتور.
- ماذا تقصد؟!
تردد الطبيب قليلاً ثم قال:
- في الحقيقة..دكتور...يبدو أنك لا تعرف بالامر.. والافضل أن تعرفه..لتفكر كيف ستحمي ريم منه لأنها يجب أن تكون بعيدة عن أي ضغط عصبي.
- تحدث مباشرة... أرجوك.
رفع الطبيب الجريدة له فأمسك بها وعقد حاجبيه عندما رأى صورة له ولعمير- يبدو فيها وكأنه يهيم بصفع الأخير على وجهه - تتوسط مقال كبير في الصفحة الاولى وما أن قرأ عنوانها حتى كادا حاجباه أن يلتقيا وارتجفت شفتاه وانقبضت عضلات وجهه وهو يقرأ ما سطر في المقال فقال الطبيب:
- يجب أن تفكر بهدوء دكتور جوزيف... لتعرف ماذا ستقول لريم بعد أن عرف الجميع حقيقة الامر؟!
رفع ياسين عيناه إليه وصاح:
- حقيقة..هذه ليست حقيقة..
- حسناً أنا أسف دكتور جوزيف..صدقني الامر لا يعنيني في شيء كل ما يعنيني هي مريضتي ريم.
- ماذا يجري هنا؟!
التفتا لدينا التي اقتربت منهما فاستأذن الطبيب بعد أن ربت على كتف ياسين فاقتربت زوجته منه أكثر ورأت وجهه فقلقت:
- ماذا هناك؟ هل قال لك شيئاً عن ريم؟
هز رأسه نافياً ثم قال في حنق غاضب:

- كنتِ تدافعين عنه؟!
- عمن تتحدث؟!
- عن عمير.
- ماذا فعل؟!
رفع لها الجريدة قائلاً وقد وصل غضبه للذروة:
- اقرأ هذا جيداً.... وابحثي له عن مبرر واطلعيني عليه عندما أعود.
أمسكت به:
- إلى أين أنت ذاهب؟!
التفت لها:
- سأعود... شيئاً آخر... لا تدخل بالـجريدة على ريم ولا تحدثيها في أي شيء.. فقط قل لي لها أنني سأعود بسرعة لنغادر وإياك أن تسمحني بمرور هذه الجريدة لحجرة ابنتي.
ثم تركها فنادت عليه فلم يجبه فطالعت الجريدة وأصابها ما أصاب الجميع من ذهول:
- مستحيل... لم فعل ذلك؟!... هناك خطأ ما حتماً!!!
.....
خرجت رجاء من المطبخ تحمل الافطار ووضعت أمام ابنتها الشارد وقالت:
- كفاك تفكيراً...أعتقد أنك أنهيت كل شيء بالسفر.. فاهداً وفكر في مستقبلك.
- معكِ حق أمي...أعتقد أن كل شيء انتهى فعلاً.
- أحب أن أذهب لأزور ريم واطمئن عليها؟
- لا يا أمي...لا داعي...هو قال أنها ستكون بخير.
وقبل أن تضيف أمه شيئاً دق الباب فقالت:
- من سيأتينا باكراً؟!
وقف قائلاً:
- لعله جاسر.
- انتظر لم أضع غطاء رأسي..سأكون في حجرتي إذا احتجتما شيئاً.

انتظرها عمير إلى أن دخلت حجرتها واتجه للباب وما أن فتحه حتى أصابه الدهول وهو ينظر لوجه ياسين الغاضب، لم يستوعب المفاجأة بسرعه بل ظل مكانه وكلاهما يتطلعان لبعضهما ثم انتبه لسوء تصرفه فأفسح الطريق.

- تفضل دكتور.

دخل ياسين بخطوات بطيئة ودار ببصره في المكان فرأى جريدة الصباح ما زالت مطوية لم يمسه أحد عند مدخل الشقة، فقال عمير:

- هل حدث شيء؟!... ريم بخير أليس كذلك؟!!

كان ياسين يوليه ظهره وطل صمته ثم قال:

- كنت سأفعل شيئاً بالأمس لكنني ظننت أنك لا تستحق، ولكن يبد وأنك حقاً تستحقه.

عقد عمير حاجبيه مفكراً وقبل أن يصل عقله لشيء فوجيء بياسين يدور على عقبيه ويصفعه بقوة على وجهه مما كاد يسقطه أرضاً لكنه تماسك سريعاً وهو يضع كفه مكان اللطمة وقال مذهولاً:

- ما هذا؟!..ماذا فعلت؟!...لم تضربني؟!!

نظر له ياسين قليلاً ثم قال:

- هل تألمت؟!!

ظل عمير ينظر له مذهولاً فأردف:

- نعم..ربما أنت تتألم الان؟؟ لكنه ألم سرعان ما سيزول لأنه ألم جسدي...لكن هناك ألم وأوجاع لا تزول؛ أتعلم لماذا؟!... لأنها الألم نفسية..دائماً تكون غائرة لا تلتئم أبداً.

عقد عمير حاجبيه وقال وهو يضغط على أسنانه ليكتم غضبه:

- دكتور جوزيف... هل جئت في الصباح لتضربني على وجهي شارحاً لي نظرية الألم؟!!

أولاه ياسين ظهره وهو يهز رأسه:

- يالك من مثابر عنيد...ألم تسأم لعب هذا الدور السخيف؟...دور البريء..الذي استطعت أن تلعبه بجدارة لتخدع ابنتي.

- دكتور جوزيف....أنا لم أخدع أحد...وكل الكلام الذي قلته لي
بالامس..لا يم....

- اصمت...

صاح بها ياسين في غضب عارم وهو يلتفت إليه:

- قلت لك كفاك تمثيلاً....سبحان الله...من أين لك هذه القدرة

العجيبة على الخداع، ولماذا أنا...لماذا دائماً أنا؟ في الماضي أمك

والان أنت...ماذا فعلت لكما؟!....

ثم استطرد في أسي:

- أنا من ظلم...وخذع.

قال عمير في حزن:

- أنت تسيء الظن بنا.

أمسك ياسين بتلابيب قميص عمير وجذبه نحوه في عنف:

- قلت كفاك....

والتقت أعينهما عن قرب وكلاهما مليئان بالحزن والغضب ولأول مرة
يشعر ياسين وكأنه ينظر لعينيه هو...نفس اللون..نفس الغضب..نفس
الحزن...كيف لم ينتبه من قبل أن عمير يحمل نسخة مطابقة لعينيه
، شعر وكأن قلبه يتحرك لابنه لكنه أبى أن يصدق أنه بريء فدفعه
بعيداً عنه قائلاً:

- حمداً لله أنه لم يكن لي أي دور في بناء مثل هذه الشخصية

المريضة.

- لا ... يا ياسين.

اخترقت أذنه هذه الكلمات الصادرة من رجاء التي وقفت تنظر له
بوجه حائق، فالتفت لها وكذلك عمير فأردفت وهي تقترب من ابنها:
- ابني هذا فخر لك قبل أن يكون لي.

قال ياسين في سخرية مريرة:

- حقاً...ياالسعدي!!

تعلقت رجاء بذراع عمير قائلة:

- ماذا أصابك ياسين؟!....لم أصبحت بهذه القسوة؟!!

حدق في وجهها قليلاً ثم قال:

- أولا تعلمين؟!

عقدت رجاء حاجبيها:

- أنا.. أليس كذلك؟!... أنا وما فعلته في الماضي.... تتحدث وكأنني دمرت لك حياتك.... رغم أنني أراك الآن زوج وأب وعالم كبيبيبيبي جداً... أي أنك نجحت وبكل المقاييس.... ويبدو أنك تستكثر علي أن أنجح أنا أيضاً.. وكأنك تريد أن تقنع نفسك بأنك لم تخسر الكثير عندما لم تستمع لعاطف وحرمت من تربية هذا الشاب، تريد أن تقنعني أنني فشلت في عمل صالح واحد.... لا يا ياسين.... لقد نجحت... وبدونك.

مط ياسين شفتيه قائلاً:

- أهذا ما توصل إليه تفكيرك العبقري؟!

قال عمير في غضب:

- إياك والسخرية من أمي، تحدث إلي... هي لم تعد زوجتك.... ولا

داعي لمزيد من الكلام... سأفعل ما يريحك.. سنغادر وأمي

البلاد... وابقى أنت مع زوجتك وابنتك، فأنا أعلم أن أمرنا لا

يعنيك.. وأريدك أن تعلم أنت أيضاً.. أن أمرك لا يعنيني.

ضغطت رجاء على ذراع عمير وكأنها تأنبه على هذا الكلام بينما لم

يفهم ياسين لم شعربألم في نفسه من كلمات عمير؟!... فالمفترض

أنها تعبر عن حقيقة ما، فاقترب من حيث وضعت الجريدة وفتحتها

ليطالع الصفحة الأولى في أسى ثم قال:

- أعلم أن أمري لا يعنيك.... لأنك نجحت وببراعة فيما فشل فيه كل

أعدائي... فهنئاً لك الفوز.

ثم ألقى بالجريدة عند قدمي عمير وأمه والتفت ليغادر فنظر عمير

ورجاء على الجريدة التي ما زالت على صفحاتها الأولى ومالبت أن

أصابتهما الدهشة العارمة عندما رأيا صورة ياسين وعمير في منتصف

تحقيق كبير فالتقط عمير الجريدة ليقرأ في ذهول العنوان الرئيسي

للتحقيق - الذي كتب بحجم كبير جداً- وهو يضغط على أسنانه في غيظ وغضب بينما تعالي صوت رجاء وهي تقرأ العنوان الذي فحواه....
"لم يعترف بي... فأسقطت أختي في حبي....لأجبره على ذلك"

.....

الفصل الخامس عشر

قرأ عمير التحقيق للمرة العاشرة وقد احمر وجهه تماماً فجذبت رجاء منه الجريدة:

- إلى متى ستبقى تقرأها؟!
- انجلترا كلها تقرأه يا أمي.
- يقرؤون أكاذيب...لن يصدقها أحد.
- رفع عينيه إليها وهو يهز رأسه بأسى:
- وهل كلها أكاذيب يا أمي؟!

لم تستطع رجاء أن تقول شيئاً فقال:

- لقد أحاطوا الحقائق بإطار من الاكاذيب والافتراء ، فمزجوا الحق بالباطل وخالطوا الصالح بالطالح ، فلن يستطع أحد أن يخرج الحقيقة المجردة من وسط هذا المستنقع . ولكن ما يحيرني؟...هو..من أين جاءوا بكل هذه المعلومات؟...المفترض أن لا أحد يعلم بالامر ..فكيف حدث ذلك؟...ولم يتكلمون على لساني ؟

وضع رأسه على كتفه وقال في حزن:

- الان فهمت ماذا كان يقصد دكتور جوزيف... ربي...لم يحدث لي كل هذا؟! استغفر الله...

اقتربت رجاء منه وربتت على كتفه:

- سامحني يا بني...أنا السبب في كل ما يحدث.

نظر لها بعينان لامعتان بالعبرات :

- لا يا أمي....كلنا السبب...كلنا.....

ثم شرد لحظات فقال:

- ترى كيف ستراني ريم الان؟....ستكرهني كأبيها ، و...وجاسر.

هب واقفاً:

- جاسر... يجب أن أراه.

أراد الخروج فتعلقت أمه بذراعه:

- إلى أين أنت ذاهب؟!

- أريد أن أرى أخي يا أمي، أريد أن أشعر ببارقة أمل واحدة أنني لست بهذا
السوء.

- عما تتحدث؟! يجب أن نفكر كيف سنواجه هذا؟!

التفت لها ثم أفلت منها دون أن يضيف شيئاً.

.....

وقف ياسين أمام المسجد المالحق بالمركز الاسلامي بلندن وظل يتطلع

له طويلاً ثم أتجه للداخل بعد أن خلع نعليه وما أن دخل حتى سمع

اسمه ينادى بلهجة مليئة دهشة وسعادة في نفس الوقت:

- ياسين... معقول... ياسين.

التفت لمصدر الصوت وارتسمت على شفثيه ابتسامته حزينة:

- عبد الرحمن.

قالها في لهجة لم تخلو من الحزن وبعض الدهشة فاقترب منه عبد

الرحمن:

- إذن هو أنت... لم أصدق عيناى.... كم مر من الزمن لم نلتقي فيه.

- الكثير... الكثير جداً.

تطلعا لبعضهما طويلاً حتى قال عبد الرحمن:

- ما الذي ذكرك بنا؟!

شرد ياسين قليلاً ثم قال في أسى:

- ليتني ما نسيتكم.

- ماذا بك ياسين؟!

أغلق ياسين عيناه بعد زفرة حارة:

- ألم تقرأ جرائد الصباح؟!

قال عبد الرحمن في قلق:

- لا ليس بعد... لماذا؟!

مط شفتيه:

- اقرأها وستعرف.... والان دعني أريد أن أصلي-

ابتعد ياسين عنه ليتوضأ ويصلي بينما ظل يتابعه عبد الرحمن في دهشة ثم غادر المسجد باحثاً عن أي جريدة حتى عثر على واحدة مع أحد زملائه فاخطفها منه ليطالعها بينما قال صاحبها:

- مهلا يا عبد الرحمن...يمكنك أن تطلبها وسأعطيها لك.

لم ينصت له بل قرأ ما سطر في الصفحة الأولى في اهتمام بالغ.

.....

خطا عمير خطوات بطيئة وهو يدير رأسه في المكان باحثاً عن جاسر، لم يهتم بالانظار التي ظلت تلاحقه منذ أن وصل للجامعة، فلقد توقع أكثر من ذلك وكل ما كان يهمله هو العثور على جاسر سريعاً وبالفعل توقف فوراً أن راه مع مجموعة من الشباب وأحدهم يمسك بالجريدة والآخرين يطالعونها معه، لكنه لم ينتبه لأيهم بل كان تركيزه كله على جاسر ومحاولة قرات تعابير وجهه التي قرأ منها الكثير.... عدم تصديق... صدمة... دهشة... ربما غضب لم يستطع عمير أن يحدد.

راه أحد الشباب فنبه الجميع فرفع جاسر عيناه إلى عمير الذي لا يزال بعيداً عنهم وبهدوء انصرف الشباب تاركين جاسر الذي ظل مكانه بلا حركة فاقترب منه عمير إلى أن أصبح على بعد خطوة واحدة منه، تبادلوا الكثير من الكلام دون نطق حرف واحد وظلا على صمتها إلى أن قال جاسر في حزن عميق:

- قل شيئاً...

صمت عمير قليلاً ثم قال بنفس الحزن:

- ماذا تريدني أن أقول؟!

هز جاسر رأسه في عصبية:

- قل لي أن هذا الكلام محض افتراء.. وأنه كذب... قل لي أن دكتور جوزيف ليس أباك، وأنت لم تتزوج ريم لأنها أختك، قل لي أنك ما زلت عمير الذي أعرفه... وأنت لا يمكن أن تكون... أن تكون.....

لم يستطع جاسر أن يقلها فلم يتخيل يوماً أن يجرواً على سب عمير. أغلق عيناه في تأثر تأمله عمير للحظات ثم قال:

- لا استطع أن أقل لك ذلك لأن بعضه صحيح ولكن..ولكن أريدك أنت أن تقل لي.... هل عمير الذي عرفته طوال الفترة الماضية يمكن أن يكون بهذه الخسة؟!.... هل يمكن أن الشخص الذي صادفته بل وأخيته هو نفسه من يستحل المحرمات..هل الاخ الذي اخترته ليكون لك كفهد هو من تتحدث عنه الصحف؟!!

شعر جاسر بالمر وحزن شديد لئنه لم يتمالك نفسه فاحتضن عمير بقوة وهو:

- لا..أنت لست كذلك...لا..لا.

ربت عمير على ظهره وقد سعد بهذه الكلمات:

- وهذا يكفيني يا أخي...وهذا يكفيني.

اعتدل جاسر لينظر إليه وقد حملت نظرتة العديد من التساؤلات، ففهم عمير وقال:

- أعلم...يا أخي، أنا مدين لك بالتفسير.... ما رأيك أن نذهب إلى حيث اعتدنا؟

أوما جاسر برأسه وبالفعل انصرفا ليقص عليه عمير الحقيقة. وما أن أنهى قصته التي استمع لها جاسر ذاهلاً حتى قال:

- هذه هي الحقيقة كلها يا أخي، ولا اعرف كيف أمكنهم أن يستغلوا هذا الاستغلال السييء.

لم ينطق جاسر بكلمه منذ أن بدأ عمير الكلام فأردف عمير:

- ألن تقل شيئاً؟!

رفع جاسر نظره إليه وهو ما زال غارقاً في ذهوله:

- دكتور جوزيف...أبوك... أبوك أنت.... وريم..أختك.. ثم هز رأسه:

- لا..لا..أنا لا أصدق، أنا لو رأيت هذه القصة في فيلم أو مسلسل درامي..لقلت ما هذا الخيال؟!

مط عمير شفتيه:

- ويا له من خيال.... خيال مرعب ومخيف.
اعتدل جاسر قائلاً في حزم:
- حسناً...هو كذلك...لكنه واقع...وأنت الآن يجب أن تصحح الصورة
أمام أباك وأختك والجميع.
- أنا!!
- نعم أنت ... عليك أن تقاضي هذه الجريدة بتهمته السب والقذف،
وتطالب بالتعويض الادبي قبل التعويض المادي.
البتسم عمير في تهكم:
- أقاضيها..
- نعم أنت من حقت ذلك..مادام كذبوا باسمك.
- هل قرأت التحقيق جيداً يا جاسر؟... لقد أجادوا اللعبه تماماً، صحيح
أنهم تحدثوا باسمي ولكن المفترض أن الكلام نقل لهم من شخص
موثوق فيه رفض ذكر اسمه، كما أن كل ما ذكروه من أحداث هي
حقائق فعلاً ولكنهم زيّفوا تفسيرها وأسبابها.
- نعم...هذا صحيح، ولكن هذا لا يمنع أنهم كذبوا، ومن حقت أن
تدافع عن نفسك ولو حتي بالرد على هذا الافتراء في نفس الجريدة.
شرد عمير قليلاً:
- أدافع عن نفسي وهل تتصور أن الرأي العام الانجليزي سيهتم
لكلامي خاصة وأني سأثبت الكثير مما قيل.
ثم هز رأسه في أسى:
- كما أنني لم أنجح في الدفاع عن نفسي أمام أمام من هو
أقرب....
اعتصر الالم جاسر الذي شعر بعدم القدرة على مساعدة صديقه فقال:
- ما زال يمكننا أن نفعل شيئاً.... على الاقل أن نثبت لكتور جوزيف
أنك لست كما يظن. إنه أباك وليس عدلاً أن تعينه على الظلم حتى
ولو كان هذا الظلم في حقتك.
صمت عمير قليلاً ثم قال:
- هل تظن أننا سننجح في ذلك؟

قال جاسر في حماسه:

- سنحاول.

أطرق عمير برأسه قليلاً ثم تذكر أمر سفره الذي لا يعرف جاسر عنه شيئاً حتى الآن فنظر له في حزن وأراد أن يخبره لكنه علم أن هذا سيصدمه فأثر الصمت واكتفى بأن قال:

- نعم سنحاول.

.....

لم يعرف ياسين كم مر من الوقت وهو يصلي لكنه أحس أنه لا يريد أن يتوقف عن الصلاة والدعاء ثم بعد ذلك سكن مكانه بلا حركه شادراً تترقق الدموع في عينيه حتى شعر بمن يربت على كتفه فالتفت ليرى عبد الرحمن الذي كان ينظر له مواسياً بابتسامته باهتة فاشاح بوجهه بعيداً فقال عبد الرحمن:

- لا تحزن يا صديقي.

ظل ياسين ينظر بعيداً ثم قال:

- غريب أمر الانسان، عندما يكون بين يدي ربه متضرعاً راجياً باكياً يكون في أفضل حالاته الايمانيه؛ لأنه حينها يكون على يقين تام أنه لا منجي له إلا الله بل يتصور أنه إن مات في لحظته هذه لدخل الجنة؛ لأنه صادق الايمان، فيشعر أن الدنيا لا قيمة لها بل حتى الموت الذي يكره قد يتمناه للحظة؛ كي يلقي ربه هذا اللقاء الذي يشاق له المرء أحياناً ثم.. ثم سرعان ما يعود للدنيا فيلهيه طول الامل وتغويه زينة الدنيا ولا يفق إلا بضربة أخرى ليعيد الكره دون أن يتعلم الدرس أبداً.

- ولكن هذا أمر شبه طبيعي.... فكلنا تأتي علينا لحظات نكون

قريبين جداً من الله ولحظات أخرى نكون بعيدين، والله يفرح بعودة العبد له لأنها عودة من تيقن أن له رب يغفر الذنب.... ولكن لم تتحدث هكذا؟! فما كتب في الصحف ليس ذنبك ويمكنك أن تكذبه بسهولة.

نظر له ياسين في حزن عميق وأخفى وجهه في كفه فعقد عبد الرحمن حاجبيه:

- أصبح هو؟!

لم يعلق ياسين فهز عبد الرحمن رأسه:

- مستحيل.. هناك خطأ ما.... أنت لست بالشخص الذي ينكر نسبه.
رد بعصبية:

- أنا لم أكن أعرف أن لي ابن.... لم أعرف إلا منذ أيام، لكنه هو الذي.... تباً لا أريد الحديث في هذا الامر.

- حسناً.. اهدأ.... اهدأ.

أحاط بهما الصمت فلم يقل أيهما شيء.

- السلام عليكم.

عقد ياسين حاجبيه عندما ميز صاحب الصوت دون النظر إلى وجهه ثم رد السلام وسمع عبد الرحمن يقول:

- سيد خالد... أهلاً بك.

- أهلاً بك أنت سيد عبد الرحمن، وكيف حالكم؟

- نحن بخير والحمد لله... أفتقدناك كثيراً... فنحن لا نشعر أن النظام الأمني للمركز مكتمل إلا بوجودك.

- أشكرك على هذه الثقة.. وعلى كل حال فالزميل الذي ناب مكاني أيضاً ممتاز ولولا أنه محل ثقة ما وكلت له رعاية المركز أمنياً.

- أنا لم أقصد أبداً أن أقلل من شأنه.. هو فعلاً ممتاز.. لكن يمكنك أن تقول أننا اعتدنا على وجودك أنت ومادمت معنا ومع حرصكم على

أمننا فإننا نشعر بالطمأنينه فعلاً.

- لقد أنهيت مهمتي الخارجية وسأعود لعملي هنا.

- هذا من حسن حظنا.

نظر خالد لياسين قائلاً:

- كيف حالك دكتور ياسين؟

رفع ياسين عيناه إليه في حزن دون أن يقل شيئاً فقال الأخير:

- أحب أن أتحدث معك قليلاً.... هل تسمح؟

- أطرق ياسين برأسه دون تعليق ثم قال:
- لكني لا أريد أن أترك المكان بعد.
جلس خالد بجانبه مبتسماً:
- لا بأس يمكننا أن نتكلم هنا....فما سأقوله لن يغضب الله وبالتالي
يمكنني أن أقوله في بيته.
وقف عبد الرحمن :
- حسناً سأترككما لتكونا على حريتكما ، لا ترحل قبل أن تمر
علي ياسين.
أوما ياسين برأسه إيجاباً وعاد ينظر لخالد الذي كان ينظر له بابتسامته
هادئة على وجهه توهي بالاطمئنان وما أن أبتعد عبد الرحمن حتى قال
خالد:
- يؤسفنا حقاً ما حدث، فما كان يجب أن تسوء الامور بهذا الشكل
خاصة وقد اقتربت كثيراً من المنص...
قاطعه ياسين غاضباً:
- هل تتصور أن الوقت مناسب لتحدثني في أمر كهذا؟ إذا كان كل ما
يؤسفكم هو فقد الترشيح الذي سعيتم إليه فأنا ما يؤسفني أكبر.
قال خالد في حزم:
- أنت مخطيء دكتور ياسين..... فأنت تعلم ماذا تعني لنا؟....فأنت
شخصية نحترمها ونفتخر بها...وما يمسك يمسنا والنيل منك نيل منا.
أشاح ياسين بوجهه بعيداً فأردف خالد:
- نحن من البداية لم نتدخل لنعينك على أن تنال الترشيح بل أنت
الذي أصرت على أن تناله دون مساعدة وبالفضل... بعمالك ونشاطك
لفت انتباه الجميع وأصبحت مرشح أكثر من زميلك ديفيد ، ومع ما
يحدث الان للأسف ما زال لا يمكننا التدخل ولكن ما زال الامر
بيديك لتصحيح الصورة وتعيد الامور لطبيعتها.
- أنا..... أنا أعيد الامور لطبيعتها ، كيف تتصوراني قد أفعل ذلك....
من كان السبب في ذلك لن يفكر في أن يساعدني ..فأنا لا أعني له
شيئاً.

رفع خالد إحدى حاجبيه:

- أظنك تتحدث عن عمير؟!!

ظهر الغضب على وجه ياسين فأشاحه بعيداً فهز خالد رأسه:

- هل قرأت التحقيق جيداً دكتور ياسين؟.... إنه يسيء لعمير هذا

أكثر مما يسيء إليك...هل يوجد شخص عاقل يفضح نفسه بهذه

الطريقة؟

- أعمته الرغبة في الانتقام.

- بل أنت من أعمته مفاجأة ظهور ابن له بعد كل هذه السنوات.

قال ياسين مستنكراً:

- لا أعرف لم يدافع عنه الجميع!!

- أنا لا أدافع عنه، فأمره لا يعنيننا كثيراً..هو ابنك وأنت حر معه،

لكننا نريدك أن تنظر للأمور من وجهة نظر أخرى فربما تتضح لك

أكثر وحاول أن تستشف.. من من مصلحته أن يبعدك عن منافسته على

هذا المنصب؟ لينا له هو.... يجب أن تفكر في هذا الطرف.

- منافستي!!

- نعم....فمن مصلحته أن يسيء الآخرين الظن بك..... ليعد هو للصورة

...بشكل أقوى.... ولقد نجح مع أعوانه كثيراً واتقنوا اللعبة ..

ولكنه شخص ضعيف... يمكنك أن تتحكم فيه.... وتعيد الأمور

كلها لمصلحتنا فأنت تعلم أننا سعينا منذ البداية لتفوز بهذا

المنصب لأننا سنعمل لمصلحة الجميع أما هم فلن يعملوا إلا لمصلحتهم

وسنكون نحن أول من يدفع الثمن.

أراد خالد الوقوف فقال ياسين:

- أنا لا أفهم شيئاً!!

وقف خالد ونظر له مبتسماً:

- فكر قليلاً وستفهم....وحاول أن تكون أكثر واقعية وأن تنحي

عواطفك بعيداً لأنها تعوقك عن التفكير السليم.

التفت ليغادر بينما يتابعه ياسين في دهشه وأخذت كلماته تتردد في

عقله:

".....مَنْ مِنْ مصلحته أن يبعدك عن هذا المنصب؟!..... ليعود هو
للصورة..... لقد نجح مع أعوانه كثيراً واتقنوا اللعبة..."
هز رأسه بعد أن اتضح له شيء:
- مستحيل..... أيمكن أن يكون هو؟!!

.....

ألقى جاسر بالجريدة جانبه قائلاً:
- أنا لا أستطيع أن أخرج من هذا الكلام السخيف بشيء يوضح لي من
السبب فيه.

كان عمير يمسك بنسخه أخرى يطالعها باهتمام شديد فقال:
- لا بأس فلنستمر ربما ننتبه لشيء ما.

تطلع جاسر للصورة التي تتوسط التحقيق ثم قال:
- أين التقطت هذه الصورة؟!!

نظر عمير للا شيء قائلاً في حزن:

- أمام المشفى ... عندما أخبرته بحقيقتي..
قال جاسر متردداً:

- لكنه يبدو وكأنه سي....

لم يكمل فقال عمير:

- نعم، كان يريد أن يصفني.

- معقول...لم أتصور أبداً أن دكتور جوزيف يمكن أن يفقد أعصابه
بهذا الشكل.... لكنه لم يصفك صحيح؟!!

رفع عمير كفه واضعاً إياها على خده الذي تألم صباحاً من لطمته
ياسين قائلاً:

- لا، لقد تراجع عن ذلك..... ليس المهم أن يشغلنا هذا....هذه الصورة
تعني أننا كنا مراقبان.

- هذا صحيح....لا أعتقد أنها مصادفه، ولكن هذا يعني أنهم كانوا
يعرفون أن شيء سيء سيحدث.

- فعلاً....ولكن كيف؟!..ومن هم؟!!

لم يعلق جاسر فعاد عمير يقرأ التحقيق حتى توقف عند فقرة معينة
قرأها عدة مرات فلاحظ جاسر فقال:

- هل وجدت شيء؟!!

رفع عمير له الجريدة قائلاً:

- اقرأ هذه الفقرة من تعليق الصحفي.

أمسك جاسر الجريدة ليقرأ:

- "ولقد علمنا أن دكتور جوزيف مرشح لمنصب كبير جداً فهل يا ترى
سيظل أقوى المرشحين له أم سيفتح الطريق لمن ينافس عليه".... هل
يعني هذا شيئاً؟!!

- بالتأكيد.... ما الذي سيدفع الصحفي ليقول هذه الجملة ويزج بها
وسط تعليق المفترض أنه اجتماعي محض؟! وكأنه يريد أن يلفت
الانتباه بشكل غير مباشر لكل من يهمله أمر هذا المنصب.
هز جاسر كتفيه:

- ربما.... ولكن أنت تريد أن تقول أن هذا التحقيق الكبير لمجرد أن
يسيء لدكتور جوزيف ليبعده عن المنصب.

- ولم لا؟!... ألم يقل أن المنصب كبير؟!!

- نعم، ولكن ما الذي سيستفيد منه صحفي مثله في أمر كهذا؟!!

- ومن قال أنه هو المستفيد.... ربما هناك خلفه من يوجهه وهو

المستفيد من ذلك.... أتعرف شيئاً عن هذا الصحفي؟!!

- لا... لا شيء.

حك عمير ذقنه مفكراً ثم قال:

- من يضاها دكتور جوزيف في مكانته وعلمه ويمكن أن يتنافس

على منصب واحد؟!!

عقد جاسر حاجبيه ثم قال:

- أنا لا أعرف غير شخص واحد.... إنه....

لم يكمل جاسر بل نظر لعمير ذاهلاً فأكمل:

- ديفيد... قلها يا جاسر... ديفيد.... كنت واثق.

قال جاسر:

- ماذا تقصد؟!
- هل تذكر عندما قصصت عليك ما حدث في المكتبة بين ديفيد هذا وشخص آخر؟!
- عندما كانا يتحدثنا العبرية.... هل تقصد أنه وراء كل هذا؟!
- ولم لا؟! إذا كان حقاً يريد هذا المنصب سيفعل أي شيء... وأنا أعتقد أنه لا يعمل وحده فوجود الشخص الآخر معه يشعرني بأن هناك من يدير الامور لمصلحته أو بمعنى أصح لمصالحتهم جميعاً.
رفع جاسر حاجبيه:
- أنا لا أفهم شيئاً.
- أخي...أنا أتحدث عن اليهود..الذين يكرهون أن يروا أي مسلم عربي في منصب كبير خاصة إذا كان يمكنهم المنافسة عليه.... ولهذا خططوا ودبروا ليطيحوا بدكتور جوزيف ليُفتح الطريق لديفيد ، وللأسف قدمت لهم الفرصة على طبق من ذهب.... ولأنني من أفسد الامر فسأعمل على إصلاحه.
اتسعت عينا جاسر:
- هل تسمع نفسك يا عمير؟!..... يا الهي...إذا كان ما تقوله صحيح فهذا يعني أن من وراء ديفيد ليسوا مجموعة من الهواة وإنما منظمة تعرف جيداً ماذا تفعل أتعرف من قد تكون؟!
ظل عمير ينظر له بلا تعليق فأردف جاسر:
- الموساد يا عمير..الموساد ، أتعرف الموساد؟ ..اللاعب مع هؤلاء كاللاعب بالنار ولن يحرق بها سواك ...لأنه لا يضل الحديد سوى الحديد وأنت لا تعادلهم في القوة، قد يحطموك تماماً ..إنهم لا يرحمون....لا يرحمون.
- اهدأ يا جاسر.... نحن لسنا في فيلم للحركة والاثارة من قال أنني سأقترب من الموساد.. أنا فقط أريد ديفيد.
- وديفيد معهم...فإذا اقتربت منه فأنت تقترب منهم.
صمت عمير قليلاً ثم قال:
- كل ما أريد هو أن أعرف هل ما يدور في عقلي صحيح أم لا؟!
١٨٣

- وبعد أن تعرف.
- لا أعلم...دعنا نعرف أولاً ثم ن فكر...لعلنا نصل لشيء.
- هز جاسر رأسه:
- أنا قلق...ولكني أعلم أنني لن استطع أن أغير رأيك... حسناً...ماذا تريد أن تفعل الان؟
- اعتدل عمير قائلاً:
- أريد أن أذهب لديفيد هذا الان.
- لكنه ليس هنا...فهو لا يأتي اليوم إلى الجامعة.
- وقف عمير قائلاً:
- حسناً فلنذهب إلى منزله.
- منزله...
- قالها جاسر مستنكراً وأردف:
- ولمَ تريد أن تذهب إلى منزله؟!
- أليس من الأفضل أن تطرق الحديد وهو ساخن...وديفيد الان يتربص رد فعل الجميع.
- هذا على اعتبار أن ما في رأسك صحيح.
- أكاد أجزم بذلك...وسنرى.
- لكني لا أعلم أين يسكن؟
- فكر عمير قليلاً:
- المفترض أن عنوانه موجود بالجامعة.... هل تعرف أحد من المسئولين عن بيانات الطلبة والاساتذه؟
- قال جاسر:
- نعم... ويل... إنه شاب ممتاز وصد يقي.
- جيد فلنذهب إليه إذن.
- ولكن ماذا سنقول له عن السبب لمعرفة العنوان؟
- جذب عمير جاسر ليقف قائلاً:
- حاول أن تجد حجه مناسبة، هيا سأنتظرك في الخارج.

دخل جاسر إلى حيث يوجد ويل الذي وقف وابتسم له قائلاً:

- جاس... هذا أنت؟!... ترى أي ربح طيبة أرسلتك إلي؟

ابتسم جاسر:

- جاس... لا أحد يناديني هكذا سواك.

ضحك ويل:

- ليس رغبتاً في ذلك وإنما اسمك هكذا أيسر في النطق..... كيف

يمكنني أن أساعدك؟

دار جاسر بعينه قليلاً مفكراً ثم قال:

- في الحقيقة.... أنت تعلم أن دكتور ديفيد ممن يُدرسون لي هذا

العام.

أوماً ويل برأسه فأردف جاسر:

- وقد طلب منا بحث وقد سلمه الطلبة بالامس لكنني لم أتمكن من أن

أسلمه إياه وهو سيناقش هذه الابحاث غداً ولا يوجد أمامي فرصة أخرى

سوى اليوم وهو لن يأتي؛ لهذا كنت أريد أن أحصل على عنوانه لأذهب

وأسلمه البحث بنفسي.. ولكني لا أعرف أين يسكن...فقلت أنك

الوحيد الذي يمكنه مساعدتي.

ابتسم ويل وهو يجلس أمام الحاسوب:

- لا مشكلتاً يا صديقي... سأخرج العنوان حالاً.

ابتسم جاسر في سعادة فلم يكن يتصور أن الأمر بهذه السهولة.

رفع ويل له ورقه بخطه فيها عنوان ديفيد أخذها جاسر ممتناً وشكره

كثيراً وغادر المكان ليستقبله عمير:

- هل حصلت على العنوان؟

- نعم.

قرأ عمير العنوان:

- هذا جيد... سأذهب.

أمسك به جاسر:

- وحدك... لا... سأذهب معك.

حدق عمير في وجهه:

- لا أريد لديفيد أن يرى سواي.
- حسناً سأوصلك وأنتظر بعيداً، لكنني سأتي معك.
نظر له عمير قليلاً ثم قال:
- حسناً...كما تريد.
خرجاً معاً فأشار جاسر لسيارة زرقاء قائلاً:
- من هنا.... فلنركب السيارة.
قال عمير مندهشاً:
- سيارة...ومنذ متى تملك سيارة؟!
وقف جاسر بجانبها قائلاً:
- أنا لا أملكها.... إنها لخالي..وهو يعيرني إياها أحياناً..ومن حسن حظك أنها معي اليوم...هيا اركب.
انطلق جاسر إلى حيث يقطن ديفيد ودون تبادل الكثير من الكلام وصلاً إليه، فوقف جاسر بعيداً عن المنزل قليلاً ليغادر عمير السيارة فأوقفه قائلاً:
- كن حذراً...،أتمنى لك التوفيق.

.....

الفصل السادس عشر

- ابتسم له عمير ثم اتجه مباشرة ليطرق باب ديفيد وانتظر قليلاً حتى فتح الباب لتطل منه امرأة حدقت في وجه عمير قليلاً ثم قالت:
- كيف يمكنني مساعدتك أيها الشاب؟!
كان يريد عمير أن يقرأ أي شيء من عينيها ولكن يبدو وكأنها لم تتعرف عليه فقال:
- هل دكتور ديفيد هنا؟!
فأومأت برأسها:
- نعم هو هنا، من تكون؟!
- طالب يدرس عنده....اسمي عمير.
- حسناً....تفضل.

خطا عمير خطوة واحدة داخل المنزل دون أن يغلق الباب وانتظر قليلاً ليجد ديفيد قادم نحوه ثم اتسعت عينا عمير في ذهول؛ فخلف ديفيد كان يقف ياسين الذي عقد حاجبيه في دهشه ثم قال:
- إذاً هو أنت... لم أصدق عندما قالت ريتشل اسمك.

للحظة تصور عمير أنه فقد كل التركيز الذي وضع نفسه فيه لمواجهة ديفيد بل أخذ قلبه ينبض بعنف لكنه سرعان ما استجمع قواه

"..... اهدأ يا عمير.. ماذا أصابك؟!.... ربما من مصاحتك أن يكون دكتور جوزيف هنا.... ولكن هذا على أساس أن ما تظنه صحيح.....
إلهي ساعدني... أرجوك....."

قال ديفيد مندهشاً:

- عمير.... ما الذي جاء بك؟!

أخذ عمير نفساً عميقاً ونظر لعين ديفيد مباشرة:

- ألا تعلم؟!!

حاول ديفيد أن يبدو متماسكاً رغم الفزع الذي أصابه فور أن رأى عمير ثم قال في تردد:

- ماذا؟!.. أنا لا أفهم.. عما تتحدث بالضبط؟!!

عقد عمير ذراعيه أمام صدره متناسياً وجود ياسين ليتمكن من التركيز أكثر وقال وهو يحرق في عين ديفيد بثبات الواثق من نفسه:

- حقاً.. أنت لا تعرف عما أتحدث... أيها الدكتور المحترم... والصديق

الوفاي.... الذي يعرف حق الصداقه.. الذي من المستحيل أن يطعن

صديقه في ظهره لينال منصب أو مكانه مرموقه.

اتسعت عينا ديفيد وهو ينظر لعمير وشعر بصعوبه في ابتلع ريقه

وارتعشت يداه فعلا وظهر عليه الارتباك الشديد وهذا ما كان يريده

عمير الذي ظل ينظر لديفيد نفس النظرة الثابتة بينما وقف ياسين

يراقبهما، فرك ديفيد يديه في عصبية:

- أنا.. أنا لا أفهم منك شيئاً... هل جئت إلى هنا لتقول لي الغاظة؟!!

- لا يا دكتور ديفيد.... لا توجد أي الغاز.... فأعوانك الذي تلتقي بهم
وتتحدث إليهم بلغتك الأصلية قد حلوا لي كل الالغاز.. فطالما
تسأل ما الفائدة المرجوة من نشر هذه الاخبار إلا الاساءة لدكتور
جوزيف وحينها تذكرت لقاءك الذي تم منذ فترة في مكتبة
الجامعة الذي كان بداية المأساة التي نحن فيها الان.
لم يكن عمير واثق من كل كلمة قالها وإنما كانت محض
استنتاجات دعا الله أن تكون صحيحة لأنها ستجعل ديفيد يعلم أنه
يعرف أكثر مما يبدي وفي كل الاحوال قد ينهار أمام ياسين وهذا ما
يتمناه عمير فعلاً.

شعر ديفيد بالذوار المفاجيء حتى أنه أمسك رأسه وهو ينظر لعمير في
ذهول....

"....تباً... هذا الشاب يعرف الكثير.. لكن كيف.. كيف؟!.. التماسك
يا ديفيد لا تنهار.. إنه يريدك أن تعترف... لن يسامحك جوزيف إن
عرف الحقيقة... بل أيضاً قد يقتلك حاييم إذا قلت شيئاً....."
لم يتمكن ديفيد من التماسك كما أراد بل شعر بضعف في قدميه
فلم يجد غير الاستناد على جوزيف وهو يردد كالمذهول:
- ماذا يقول هذا الفتى يا جوزيف؟!... إنه يريد اتهامي بالسبب فيما
تم نشره.... لا تصدقه يا صديقي... أنا لم أكذب عليك من قبل....
فصدقيني.. إن....

قاطعته ياسين وهو يمسك بذراعه ويحدق في وجهه:

- اهدأ... اهدأ... يا ديفيد.... أنا لا أصدقك.

اعتدل ديفيد لينظر له في دهشة حقيقة وكأنه لم يتصور أن يصدق
بهذه السهولة بينما شق عمير فالتفت له ياسين قائلاً:

- أجيئت إلى هنا لتتهم صديقي؟!... أخطأت التصرف كالعادة...

ظل عمير ينظر له في ذهول وقد انفرجت شفتاه ثم ضغط على أسنانه
في غيظ وصاح بالعربية التي لا يفهمها ديفيد:

- ماذا تقول؟!.. وتساألني من أين جيئت بمثل هذه المثابرة، من الواضح

أني ورثتها منك... يا الهي.. أنا لا أصدق.. ألا يقول لك الرعب

والارتباك الذي هو فيه أي شيء... انظر لوجهه جيداً... إنه يؤكد صحته ما أقول.

نظر ياسين لديفيد الذي لم يفهم شيئاً فردد:

- أنا لا أفهم..ماذا يقول...هل يتهمني بشئ آخر؟!

لم يجيبه ياسين الذي عاد ينظر لعمير قائلاً:

- عد من حيث أتيت أيها الشاب.

هز عمير رأسه في أسى وشعر بقلبه يتمزق إرباً:

- أنا لا أصدقك.... لم تفعل بي هذا؟..... أتصدق هذا اليهودي

وتكذبني أنا... كذبت عليك مرة واحدة فقط... نعم أخطأت

حينها...لكني كنت غاضب...غاضب منك ومن أمي ومن نفسي... لو

تعلم...لو تعلم...كم تمنيت أن التقى بك في طفولتي وصباي بل حتى

وشبابي، كنت كل عام أنجح فيه كنت أنتظر أن تأتي وأفرحك

بنجاحي لتكون فخوراً بي... لكم تمنيت أن تضمني إلى صدرك بحب

أبوي صادق.... ولكن لم أتلق منك غير لطمة على الوجه والعديد

من الافتراءات والاتهامات.... صدقني دكتور جوزيف أنا أشعر بالأسى

من أجلك.... لقد فقدت بصيرة المؤمن ولم تعد ترى الحقيقة... أسأل

الله أن يعينك.... لأن من البر أن ادعوا لك...رغم أنك لم تبرني

على الاطلاق ... سامحك الله...سامحك الله... وثق أنني لن أضايقك

أو..... صديقك مرة أخرى.

لم ينتظر عمير أي تعليق بل غادر المكان على الفور ويرغم أنه

إجتاحته رغبة عارمة للبكاء لكنه سأم من ذلك فقرر ألا يبكي،

تابعه ياسين فقال ديفيد:

- أنا لم أفهم ما قال.

نظر ياسين له قليلاً ثم ربت على كتفه:

- قال أنك يهودي...ولكن هذا لا يعني لي شيئاً..فأنت صديقي...

والصديق من صفاته الصدق.... وأنت لم تكذب علي .. أليس

كذلك؟.

اوماً ديفيد برأسه:

- بالتاكيد يا صديقي.... بالتأكيد.
ابتسم ياسين ابتسامته باهتة:
- وخيانة الصداقه لها ثمن غالي...لن تقوى على دفعه..ولهذا فأنت لن
تخني.
عقد ديفيد حاجبيه فلقد قالها ياسين بطريقه غريبه، ثم أردف:
- لا داعي في أن تفكر فيما حدث اليوم..ولا تحدث به أحد.... يكفي
ما يحدث... والان يجب أن أذهب، لقد تأخرت على ريم وأمها..المفترض
أن نعود للمنزل الآن فلقد دخل وقت الظهيرة.

قفز عمير في سيارة جاسر الذي استطاع أن يقرأ مشاعر صديقه فقال
عمير بصوت مكتوم:
- هيا انطلق.

انطلق جاسر بالفعل ولم يستطع أن يمنع نفسه من النظر لمنزل ديفيد
وهما يمرا من أمامه ليرى ياسين يقف بجانبه فشهق:
- يا الهي..دكتور جوزيف هناك.

لم يعلق عمير بل احتفظ بصمته حيث شعر وكأنه إذا فتح شفثيه
لانطلقت منهما صرخه قويته عاليته ليضغ ما في صدره من ألم. لكن
جاسر لم يحتمل هذا الصمت فقال:

- ماذا حدث يا عمير؟!..أخبرني يا أخي.

أغلق عمير عينيه ليتمالك نفسه وقال وهو يضغظ على أسنانه:

- لم يصدقني.... كان كل شيء واضح أمامه.. كاد ديفيد أن

يعترف...لكنه لم يقف معي لحظه بل ساند هذا الوغد وكأنني لا
أعني له شيئاً.

- ماذا تقول؟! هل فعل ذلك حقاً؟!

فتح عينيه ليقول:

- نعم فعلها....ولا أعرف لم تصورت أنه سيقف معي؟، فليكن... فليبق

مع هذا اليهودي الذي سيحطمه تحطيماً.

قال جاسر حزيناً:

- لا يا عمير لا تقل هذا....ربما دكتور جوزيف لم يستوعب الامر بعد...لقد تصور أنه صدم فيك وأنت الان تريده أن يتقبل أيضاً صدمة جديدة في صديقه....ليس الامر بهذه السهولة.
- لم يعد يهمني شيء سأغادر البلاد وسأعود الى موطني.
- اندفع جسد عمير للامام فجأة فرفع ذراعيه ليحمي وجهه من الارتطام بزجاج السيارة إلا أنه ارتطم به فعلاً ولكن امتصت ذراعيه النسبة الاكبر من الصدمة لكنه تألم كثيراً ... فالتفت في ذهول إلى جاسر الذي تسبب في ذلك عندما ضغط على مكابح السيارة فجأة دون أن يحذر عمير وبدون أي سبب خاصة أن الطريق خالي أمامهما بل إنه سكن بعد أن فعل ذلك وظل يحدق أمامه بعينان ارتسم فيهما الكثير من الغضب والحنق فقال عمير بعصبية:
- ما هذا الذي فعلت؟!
- لم يجيبه جاسر سريعاً بل صمت قليلاً ثم قال في لهجه مؤلمة:
- هل ما سمعته صحيح؟!...أنت ستغادر وتعود لموطنك؟!
- استوعب عمير ما أصاب صديقه وتذكر أنه لم يخبر جاسر عن أمر السفر هذا فاعتدل في مقعده وهو يمسك ذراعه الذي يؤلمه ونظر أمامه هو الآخر ولم يجب فالتفت له جاسر قائلاً في غضب:
- أجبني...
- أطرق عمير برأسه ثم قال:
- كنت سأخبرك...ولكن...
- لم يستطع أن يكمل فقال جاسر:
- ولكن ماذا؟...كنت سترسل لي رساله من موطنك تخبرني فيها أنك وصلت بسلامة الله ولا داعي للقلق.
- لا كنت أعلم أن الامر لن يكن سهلاً عليك.
- حقاً ياالسعدي ... جيد أنك تعرف.
- قالها جاسر بسخرية مريرة ثم أردف:
- وهل وجدت أن مغادرتك للمكان هو الحل الامثل.
- نعم هو كذلك...

- لم أتصور أبداً أن تتصف بهذه الصفة.
عقد عمير حاجبيه وهو ينظر له قائلاً:
- صفه!! أيتها صفه؟!
- صفة الجبن.
صاح عمير محذراً:
- جاسر....
- نعم أنت جبان.... تريد أن تهرب وتترك كل شيئاً مقلوباً رأساً على عقب.
- أنا لم أقلب شيئاً رأساً على عقب.
- لا يا عزيزي.... أنت تعلم مثلي تماماً أنك ضلع أساسي في كل ما يحدث وليس من الشجاعة أن تترك كل شيئاً وتهرب.
- أنا لا أهرب.... والدليل هو ما فعلته الآن... ذهبت بنفسني لمواجهة
ديفيد هذا... فماذا كانت النتيجة المزيد من الإهمال والتوبيخ؟ أنا لن
أحتمل المزيد.... فعلت ما بوسعي ولا فائدة... ماذا تريد مني أكثر من ذلك؟
حدق جاسر في وجهه لحظات ثم لوح بكفه:
- أن تهرب.
أمسك عمير ذراع جاسر صائحاً:
- قلت لك أنا لا أهرب... وأنت أبداً لن تفهم.. ولن تشعر بما أشعر... أنا
وحدي في هذه النار وأنا من سأظل أعاني منها إلى الأبد.... ولو كنت
مكاني لفضلت أبشع مما أفعل لكنك لست كذلك ولن تكن... حتى
لو حاولت أن تقنع نفسك بالعكس... أنت لست أنا.
شعر عمير بالندم على كلماته مع إلتماع عيني جاسر بالعبرات،
فترك ذراعه وأشاح بوجهه وقبل حتى أن يعتذر عما بدر قال جاسر في
ألم:
- هل هذا ما تشعر به حقاً؟
أراد عمير أن يقول شيئاً فرجع جاسر كفه قائلاً:

- لا ... لا تقل شيئاً.... لقد تكلمت بصدق....أنت لا تقل إلا ما تشعر به،
ولكن ما تقول ليس صحيح..أنا يمكنني أن أشعربك، لأنك أخي..
أأست أخي؟!!

عاد عمير ليستند على كرسيه قائلاً:

- إذا كنت تشعر بي...فالمفترض أن تفهم..أنا لا أهرب يا جاسر..أنا
أريد أن استعيد حياتي وطموحاتي وأحلامي وأشعر أن بقائي هنا يهدم
كل شيء...يكتم أنفاسي...يمزق أحشائي.... لا يمكنني أن أحتمل
أكثر...فمنذ ما حدث وأنا لم أتقدم خطوة للأمام وإذا بقيت هنا سأظل
مترقب لأي أزمة أخرى...سأخشي أن أرى ريم أو دكتور جوزيف..
سامحني يا أخي لكنني أصبحت أكره هذا المكان... أريد العودة لمن
ساعدوني على أن أبنى نفسي فربما استعيد أحلامي.. وليس بالضرورة أن
أحقق ما أريد هنا... ربما سأفعل نفس الشيء في موطني.. سأتعلم كيف
أنجح... أما عن علمهم المتقدم فيمكنني أن أنال منه حتى وأنا في
موطني فقط ببعض الجهد الزائد.. سأكون الأفضل مرة أخرى مدام
سأعود لمن كانوا دائماً عوناً لي...فهم وحدهم سيساعدونني على
اجتياز هذه الازمة.

مال جاسر ناحيته:

- امنحني فرصه...سأنجح في مساعدتك....نحن مازلنا في البدايت..
وكل شيء سيكون على ما يرام.

هز عمير رأسه في يأس:

- صعب...صعب أن أنجح هنا.

وضع جاسر يده على كتف عمير:

- دعنا نحاول.

ريت عمير على يد جاسر:

- لم يعد لهذا الكلام فائدة...الحجز تم بالفعل وسأغادر بعد غد إن
شاء الله.

جذب جاسر يده من تحت كف عمير بعصبيه:

- كما تريد...فلترحل... ولم لا ترحل..أخي ابن أمي وأبي...رحل دون أن يخبرني..أو حتى يودعني فلم ستفعل أنت؟.
- شعر عمير بالألم من أجله لكنه لم يكن في وسعه فعل شيء فقال:
- جاسر..أخيك رحل لتعيش أنت.
- وأنت...هل سترحل لأعيش؟!
- صمت عمير قليلاً :
- بل لأعيش أنا.
- حدق جاسر في وجهه لحظات ولم يعد في مقدوره قول المزيد فأدار محرك السيارة لينطلق بها مرة أخرى حتى وصلا إلى منزل عمير دون أن يتبادلا كلمة واحدة، فالتفت عمير ينظر له للحظات ثم فتح الباب ليخرج لكنه استدار لينظر لجاسر عبر النافذة ثم مال إليها قائلاً:
- سأراك قبل أن أسافر..أليس كذلك؟!
- عقد جاسر حاجبيه ولم يجب أو حتى يلتفت لعمير الذي تألم لتصرفه لكنه لم يألمه فاعتدل ليعد إلى منزله فسمع جاسر يقول:
- لا تسافريا أخي ابقى من أجلي.
- التفت إليه عمير ذاهلاً متألماً:
- "...كفاك يا جاسر بالله عليك.... لا تزيد همي ..."
- جاسر... دعني أرحل... من أجلي.
- قفزت العبرات من عين جاسر ولم يزيد حرفاً واحد بل ركب السيارة وانطلق بها مبتعداً.
- ليتك تفهم يا جاسر...ليتك تفهم.

.....

أوقف ياسين سيارته قبل أن يقترب من المشفى، كان يشعر بالاختناق... أراد أن يستعيد هدوءه قبل أن يذهب لابنته.. كانت كلمات عمير تتردد في عقله بلا هوادة.. فالأول مرة يحدثه على أنه أباه فعلاً... لأول مرة يخرج مشاعره وألامه التي شعر بها طوال السنوات التي عاشها بدونه، كلمات ألمات ياسين حقاً...أراد أن يخبره أنه لم يكن يعلم بوجوده...ولكن هل كان سيهم ذلك!.. مرت السنوات

وكبر عمير بلا أب... فأني كلام هذا يمكن أن يعوضه .. لكنه كان مندهش أيضاً من كلمات عمير لديفيد...كيف عرف كل ذلك...كان على ياسين أن يبعده...لقد أضطر لمهاجمته فقط كي يبعده عن ديفيد وأعوانه...فهو لا يعلم كيف سيكون رد أعوان ديفيد على كلمات عمير تلك... عقد حاجبيه محدثاً نفسه... "أكنت تحميه يا ياسين...بعدهما فعله؟؟.. نعم كنت أحميه..بيد وأنتي أخطأت بظني به؟؟..هل كذب علي فقط بفعل صدمته؟؟..!" رفع كفه التي لطم بها عمير وشعر بمزيد من الألم وعقله يعيد كلمات عمير...

" لكرم تمنيت أن تضمني إلى صدرك بحب أبوي صادق.... ولكن لم أتلق منك غير لطمة على الوجه والعديد من الاقتراءات والاتهامات" ضم قبضته بقوة حتى هرب الدم منها ، وارتسمت قي ذهنه صورة ديفيد المرتبكة فردد:
- سأؤكد من أمرك ديفيد....وحينها ستري.

.....

هندمت دينا حجاب ابنتها على رأسها التي كانت جالسة على الفراش بكامل ثيابها استعداداً للرحيل ثم احتضنت وجهها بكفها وأطبقت قبلتها بين عينيها قائلة:

- حمداً لله على سلامتك يا بنيتي ، أخيراً سنعود للبيت.
ابتسمت ريم قائلة :

- الحمد لله يا أمي.... ألم يأتي أبي بعد؟؟
رفعت دينا عيناها الى باب الغرفة قائلة:
- لا أعلم لم تأخر؟.

جلست بجانب ابنتها على طرف الفراش مردفة:
- أعتقد أنه في الطريق....لن يتأخر أكثر من ذلك.
صمتتا لحظات ثم قالت ريم في تردد:
- أمي... هل.... هل جاء عمير لزيارتي؟

نظرت دينا لابنتها التي كانت تنظر للأرض ولم تجبها فرفعت ريم
عينها إليها قائلة:

- لم لا تجبني أمي؟!!

أشاحت دينا بوجهها بعيداً ثم قالت:

- لأن أباك طلب منك ألا تتحدثي في أي شيء هنا... وسيكون له
حديث معك بعد العودة للمنزل فلا تتعجلي.

ثم ضمتها إليها مردده:

- لا تتعجلي.

التفتا للباب عندما طرقه أحدهم وفتحته لتجدا ياسين أمامهما وكان
يبدو عليه الإرهاق والتعب والكثير من الحزن مما ألم زوجته كثيراً
التي أسرعته نحوه:

- يوسف... أين كنت؟!... لم تأخرت؟

نظر لها دون أجابة ثم اقترب من ابنته ليقبلها قائلاً:

- كيف حال طفلي الصغيرة؟!!

نظرت له ريم قليلاً ثم قالت:

- أنا بخير والحمد لله، لكن السؤال هو كيف حال أبي العزيز؟!!

قالتها وهي تحديق في وجهه وكأنها تقرأ ما يخفيه فالتفت ياسين يرمق
زوجته بشك إلا أنها هزت رأسها لتتفي ما قد فكر فيه من إطلاع ريم
على ما نشر بالجريدة فعاد ينظر لابنته قائلاً:

- لا تقلقي على أبيك.... سأذهب لأتحدث إلى الطبيب ثم أعود لنغادر
معاً.. انتظراني.

لم يغيب عنهما طويلاً فقد عاد مع الطبيب الذي قدم لهما بعض
النصائح وتحدث إلى ريم في ود كي تحرص على نفسها.

ما أن دخلوا منزلهم حتى استقبلهم الخادمون في سعادة وإن كانت سعادة
شبه مقيدة بسبب ما قرأه الجميع في الصحف وقد شعرت ريم بهذا
لكنها لم تفهم سر هذا التحفظ، وضعوها في سريرها وأرادا الخروج
فأوقفته ريم قائلة:

- أبي.. لقد وعدتني بالحديث بعد أن نعود للمنزل...وها نحن عدنا.
قالت دينا:

- ريم..أنت لا زلتى متعبت..

قاطعتها ريم:

- لا أُمي..أنا بخير، هذا ما قاله الطبيب...ولا تخشوا علي لن أعيده
الكره...سأكون هادئاً إن شاء الله.

نظرت دينا لزوجها الذي شرد قليلاً ثم قال:

- حسناً يا ريم...لقد وعدتك...ولكن إذا شعرت بأنك تفقدين
أعصابك..... فلن نفتح هذا الموضوع مرة أخرى.

تشبثت دينا ياسين الذي ربت على يديها مطمئناً ثم جلس أمام ابنته
بينما جلست دينا بجانبها واحتضنت كفها بحنان.

.....

جلس عمير في الردهة شاردأ كالعادة وكأنما لا يشعر بأمه التي
جلست بجانبه منذ أن عاد إلا أنه لم يتبادل معها كلمة واحدة لكنها
لم تحتمل الصمت طويلاً فقالت:

- ماذا حدث ماذا فعلت؟!

بعد لحظات صمت أخرى قال:

- لا شيء.

- ماذا؟!..... كيف...ألم تفعل شيئاً حياًل ما نشر في الصحف؟!

- وماذا يمكنني أن أفعل؟!

- ماذا أصابك يا عمير...منذ متى هذه اللامبالاة؟!

مط عمير شفثيه في سخرية:

- لامبالاة.... ولم لا؟ صفة جديدة من الصفات التي وضعت في قائمتي.

رفعت رجاء يدها تمسح على رأسه:

- عميري.... أعلم أنك تتألم كثيراً...وأعلم أنني لي دور مباشر في هذا

الآلم، لكن...ألا ترى أنه من الأفضل التوقف قليلاً مع النفس وإعادة

النظر للأمور، بدلا من الهرب منها.

وقف عمير قائلاً في عصبية:

- لم يصبر الجميع على أنني أهرب، أنا..... لا..... أهرب.
مطت رجاء شفيتها قائلة:
- حسناً..حسناً...أنت لا تهرب.
نظر لها مستنكراً:
- أمي لا تشعريني وكأنك تهاودين طفلاً.
- لا يا بني...أنا لا أعاملك كطفل....كل ما هناك أني أريد أن أفهم
سر إصرارك على السفر.
- اعطيني سبب واحد للبقاء.
- عندما نصاب بجرح في أيديناهل نقطع أيدينا مباشرة أم نحاول
مداوة الجرح أولاً.
- لقد فعلت ما بوسعي.
ابتسمت رجاء قائلة:
- كنت في الماضي أثق في هذه الكلمة لأنك ما كنت تقلها إلا
وبعدها أجد نجاح باهر وحسن تصرف في أي مشكلة تواجهك، كنت
دائماً تعود لي قائلاً ... لقد فعلت ما بوسعي...لكن هذه المرة لا أشعر
بذلك.
مط شفيتها في حزن:
- أنت قلتيها...في الماضي.... وأنا لا أشعر أن الذي يتحدث لك الآن هو
نفسه الذي كان يتحدث معك في الماضي، أنا بشر لا آله، أوثر
وأتأثر.... ولقد تعبت ونضبت طاقتي، لم أعد أحتمل....لم أعد أحتمل.
- إذن فأنت تستسلم.
نظر لها معقود الحاجبين فأردفت:
- لا أجد لها أي مسمى آخر.
وقف قائلاً:
- فليكن....أنا لست نادم على شيء.
أراد الانصراف فأوقفته أمه قائلة:
- وأختك؟!
توقف لحظات دون أن يلتفت لها ثم أكمل طريقه قائلاً:

- سيأتي يوماً وسأقوى على مقابلتها ، سأدخل حجرتي.... أنا متعب..
وبحاجه إلى الراحة.

همست رجاء:

- بل إلى المزيد من الهروب والاستسلام... ترى هل الحل أن تبتعد
فعالاً؟.... أرجو ألا نندم على ما نفعل.

.....

الفصل السابع عشر

صمتت ريم طويلاً بعد أن انهى أبوها الكلام لكنها ظلت هادئة كما
وعده بينما كان يراقبها هو ودينا ثم قالت:

- إذا فقد أخبرك أنه ابنك... لم كذب في البداية؟... هل كان
خائفاً أم مصدوماً؟!

- لا أعلم.

- يالها من قصة لا يصدقها أحد.... ليتك تأكدت مما قاله لك
صديقك أبي.

- نعم... أن أيضاً أتمنى لو أنني فعلت.

هزت رأسها لتستعيد الكثير من الأمور التي حدثت ولم تستطع
تفسيرها قائلة:

- عمير عرف بالأمر منذ يوم الخطبة.... وأخفى علي لأنه لم يحتمل.
سألها أباه باهتمام:

- وكيف عرفت ذلك؟!

- عندما أوصلتهم إلى المنزل تحدثت إلى عمير وكلانا في غاية
الدهشة مما حدث خاصة أن الواضح أمامنا أن سمته سابق معرفة ليست
طيبه بينك وبين أمه ، وقد استنكر عمير ذلك لأنها لم تزر انجلترا
أبداً، فأوضحت له أنه ربما التقت بك قبل أن تهجر، فبدأ يظهر التوتر
على وجهه وقد تضاعف عندما أخبرته اسمك بالكامل، فأصر على أن
أغادر المكان ولم أفهم لم... وتغير بعدها معي كثيراً.... صحيح كان
يعاملني بجفاء لكنه كان حزيناً جداً... والان فقط فهمت لماذا؟!.

مسكين عمير عانا كثيراً دون أن يخبرني. ولكن لم...لم لم
يخبرني؟!؟

نظرت دينا لزوجها وكأنها تؤنبه على ظنه بابنه...فمن المستحيل أن
كل ما تقصه ريم كان محض تمثيل من عمير أما ياسين فبدأ عقله
يهدأ أكثر...وشعر أن براءة ابنه من تلك التهم التي وجهها إليه بدت
واضحة للعيان.

فأردفت ريم:

- أبي.. مادام هو أخي...وابنك...لم هو ليس معنا...ولم لم يأتي
لزيارتي في المشفى؟!؟

شعرت دينا بالقلق فياسين لم يخبر ابنتهما بكل شيء بل أخفى عليها
الكثير وأهمها شكه في عمير وعدم ثقته فيه، فقالت:
- أعتقد أنك متعبت ويجب أن ترتاحي.

قالت في عند:

- أنا بخير....ويجب أن أتحدث مع عمير....هل هذا ممكن؟!؟
قال ياسين في عصبية:

- لا....غير ممكن.

قالت ريم في دهشة:

- لم يا أبي؟!؟

نظر لها ياسين طويلاً ثم قال:

- لأنك ما زلت متعبت...ارجوك ريم...ليس الآن.

زفرت في عند لكنها لم تضيف شيئاً. وقف ياسين قائلاً:

- حسناً.... نامي الان...فأنت بحاجة إلى الراحة.

ثم اقترب ليقبلها بين عينيها مستطرداً:

- ولا تقلقي..... سيكون كل شيء إن شاء الله على ما يرام.

غادر الغرفة تاركاً إياها مع دينا ونزل للأسفل قائلاً لمديرة المنزل التي
كانت تقف في الردهة:

- سأدخل مكتبي الآن.. ولا أريد أي إزعاج.... وإذا سألتك السيدة عني.... أخبريها أنني أردت أن أكون وحدي.

لم ينتظر منها تأكيد لما طلب بل دخل حجرة مكتبه مباشرة وجلس خلفه وارتكز بمرفقيه عليه ليريح ذقنه على كفيه المعقودتين أمامه:

"...حسناً يا ياسين.... لقد اتضح لك الكثير من الامور الان... يجب أن تضع حداً لهذه المهزلة.... لكن هناك أمر يجب أن أتأكد منه أولاً" نظر إلى الهاتف الذي استكان على ركن مكتبه ثم مد يده ليطلب رقماً يحفظه عن ظهر قلب وما أن وجد مجيب:

- مساء الخير.... أنا الدكتور ياسين يوسف.... أريد أن أتحدث إلى السيد خالد فوزي نعم الأمر ضروري...

بعد لحظات صمت طويلة قال:

- ماذا؟!... لكني أريده فعلاً.... نعم يمكنني أن أقابله في أي مكان... نعم أعرفه.. هو هناك.. سأذهب على الفور... شكراً لك.

وضع سماعة الهاتف وغادر مسرعاً لكنه ما أن اقترب من باب الخروج سمع دينا:

- يوسف.... هل ستخرج ثانية.

التفت لها:

- نعم...

- لكن من المفروض أن نتحدث... كنت.. أريد... أ.... قاطعها ليكمل طريقه:

- ليس الان.. دينا... ليس الان.

مطت شفيتها قائلة:

- عدنا ثانية... ليس الان، لن تتغير أبداً.

.....

جلس ياسين في ردهة شقة أنيقة في حي هاديء من أحياء لندن يتابع خالد الذي كان يودع شخص على الباب ثم أغلقه عائداً إليه ليجلس أمامه مبتسماً:

- ترى ما سر هذه الزيارة الضرورية؟!
عقد ياسين حاجبيه قائلاً في لهجه يشوبها الغضب:
- منذ متى وأنتم تعرفون بأمر ديفيد؟!
حدق خالد في وجهه قليلاً دون تعليق فأردف ياسين في عصبية:
- ولمَ لم تخبروني؟!
قال خالد في لهجه جامدة:
- بدايةً.. لأننا كنا نشك.... ولم نكن بعد وصلنا لمرحلة اليقين،
ثانياً منذ متى ونحن نخبرك بكل شيء دكتور ياسين.
ضاحت عينا ياسين قائلاً:
- دكتور ياسين.... الحديث رسمي إذن سيد خالد.
- هو كذلك مادمت تتحدث عن عملنا.
فرح ياسين كفيه في عصبية قائلاً:
- كان يجب أن تخبروني، على الأقل لأكون حذراً.
- على النقيض، حذر ك كان سيشرح ديفيد بأنك تشك فيه
وبالتأكيد كان سيخبر أعوانه وحينها قد يلجأوا لأي وسيلة أخرى...
أكثر عنفاً.
قال كلمته الاخيرة ببطء شديد ثم أردف:
- صحيح أننا نعمل على حمايتك أنت ومن هم مثلك، لكن عيوننا لا
يمكن أن تتبعكم طوال الوقت لذا فنحن نحرس بكل الوسائل
الممكنه أن تكونوا بعيدين عنهم، ولن ننسى أبداً أننا تهاونا في
الماضي ففقدنا الكثير من العقول المبدعة والمفكرة والتي لا
تعوض..... فاعلم أن ما نفعل ليس إلا حرصاً عليك.
صمت ياسين ثم قال:
- لكن كيف تجعلوني أتعامل بحرية مع هذا الخائن.... وتتركوه
يطعنني في ظهري بهذه السهولة، وكنت أنا الوحيد الأعمى...والجميع
كان على صواب وأنا فقط كنت على خطأ، حتى عمير عرف حقيقته
وكان أذكى مني.
- رب ضارة نافعة يا دكتور.

نظر له ياسين مندهشاً وقال صائحاً:
- نافعة... أي نفع هذا تتحدث عنه؟؟، أنت لا تفهم ماذا حدث... لقد
اتهمت عمير بأبشع الاتهامات في الوقت الذي كان هو يريد
مساعدتي... أي نفع في هذا؟؟.... والحقير ديفيد كان يعلم ذلك... تباً
..تباً.

- اهدأ... دكتور ياسين أنت لم تخطيء عندما صادقته ونحن لم
نمنعك لثقتنا في أنه ليس له أي نشاط سياسي أو ديني، كما أنه ليس
من الشخصيات التي تتصف بالمكر أو غيره، هو يعتبر نفسه شخص
انجليزي محض لم يفكر أبداً في الهجرة لاسرائيل ولا حتى معاونتهم.
- لم فعل هذا إذن؟!

- لأنه يريد هذا المنصب وبشده، ولسوء حظه وحظك كنت أنت
منافسه الوحيد، كما أن أعوانه عندما اقنعوه بمساعدتهم له كنت
أنت بعيد عن الصورة ولم تصبح منافسه إلا مؤخراً، فما كان يمكن أن
يتراجع أمامهم خشية أن يؤذوه. كما أن قرأتك لشخصيته ليست
خاطئه فهو ليس سيء لكنه أحياناً يفكر بأنانية مدام لن يؤذي أحد.
- لكنه أذاني.... وبشدة.

- لم يكن يعلم ماذا سيفعلون ولكنه في نفس الوقت لم يمنعهم من
فعل أي شيء.

- لم يبدو لي وكأنك تدافع عنه؟!
ضحك خالد:

- أنا... لا طبعاً، سأعود حالاً.

تركه خالد وأحضر كوبين من العصير البارد ليقدمه له ثم قال:
- أشرب.. لعلك تهدأ، أريدك أن تخبرني ماذا حدث بينك وبين ديفيد
وعمير عندما ذهب الأخير لزيارته؟

رمقه ياسين قائلاً:

- ألا تعلم ما دار؟!

ابتسم خالد قائلاً:

- يسعدني أنك تولينا هذا الكرم من الثقة دكتور ياسين، لكننا لم نصل بعد لإمكانية سماع ما يقوله الناس إلا عن طريق وسيط، فهلا أصبحت هذا الوسيط وأخبرتنا ما دار بينكم.
قص عليه ياسين ما حدث بجمل قصيرة ووافيه وما أن أنهى حديثه حتى سأله خالد:

- ألم تشك في ديفيد بما قاله عمير؟!
- لقد شككت فيه قبل هذا... أي منذ حدثتني أنت عنه وهذا ما دفعني لزيارته في بيته أردت أن أعرف كيف سيستقبلني وبأي كلمات سيحاول أن يواسيني، وحدث ما توقعته... كان متوتراً جداً رغم أنه حاول إقناعي أن سبب هذا التوتر غضبه مما حدث ومما أصابني، لكنني لم أقتنع.

رفع خالد إحدى حاجبيه:

- وما دام الأمر كذلك؟! لم دافعت عن ديفيد وهاجمت عمير؟!
وقف ياسين متجهاً إلى النافذة لينظر للخارج قليلاً ثم قال:
- لأن ديفيد لو شعر أنني صدقت عمير لكان فزع إلى أعوانه الذين قد يمسوا عمير بأي سوء، خاصة أنه كان يتحدث بثقه غريبة وكأنه يعرف عنهم الكثير، أو لعل عمير نفسه يسعى خلفهم أكثر بهدف حمايتي فيعرف ما لا يجب أن يعرف فيتخلصون منه... أي في كلا الحالتين كان سيتعرض لخطر كبير.

سمع خالد يقول:

- أي بعبارة مختصرة... كنت تحمي ابنك.
التفت له ليري ابتسامته عريضة على شفقيه فقال:
- علما تبتسم؟!

وقف خالد متجهاً نحوه قائلاً:

- على أنك بدأت تشعر بمشاعر الاب تجاه هذا الشاب وتريد أن تحميه....
تحميه كاب.

تطلع له ياسين قليلاً ثم قال:

- أكنتم تعلمون أنه ابني؟!

- حدق خالد في وجهه ثم قال:
- لم نعرف إلا من قريب.
- ومتى كان هذا القريب؟!
- دكتور ياسين... لا اعتقد أن هذا يهه كثيراً، ففي كل الاحـ...
قاطعها ياسين قائلاً:
- إنه يهمني أنا،... متى عرفتم أن عمير ابني؟!
عاد خالد يجلس قائلاً:
- حسناً سأخبرك.... نحن اهتمامنا بك كان مقصور على حياتك
هنا...صحيح أننا علمنا أنه كان لك زوجة في موطنك الأصلي
لكنها لم تدخل دائرة اهتمامنا.... وهذه نقطة قصور نحاسب أنفسنا
عليها كثيراً الان ... المهم ... أي طالب يأتيك لا يدخل دائرة
اهتماماتنا أيضاً خاصة إذا كان مسلم وعربي لهذا لم نهتم بعمير...
حتى... حتى علمنا أنهم مهتمون به، وجاءتنا أخبار تؤكد أنهم يبحثون
خلفه ، فظننا أنهم يريدون تجنيده وهذا أدهشنا كثيراً فمن الواضح
أنه لم يكن له أي تعامل مع يهود أو صهاينة ولهذا تابعناه نحن أيضاً
وعندما قرأت اسمه أول مرة ظننت أنه تشابه أسماء لكن بمزيد من
البحث علمنا أن أمه هي نفسها مطلقتك وكانت مفاجأة لنا فعلاً.
صمت خالد فقال ياسين:
- ما زلت لا أعرف متى كان هذا؟
أشاح خالد بوجهه قائلاً:
- قبل دخول ابنتك المشفى.
اقترب ياسين منه بعصبيه قائلاً:
- وكيف لا تخبرني أنت لا تعرف كيف كنت وماذا حدث بيني
وبينه...وكم كان يمكن انقاذ الكثير لو كنت أخبرتني.
وقف خالد قائلاً:
- لم نكن نعلم ماذا يريدون منه?...فكان هذا هو شاغلنا الوحيد.
صاح ياسين:

- كان يجب أن تخبرني يا خالد؟!... أنتم لا تفكرون إلا في مصلحتكم فقط.. لا يهمكم أي شيء آخر.
- ياسين..... المصلحة التي تتحدث عنها.. هي مصلحتك ومصلحة عمير ومصلحة الجميع.... نحن نعمل من أجلكم جميعاً.
- أحياناً أشعر أنكم لا تعملون إلا لمصلحتكم.
- فليكن... ما زال الهدف واضح على الأقل بالنسبة لنا... وما حدث بينك وبين عمير يمكن اصلاحه.
- أراد ياسين أن يتكلم لكنه توقف بعد أن سمع صوت رنين الهاتف الذي اتجه إليه خالد في هدوء وما أن عرف نفسه في الهاتف حتى ظل ينصت لما يقال دون تعليق لكنه كان ينظر لياسين من حين لآخر مما أشعر ياسين أن له علاقة بهذا الهاتف، أنهى خالد الحوار ثم اقترب منه قائلاً:
- اجلس يا دكتور ياسين.
- مط ياسين شفثيه محدثاً نفسه:
- "...المزيد من الرسمية...ماذا وراءك يا خالد؟!...."
- جلسا ثم قال خالد:
- طبعاً مشكلتك مع ابنك أنت وحدك القادر على حلها، لكننا أمام مشكلة أخرى يجب أن نعمل على حلها، لقد أصبح ديفيد قريب جداً من المنصب بعد ما تم نشره عنك في الصحف.
- نظر له ياسين في استنكار:
- المنصب... تعيد الحديث عن هذا الشيء... أنت لا تدري ما بي.
- قال خالد في حزم صارم:
- دكتور ياسين.... أرجوك لن نعيد الكلام في هذا الأمر... عد لعقلانيتك المعهودة.
- أنا لم أعد أريد هذا المنصب...فيه خسرت الكثير.
- مال خالد ناحيته:
- لكننا ما زلنا نريده.
- ياسين في عصبية:
- وماذا تريدني أن أفعل...أقتل ديفيد لأجلس مكانه.

مط خالد شفتيه وقال في هدوء:

- ليس تماماً.

حدق ياسين في وجهه مستنكراً فأردف خالد:

- اسمعني جيداً دكتور ياسين، صحيح أن المنصب أصبح بعيداً عنك
ومن الصعب أن نعيدك إليه وحتى لو فعلنا سنكون بهذا ندفع أعداءنا
للتخلص منك بأي وسيلة لأقصاءك من أمام حليفهم ديفيد، لهذا نحن
مضطرين لقبول فوز ديفيد لهذا المنصب مادام في النهاية سيعمل
لمصالحتنا.

عقد جوزيف حاجبيه:

- ديفيد سيعمل لمصالحكم أنتم..... كيف هذا؟!

- ولم لا؟!

- أنت تريد أن يخون وطنه.

ابتسم خالد في سخرية:

- وطنه... لا تجعلني أضحك.... ديفيد لم يعتبر اسرائيل أبداً وطناً له،
هل سبق وحدثك عنها أو عن مشاكلها؟

هز ياسين رأسه:

- لا ولكني أيضاً لم أحدثه أبداً عن مشاكل أي دولة عربية فهل
هذا يجعلني قابل لخيانة عروبتى.

- بالطبع لا، لأن لك أنشطة عربية وإسلامية لا تخفى علينا ولا حتى
على أعوانه، أما ديفيد فليس له في ذلك ونحن متأكدون مما نقول.

كما أن تعاونه معهم جاء على مضض منه بعد أن أقنعوه أنهم فقط
يمكنهم أن يساعدوه لنيل المنصب. فكل ما يهم ديفيد هو المنصب
فلو ناله على أن يعمل معنا فلن يمانع.

- وكيف تثقون بشخص خائن؟!

- نحن لن نثق فيه، كل ما نريد أن يثق هو فينا ليعمل لمصالحتنا.

هز ياسين رأسه بعدم اقتناع ثم قال:

- ربما، لكن كيف ستقنعوه بشيئاً كهذا؟!

ابتسم خالد في مكر:

- ليس نحن من سنقنعه.

تجهه وجه ياسين :

- من سيفعل إذا؟

- أنت.

قالها خالد وهو يشير إليه بسبابته، فانتفض ياسين:

- أنا، كيف؟!..

- صدقني ..أنت وحدك يمكنه ذلك، وسأخبرك كيف، ديفيد

الان أصبح يثق في نفسه قليلاً بعد أن اقنعتك أنك لا تشك فيه،

لكنك في نفس الوقت لمحت له أن ثمن خيانتك لك يجب أن يكون

غالياً، وهي جملة موفقه منك جاءت في وقتها لأن مهما وصلت ثقته

بنفسه سيبقى يذكر هذه الجملة، والتي لن تجعله يرتاح وسيزيد لديه

تأنيب الضمير كلما أكدت له ثقته فيه، ولن تؤثر فيه يهوديته

التي لا يؤمن بها وليس له منها إلا الاسم، فهو يعيش للدنيا ومن أجلها

وهي هدفه الوحيد لهذا يمكنه أن يتحالف مع الشيطان نفسه لينال ما

يريد، المهم أن يثق في من يتعامل معهم دون أن يشعر بأي ألم نفسي

خاصة إذا علم أننا لا نلجأ لمثل الوسائل التي يلجأ لها أعوانه وأنا

نهدف من هذا تحقيق السلام وليس الحرب كما يريدون هم وأنا لم

نفكر في لحظة في التخلص منه لكي تنال أنت المنصب وهذا ما

نريدك أن تقنع به ديفيد، ويجب أن يكون ذلك بسرعة لأننا دائماً

نفضل طرق الحديد وهو ساخن.

- ما زلت لا أفهم...كيف أقنعه؟!

- هو الان مقتنع أنك لا تعرف شيئاً.

- نعم...

- حسناً، أول شيء ستفعله في الصباح أن تذهب إلى الجامعة بشكل

طبيعي وتقابله بطريقة باردة غير ودودة، فسيجلس مع نفسه ليخمن هل

هذا بسبب أنك عرفت شيئاً وربما يتصل بأعوانه ليسألهم وهم لن

يعرفوا شيئاً بالطبع، فلن يجد أمامه غير أن يأتي ليتحدث معك

ليطمئن نفسه عندها..... تبدأ في حوار ودي بعض الشيء عن

الصداقته وقيمتها بالنسبة لك، ثم تفضاه بمعرفتك بكل شيء وأنا
من أخبرناك....

قاطعها ياسين قائلاً:

- أنتم...أنتم...بصفتكم التي أعرفها.

- ليس تماماً، سأخبرك كيف ستحدثه عنا، المهم عليك أثناء
إخباره أن تؤكد له جهل أعوانه بما نعلم نحن، بمعنى آخر أن تشعره
أننا أقوى وأسلوب عملنا أفضل، وبالتالي إذا أردنا أن نعيدك للصورة مرة
أخرى فهذا سهل وليس بالأمر الصعب، لكنك ستترك له المنصب
على شرط.... أن يتعاون معنا دون أن يترك أعوانه...أي يخبرنا بما
سيخبرهم به.... فلا يكون لديهم من المعلومات ما ليس لدينا، وسيتم
هذا بشكل طبيعي باستمرار صداقتك به وبالتالي مقابلتك معه
ستكون طبيعية. يجب أن تشعره بالامان التام معنا...هل تفهمني؟
حك ياسين جبهته:

- نعم، لكنني لست مقتنع بأن ديفيد يمكن أن يوافق على هذا.

- هذا يتوقف على مدى نجاح أسلوبك في اقناعه. يجب أن تركز أيضاً
على أنه خانك فعلاً، ويجب أن تقنعه أن هذا هو رد الاعتبار الوحيد
المقبول بالنسبة لك.

- وماذا لو أصابه الخوف ورفض خشية أن يعلم أعوانه؟!؟

- المفترض أنه سيخبرنا ما سيخبرهم به، أي لن يخفي عنهم شيئاً وكل
ما نريده أن يكون لدينا ما لديهم من معلومات لنكون على حذر دائماً.
- وهل هذا يكفيكم؟! أقصد كونكم تعرفون ما يعرفون فقط.

ابتسم خالد قائلاً:

- يعجبني ذكائك دائماً دكتور، نحن سنكتفي بهذا في البداية إلى
أن ننال ثقته تماماً، ثم سنحدد له ما يقل لهم وما لا يقل لهم، دون أن
نعرضه للخطر طبعاً، وهذه مهمتنا.

أطرق ياسين برأسه قليلاً فقال خالد:

- هل فهمت ما نريدك أن تفعله بالضبط.

أوما ياسين برأسه فأردف قائلاً:

- يمكنك الإنصرف الان.
وقف خالد ليتجه إلى الباب معه قائلاً:
- حسناً....لا تنسى حدثه بسرعة ولا تأخر.
- إن شاء الله.
أغلق خالد الباب وعاد للردهة ليخرج من إحدى حجرات الشقة رجل
آخر اقترب من خالد ليجلس بجانبه قائلاً:
- هل تظن أنه سينجح فعلاً في إقناعه؟
- في الحقيقة أنا أعتمد على ضعف شخصية ديفيد أكثر من قوة
شخصية ياسين.
نظر له الآخر قليلاً ثم قال:
- لم لم تخبره أن ابنه سيترك البلاد؟
صمت خالد قليلاً ثم قال:
- لا أريده أن يركز في أي أمر آخر غير ما اتفقنا عليه. أنت تعلم مدى
أهمية هذا الامر بالنسبة لنا.
- أحياناً تصبح قاسياً يا خالد.
مط خالد شفطيه قائلاً:
- أمر ابنه هذا أمر وقتي يمكن أن يحله في أي وقت، أما ما نحن بصدده
لا يحتمل أي تهاون أو تأجيل، إما نحن أو هم..... وأنا أقسمت منذ زمن أن
أفعل المستحيل لنفوز نحن دائماً حتى لو تركناهم يظنوا أنهم
الفائزون.

.....

الفصل الثامن عشر

- جلس ياسين في مكتبه بالجامعة في صباح اليوم التالي ينقر سطحه
بأصابعه وقد علق بصره بالباب مترقباً:
- "...حسناً..ها أنا فعلت ما يريدون ، والتقيت بديفيد بطريقه غير
طبيعيه...فهل سيأتي ديفيد كما يظنون؟....سنرى."
وقبل أن يستمر في السؤال وجد من يطرق الباب فأذن له بالدخول ليرى
ديفيد الذي أغلق الباب خلفه ليجلس أمام مكتب ياسين قائلاً:

- جو.... هل أنت بخير؟!
رد ياسين بوجه جامد:
- ماذا تعتقد؟!
فنظر له ديفيد قليلاً ثم قال مواسياً:
- لا تحزن يا جو.... أنت أفضل من الجميع، وسيفهم الآخرون ذلك... لن
ينجح أحد في النيل منك، أنت أقوى من ذلك.
ارتسمت معالم السخرية على وجه ياسين وهو يقول:
- لقد نالوا مني بالفعل... يا صديقي.... ولكن أكثر ما يؤلمني أن تأتي
الطعنه من أقرب الناس إلي.
عقد ديفيد حاجبيه وقال في توتر:
- هو لم يكن منك قريب أبداً.... وإذا كان كذلك ما جرؤ على مثل
هذه الفعلية.
- عمن تتحدث؟!
ارتبك ديفيد قائلاً:
- عن.. عمير.. أليس هذا من تقصده؟!
هز ياسين رأسه:
- لا ليس هذا من أقصده؟
- من... من تقصد إذا؟!
مال ياسين ناحيته قائلاً ولكنه حادة:
- حقاً لا تعرف!!
زاد القلق والتوتر داخل ديفيد الذي شعر أن ياسين يخفي عليه شيئاً ...
".. ترى لم يتكلم هكذا؟!... لقد اتصلت بحاييم وأكد لي أنه من
الصعب أن يكون عرف شيئاً..... لعله عمير هذا الذي أقنعه...، لولا أنني
خشيت أن يتهمني حاييم بالغباء إزاء تصرفي مع هذا الشاب لأخبرته
بالامر، أنا غبي... لقد كنت قمت في التوتر أثناء وجود هذا الشاب...
ولابد أن جوزيف شعر بذلك"
- بما تفكر؟!
انتفض مكانه بعد سؤال ياسين فقال الأخير:

- إهدأ...ماذا أصابك؟!
- هز ديفيد رأسه:
- لا شيء...لا شيء.
- صمت لحظات ثم قال:
- هل تحدثت مع هذا الشاب المسمى عمير، هل اتهمني بشيء جديد؟
- حدق ياسين في وجهه قليلاً ثم قال في اقتضاب:
- عمير.... أعتقد أنني أوضحت موقفي تجاه ما قال.
- نعم...فعلت.
- ولكن...
- لم يكمل فظل ديفيد يحدق في وجهه مترقياً ثم قال:
- ولكن ماذا؟!
- وقف ياسين ليدور حول المكتب ليجلس على الكرسي المواجه
- لديفيد ثم قال:
- أتعلم أنني أعتبرك فعلاً أعضاؤي رغم اختلاف ديننا.
- لم يعلق ديفيد بل كان يستمع لياسين بمشاعر مضطربة وتوتر بالغ، فأردف ياسين:
- هل سبق وتضايقت أني مسلم.
- هز ديفيد رأسه:
- لا...ماذا تقول؟...لا...لا...بالطبع لا.
- ولا أنا...لم أتضايق أبداً من كونك يهودي....لأنني تعاملت مع شخصك وعرفتك وأعجبت بك.
- وقف ياسين متجهاً إلى النافذة مولياً ظهره لديفيد مستطرداً:
- ورغم أن اليهود هم الاعداء الاصيلين للمسلمين..فأنا لم أخشاك أبداً.
- قال ديفيد مرتبكاً:
- العرب المسلمون أعدائهم كثيرون ، ليس اليهود فقط.
- هذا صحيح، ولكن دائماً يكون خلفهم اليهود، يدفعوهم نحونا.
- وقف ديفيد وقد بلغ قلقه مداه:

- ليس كل اليهود.
التفت ياسين مردداً كلماته:
- نعم، ليس كل اليهود....
ثم اقترب من ديفيد واضعاً يده على كتف الاخير قائلاً:
- وأنت من أكد لي هذا، أكدته لي.. حتى... أيام قليلة مضت.
قال كلمته الاخيرة وهو يضغط على كتف ديفيد بأصابعه الذي
انتفض من الضغط وشعر وكأن مخالب قوية قد انغرزت في لحم كتفه
بقوة، فأجلسه ياسين ليجلس أمامه مرة أخرى قائلاً:
- ولكم صدمت عندما علمت أن الطعنة التي تلقيتها في ظهري من
صديقي الذي وثقت فيه ولم أمسه بسوء أبداً.
مسح ديفيد عرق وهمي على وجهه قائلاً:
- جو... عما تتحدث؟!.... أي صديقاً هذا؟!
ياسين في نفسه:
"...حسناً لقد نجحت في إثارة قلقه تماماً.... فلا أطلق قذفتي الان.. ولنرى
رد فعله..."
- إنه الصديق... الذي طالما قدمت له يد المساعدة دون ضيق، الصديق
الذي علمته الكثير ولن أنكر أني تعلمت منه أيضاً، لكني ما كنت
أبدأ لأخونه أو أغيره.
ارتعشت يد ديفيد وهي تمسك بكف ياسين قائلاً:
- تكلم صراحة أنا لا أفهم شيء.
نظر له ياسين قليلاً ثم قال بعصبيه:
- لماذا... لماذا فعلت هذا؟! كل ذلك من أجل منصب لم أسعى إليه
أبدأ، كنت أفضل أن تأتيني لتخبرني مدى تعلقك بهذا المنصب
لأتركه لك بدلاً من أن تجعلني لقمته سائغاً لهم.
نظر له ديفيد بعينين زائغتين فأردف ياسين وقد تحولت عصبيته لألم
حقيقي:
- ليد مروني... ويحطموني، بل يجعلوني أكاد أخسر كل ما أملك، حتى
صديقي الذي أثق به، لم يتركوه لي، جعلوه خائناً، ولا تتصور أنهم

فعلوا هذا لسواد عينيك أو حباً فيك، إنما هو حباً في السيطرة والقوة لمزيد من الايذاء والقتل للآخرين، هدفهم السيطرة على العالم، وأنت كغيرك ممن يعاونهم.. مجرد وسيلته... إذا انتفت فائدتها تخلصوا منها، وحينها لن يجعلوا لك شيء.

لم يحاول ديفيد حتى النفي بل ردد في ذهول؛

- أنت تعلم..!! لكن كيف...كيف..!!؟

عاد ياسين للوراء قائلاً:

- كيف..عرفت؟! هل هذا هو كل ما يهمك؟! حسناً سأخبرك.... أنت

لك أعوان يساعدونك على الخيانة لتنال ما تريد أما أنا لي أعوان يعملون بشكل مختلف ليحصلوا على نتائج أفضل، صحيح أنهم طلبوا أن يساعدوني لأنال المنصب لكني رفضت وأصررت على أن أنا له بكفاءتي واجتهادي، وبالفعل حدث ذلك.... إلى أن أسلمني الصديق إلى من لا يؤمن.

شعر ديفيد بالالهم يسري في جسده لم يتصور أنه سيعرف بهذه السرعة في الوقت الذي أكد له حاييم أنه لن يعلم شيء، لكنه يعرف الكثير...بل يعرف أكثر مما يعرف هو.

أمسك ياسين كتفي ديفيد قائلاً:

- أجيبني يا ديفيد...لم فعلتها؟!... هل هونت عليك بهذه السهولة لتفعلها؟!!

هز ديفيد رأسه قائلاً في ألم:

- أنا لم أفعلها، كنت مجبر... كنت أريد هذا المنصب بأي شكل ولم أتصور أنك قد تتنازل عنه أبداً، لكني لم أكن أعرف ماذا سيفعلون بك، وقد حذرتهم كثيراً من مسك بأي سوء.

ابتسم ياسين قائلاً في سخرية:

- أشكرك.... لقد أتى تحذيرك ثماره.

- صدقيني أنا لم أعرف أبداً ماذا سيفعلون، حتى عندما أشاروا لي أنهم قد ينالوا من سمعتك ضحكت...ضحكت لأنك أبعد من أن يمسك

أحد أو يسيء لسمعتك، لم أكن أعرف أن هناك أمور قد يستغلونها بهذا الشكل... لم أكن أعرف.

- وبعد أن عرفت.

شعر ديفيد وكان ياسين يقدم له طوق نجاه:

- أنا نادى يا جوزيف... صدقني... ،لم أعد أريد هذا المنصب، لا

أريده... سأتنازل عنه وسأسعى معك ليستعيدوا الثقة فيك وتصبح

المرشح الوحيد له... سأفعل أي شيء ..لتسامحني.

نظر له ياسين قليلاً ثم قال:

- لم يعد يجدي، أولاً لأنني لم أعد أطيق هذا المنصب الذي من البدايات

لم أكن أريده، وثانياً.. أنك إذا فعلت ذلك تمنح أعوانك فرصة

ذهبية ليتخلصوا مني تماماً وهذه المرة ليس بالنيل من سمعتي... بل

بالنيل من حياتي.

قال كلماته الأخيرة وهو يميل ناحية ديفيد الذي اتسعت عيناه فرعاً

ثم أردف:

- بل ربما تخلصوا منك انتقاماً، فكل ما يهمهم ألا أنا له أنا... وأنا

بالذات لأنني مسلم عربي... أتفهم؟!

أدار ديفيد عينيه حيرة :

- سامحني... سامحني.

- ليس بهذه السهولة... أخبرتك أن ثمن خيانتني غالي.... وان كنت

تريد أن تثبت لي صدقك عليك أن تدفعه.

شعر ديفيد بالقلق لكنه قال:

- إنني أسمعك.

- هؤلاء الذين جعلوك تضع الخنجر في ظهري... لا يريدون سوى أن

يحصلوا على كل المعلومات التي تهمهم ليستطيعوا تحقيق حلمهم وهو

السيطرة، الذي سيتحقق إذا كانت لهم عين في كل مؤسسه عالمية

سواء علمية أو حربية ليضمنوا الاستمرار لدولتهم الصهيونية، والدولة

التي رفضت أنت أن تحمل جنسيتها.. لأنها لن تضيف لك شيء.... هؤلاء

الذين يجب أن ترد لهم الصفعه وتخرج الخنجر من ظهري وتضعه في ظهورهم.

زاد قلق ديفيد وعقد حاجبيه متسائلاً:

- كيف؟!؟

- بأن تبقي ميزان القوة في تعادل، وأن تمنح آخرين نفس المعلومات التي تمنحها لهم.

ديفيد في حذر:

- آخرين.... أي آخرين؟!؟

- الذين سيعملون من ناحية أخرى... من ناحية السلام لا الحرب، من ناحية العدل لا السيطرة. لقد أخبروني أنهم سيعملون على إعادتي للمنصب على أن يحموني، لكنني رفضت ليس خوفاً وإنما لأنني أريدك أنت أن تنال المنصب كما تريد وننال نحن ما نريد دون أن يمسه أحد بسوء، لهذا كل ما ستخبرهم به من معلومات هي نفس المعلومات التي ستخبرها لأعوانك فقط لنضمن أنهم لن يستغلوا ما يعرفوا ضدنا.

وقف ديفيد مستنكراً:

- ما هذا الذي تقول يا جوزيف؟!...ألا يكفي أنني سأخون مهنتي

وسأخرج أسرارها لهؤلاء الاوغاد، أتريدني أن أنقلها لآخرين؟!؟

أمسك ياسين ذراعه قائلاً:

- أولاً لا ترفع صوتك... ثانياً..أنت قلتها بنفسك هم أوغاد، وأنت

ستخرج الاسرار لا محالته.. لهذا لا بد من آخرين يتصفون بالعدل

يكونون في الصورة معك.... لحمايتنا أولاً ولحمايتك ثانياً.

- حمايتي...أتمرح؟!؟ سيقتلوني فوراً يعرفوا بخيانتني لهم...لن

يتركوني لحظة..أنت قلتها بنفسك.

- ومن أين سيعرفوا؟! ..وأنت لن تلتق برفاقي أبداً، ولن تر سواي.. وأنا

صديقك ولا أعرف طبعاً مسألة خيانتك ولهذا ستظل علاقتنا كما

هي ولقائتنا كذلك، ومن خلال هذه اللقاءات ستخبرني بكل جديد.

وصدقني رفاقي ليسوا من الغباء لاستغلال هذه المعلومات في الوقت

الذي يعرفون أن أعوانك يعرفونها أيضاً لأن هذا يفضح أمرك، هم سيكونوا أكثر حرصاً عليك حتى من نفسك.

- وكيف لي بالثقة بهم؟!

ابتسم ياسين قائلاً:

- أعتقد أن حديثي معك الآن أكبر برهان على الثقة فيهم، لأنهم من

بدؤا بالثقة وسمحوا لي بأن أخبرك أشياء ما كنت ستعرفها على

الاطلاق، فأنا أتعامل معهم منذ سنوات ولم يعلم أعوانك شيء عن هذا

الامر برغم أنهم يحاولون إقناعك بأنهم يعرفون ديبب النمل بينما

رفاقي أخبروني بتعاونك مع هؤلاء الاوغاد وبالتفصيل.

تنفس ديفيد بعمق مفكراً فقال ياسين:

- لك حرية الاختيار.... فنحن لن نجبرك على شيء، فكر جيداً

قبل أن تجيب وخذ وقتك، سيحاول رفاقي الوصول إلى ما يريدون وإن

كنت أفضل تعاونك معهم لأنهم فعلاً سيكونوا حريصين عليك.

وقف ديفيد وهم بالانصراف فقال ياسين:

- ديفيد...أريدك أن تعلم أن عدم موافقتك لا تعني انتهاء علاقتنا

وإن كانت ستفقدني الثقة فيك بشكل أو بآخر، أما موافقتك

فستساعدني على تصديق أنك فعلاً لم تكن تريد خيانتني وأنت

كنت مجبر لتنال المنصب ومازلت لي صديق.

لم يعلق ديفيد وإنما ترك المكتب متجهاً إلى مكتبه وقد غرق عقله

في بحر من الحيرة والقلق...

"...ماذا ستفعل يا ديفيد الآن؟!...أشعر أن الامور تتدهور.. هل أصدق

جوزيف.. أم إنه يريد أن يسقط بي لينتقم مني؟!..ولكنه فعلاً أخبرني

بأشياء إذا علم بها حاييم ستكون مشكله له..وهذا يعني أنه

صاديق..تبدأ.. أنا من أسقط نفسه في هذه الدوامتة..ويجب أن أرفع

الثمن..لكن يجب أن أفكر جيداً..وأصرف بذكاء...والا ضاع مني

كل شيء.."

فور أن دخل مكتبه أمسك هاتفه الصغير ليتصل بحاييم الذي ما أن

سمع صوته حتى قال:

- ديف...صديقنا العزيز..كيف حالك؟... تري أي ربح طيبة دفعتك لتتصل بنا.

- لم؟ هل انتهى الامر؟!

- بالطبع انتهى يا عزيزي...فصديقك أصبح بعيداً تماماً عن المنصب بعد أن فضلوك عليه لتكافئك معه ونظافتك سمعتك، بعكسه هو الان.

- وماذا لو عرف بالامر؟...سيقاتل... ولو حتى لينتقم مني.

صم أذنيه ضحكتة حاييم الساخرة الذي قال:

- ينتقم منك...إنه أضعف مما تتصور..هو الان وحيد.. وأنت صديقه المخلص فلتبقى معه...وهو لن يشك فيك أبداً.

ثم غير أسلوبه الساخر لأسلوب حازم غاضب:

- وكف عن هذا السلوك الذي سيدفعه للشك فيك فعلاً، صحيح... هناك أمر كنت أريد أن أحدثك فيه.

مط ديفيد شفتيه قائلاً:

- ما هو؟!

- لم زارك عمير هذا بالامس وأي حوار دار بينكما في وجود جوزيف؟!

عقد ديفيد حاجبيه محدثاً نفسه:

"...حمقى...أنتم حقاً لا تعلمون شيئاً"

- لا شيء...كان يريد أن يحدثني لأقنع جوزيف ببراءته لكن وجود جوزيف أنهى الامر سريعاً.

- هذا جيد...لأنه سيبعد عنك الشبهة أكثر... والان نريدك أن تعد نفسك لتتال المنصب الذي طالما حلمت به ولا تنسى فضلنا عليك أيها الرئيس المحترم.

ثم خرجت ضحكه أخرى دفعت ديفيد لأن يبعد الهاتف عن أذنه ويغلقه في عنف وقد عقد حاجبيه بشده مردداً:

- أحمق...لا يهتمك سوى السخريته.... يبد وأنه من الافضل فعلاً أن أكون مع الطرف الأكثر ذكاءً وهذا ما لا أجده فيكم.

.....

حاول ياسين أن يركز في محاضراته التي غاب عن إلقائها منذ أن تدهورت الامور، ولقد نجح في ذلك إلى حد كبير متناسياً أي نظرات من طلابه ، فلقد قرران يتعامل مع الامر بتجاهل كي يتجاهله الاخرون والزمن كفيل بالباقي وان لم يستطع التوقف عن التفكير بعمير...الذي لم يظهر في الجامعة...لا يعرف كيف يتصرف... هل يذهب إليه ليخبره أنه أسف على كل شيء؟؟...ودعنا نبدأ من جديد...أم سيعيده كطالب له ثم يحدثه بعد ذلك في الجامعة؟؟...لم يشعر بصعوبة الأمر؟؟.

لن ينسَ أبداً أن عمير قالها له... "أمرك لا يعنيني" لكنه قالها وهو غاضب...غاضب من الاتهامات التي وجهها له...وهذا من حقه...ربما يجعل ريم تتحدث معه أولاً ثم يحدثه هو... نعم...هذا ما سيفعله.

بعد انتهاء اليوم الدراسي خرج ياسين متجهاً لسيارته الخاصة دون أن يشعر بالعينان التي وقف صاحبها خلف سيارة كبيرة يراقبه وفي الوقت الذي قرر الظهور توقف وعقد حاجبيه فور أن سمع...
"جوزيف...جو..انتظر"

التفت ياسين لديفيد الذي اقترب منه بخطوات سريعة قائلاً:
- جيد أني لحقت بك.

عقد ياسين حاجبيه قائلاً:

- ماذا حدث يا ديفيد؟!

نظر له ديفيد قليلاً ثم مال ناحيته هامساً في أذنه:

- أنا موافق.

عاد جوزيف برأسه للوراء مندهشاً:

- ماذا؟!!

رفع ديفيد إحدى حاجبيه وهز رأسه إيجاباً للتأكيد ، ففهم ياسين وقال مذهولاً:

- بهذه السرعة...هل فكرت جيداً؟!

- نعم....وأنا مقتنع تماماً بما أفعل.
قال ياسين بشك:
- إذا كنت تفكر في خداعي، فثق أنهم سيعدون...
قاطعته ديفيد قائلاً:
- أعلم.... وأنا لا أخدعك.... يا صديقي.
ضغط على كلمته الاخير لغرض ما استوعبه ياسين الذي ابتسم قائلاً:
- أحسنت الاختيار.
ثم رفع كفه ليصافحه فأمسك بها ديفيد ثم اقترب منه ليضمه إليه
هامساً في أذنه:
- نعم... كنت دائماً أفضل مني، وكل ما أريد هو أن نبقى أصدقاء.
عاد ياسين للخلف لينظر إليه قائلاً:
- نحن كذلك بالفعل..أصدقاء.
سعد ديفيد بكلمات ياسين ثم ودعه إلى لقاء قريب وتابعه ياسين وقد
تجهه وجهه محدثاً نفسه:
"...أصدقاء...ليس بعد ما فعلت بي أيها الوغد...أنت بالنسبة لي الان
مجرد وسيلة للحصول على المعلومات..وهذا هو السبب الوحيد الذي
سيبقيني على صلة بك...."
ثم ركب سيارته وانطلق بها، بينما ظل صاحب العينان يتابعه وقد
امتلات عيناه بالدموع وهو يردد:
"...لا فائدة... ما زلت تثق بهذا الخائن... بل وتضمه إلى صدرك...
وتلفظني أنا... ربما كانت هذه المرة هي الاخيرة بالنسبة لك
ولي....لكن يبدو....أنه لا فائدة".
خرج عمير من خلف السيارة عائداً لمنزله والحزن يكاد يقتله فعلى
صوت نفسه...
"..كان يجب أن تحدثه...كان يجب أن يعرف أنك ستفادر البلاد..."
- لم؟! فليبق بسعادته الزائفة مع صديقه هذا فأنا لست على باله
إطلاقاً.
"....إذهب إلى بيته إذا..تحدث إليه والى ريم..أختك"

- كفاك..كفاك... ألا يكفي أنني جئت إلى هنا ومع ذلك لم أرى إلا ما حطمني أكثر وألمني.... ألم تر كيف ضمه إليه... أما أنا فاكتمى بصفعة على وجهي.
- "..لن نعيد الكلام...أنت تعلم أنه فعل ذلك عندما أساء الظن بك...."
- عقد عمير حاجبيه :
- ليبق كما يريد...لن أفعل أكثر مما فعلت.
- علا رنين هاتفه الخليوي... ارتعشت يداه عندما رأى اسم ريم، ظل يحدق بالاسم على الشاشة دون حراك حتى توقف الرنين، لكنه سرعان ما عاد من جديد، يبدو وأنها مصرة.. وبالفعل أجابها لكنه لم ينطق.. فقط وضع الهاتف على أذنه ليأتيه صوتها مرهقاً:
- عمير...هل تسمعني؟!
جاهد ليرد قائلاً:
- نعم...كيف حال صحتك؟!
شعر بابتسامتها التي طالما زينت وجهها الجميل:
- بخير...شكراً على سؤالك.
لم يجد ما يقوله فقالت:
- يجب أن نلتقي.
- أأنت متعبت؟!
- أنا بخير...وأريد أن أراك...أرجوك عمير...يجب أن نتحدث...لن ينفذ الهاتف.
- صمت مفكراً...هل في مقدرة ذلك، تذكر كلمات هدى...يجب أن يلتقي بها...هذا هو الحل الوحيد لمواجهة الحقيقة، جاءه صوتها:
- عمير...أين أنت الآن؟!
- في الجامعة.
- حسناً أخرج للحديقة العامة التي بقرب الجامعة...سألتقيك هناك...بعد ٢٠ دقيقة...لن أتأخر.
- لم تمنحه فرصة للتراجع فأغلقت الهاتف، ليظل مكانه للحظات...ثم يتجه حيث سيلتقيها.

دخلت ريم الحديقة باحثة عنه حتى وجدته جالساً على مقعد ما ،
كان شاردأً وحزيناً ، ظهرت شبح ابتسامته باهتة على شفيتها..
"إذن أنت أخي.... لا أصدق وكأني أحلم....ولكن لا بأس...ربما
أحببتك لأنك أخي...ربما فيك شيء يشبه أبي... لظالما تمنيت رجل
كأبي...يبعد وأن جيناته الوراثة أثرت بك بشكل أو بآخر"
اقتربت منه أكثر فانتبه لها ليقف قائلاً:
- ريم-

كان سعيد برؤيتها كثيراً...كم خشي عليها أن يسبب لها الأذى دون
قصد...لكنه عقد حاجبيه عندما رأى شحوب وجهها فقال:
- يبد وأنك ما زلت متعبت...لم يكن لقاءنا ضروري.
جلست قائلة:

- لا تقلق...أنا بخير...هذا فقط أثر بقائي في المشفى...أنا على ما يرام.
جلس بجانبها ليمنحها ابتسامته هادئة وعاد يتطلع أمامه وعيناه تملأها
الحزن، تأملته ريم ولأول مرة تلاحظ أن عمير يملك نفس عيناها
والدها، فقالت:

- اول مرة إلاحظ أنك تملك عيناها أبي.
هز رأسه دون النظر لها أو التعليق، فضحكت:
- يا الهي...يمكنك النظر لوجهي أنا أختك.
عقد حاجبيه وهو يلتفت لها..ليجدها تبدو سعيدة فقال مندهشاً:
- هل أنت سعيدة؟!

هزت كتفها قائلة:

- هل من المفترض أن أكون حزينة؟!
نظرت أمامها لتكمل:

- هل تعلم أن من أمنياتي الشخصية أن يهني الله أخ أكبر...وعندما
كنت أخبر أمي بذلك كانت تضحك مني.... وتقول...كيف لي أن
أتمنى تلك الأمنية في الوقت الذي أنا فيه ابنتها الوحيدة...من
المنطق أن أتمنى أخ أصغر..فمن أين سيأتي الأخ الأكبر؟!...ولكن ها
هي المعجزة حدثت...ووهبني الله أخ أكبر.

- قالتا وهي تنظر له بسعادة، تأملها للحظات قائلاً:
- تتعاملين مع الأمور بشكل أفضل مني.
ابتسمت قائلة:
- تعلمت أن مواجهة الأمر الواقع والتعايش معه وتقبله...أفضل من
مقاومته أو تمنى زواله...لأنني بهذا سأزيد همي ليس أكثر.
ظل ينظر لها محدثاً نفسه:
"ما الفرق بيننا يا ترى...أنك تربيتي مع أبي الذي علمك الاعتماد
على العقل...بينما أنا تربيت مع أمي..التي طالما تحدثني عن القلب"
قاطعت أفكاره بقولها:
- عمير...لمَ لمَ تخبرني فوراً أن عرفت...ولمَ قلت لأبي أن ابنه مات؟!
أطرق برأسه أرضاً قائلاً:
- أسف...لمَ استطع أن أخبرك بنفسي...كان هذا شاقاً علي...
وبخصوص الأمر الثاني... لقد أخطأت وندمت على هذا كثيراً...ولكن
للأسف...يجب أن أدفع ثمن تلك الكذبة.
سألته مندهشة:
- ماذا تقصد؟!
- يراني مخادعاً وكاذباً....غضب كثيراً عندما عرف الحقيقة.
فهمت أنه يتحدث عن أبيها فقالت:
- هذا هو دكتور جوزيف...يكره الخداع والكذب أكثر من أي شيء
آخر...كان يقول أن كلما خدعه أحدهم شعر بالغباء...ولهذا فهو
يغضب كثيراً حين يكتشف خداع أحد.
هز عمير رأسه دون تعليق فقالت:
- لا عليك...سيهدأ حتماً...وحينها يمكنك أن تتكلماً معاً...أشرح
له سبب ما فعلت وهو سيتفهمه.
مط عمير شفتيه:
- لا فائدة...هو يراني بأبشع الصور خاصة بعدما نشر في الصحف.
عقد حاجبها قائلة:
- نشر في الصحف...عما تتحدث،، ما علاقة الصحف بالأمر؟!
٢٢٣

التفت لها:

- ماذا؟!...ألم تعرفي بما نشر في صحف أمس؟!؟

- لا...لقد كنت بالمشفى وعندما خرجت لم اقرأ أي صحف...هلا وضحت لي.

شعر عمير بالضيق من نفسه عندما انتبه لأمر وجودها في المشفى حينها، بالتأكيد لم يخبرها أبويها بسبب مرضها...لم لم يمسك لسانه؟!؟

- عمير...تكلم...ما الذي نشر في الصحف؟

لم يعلق بل لاحظت الارتفاع على وجهه فقالت باصرا:

- يمكنني أن أعرف خلال ثواني...بالدخول للشبكة العنكبوتية...فهلا قصرت علي الطريق.

- حسناً...حسناً...على ألا يصيبك مكروه؟!؟

- يا الهي...أنا بخير..تكلم.

أخبرها بكلمات بسيطة عما نشر في الصحف وسط ذهولها وغضبها في نفس الوقت، لتقول ما أن انتهى:

- كيف...كيف يجرؤوا على ذلك؟!...بل كيف عرفوا بالأمر؟.

- أعتقد أننا كنا مراقبان.

- ولم كل هذا؟!؟

زفر عمير بحرقة:

- لتشويه سمعة أباك...كي لا ينال منصباً هاماً.

- منصب...أي منصب.

تحرك عمير بعصبية:

- يا الهي ريم...تتحدثين وكأنك من كوكب آخر...ألا تعلمين أيضاً

عن المنصب الذي كان سيناله والدك؟.

- لا...لم يخبرني أحد؟!كيف عرفت أنت؟!؟

- كانت مكتوبة في الصحف...شك في ديفيد هذا كان في

محلته...هو وراء كل هذا...لينال المنصب بدلاً من أباك.

ضمت قبضة يدها لتضربه على كتفه لينظر لها مندهشاً لتقول:

- أباك..أباك...وكانه أبي وحدي...توقف عن الحديث عنه بهذا
اللقب...قل أبي..مثلي.
- صمت عمير وقد ارتسم الحزن على وجهه، فعادت لتقول:
- وإذا كنت متأكد كثيراً من أمر دكتور ديفيد لمَ لم تخبر أبانا؟
ابتسم لقولها "أبانا" لكن سرعان ما عاد الحزن لوجهه:
- لقد حاولت....ولكن...لا فائدة...يعتقد أنني أكذب للمرة الثانية.
صمتت ريم وشعرت بالحزن على عمير الذي بدا متألماً للغاية فحاولت
مواساته:
- لا عليك عمير...ربما لأنه مازال غاضب...سيتحسن الوضع حتماً...
سأتحدث إليه.. هو دوماً يسمعني.
التفت لها عمير قائلاً:
- كيف كان وأنت طفلة؟
تأثرت ريم كثيراً بسؤاله، من حقه أن يفتقد شعور وجود أباه معه،
حاولت الابتسام لتقول:
- كان أب جيد...وصعب جداً.
ابتسم لقولها لتكمل:
- رغم أنني كنت الوحيدة...لكنه لم يسمح بتدليلي كثيراً....علمني
أن أقبل بلا كرد على ما أبغاه أحياناً...فليس من المفترض أن أحصل
على كل ما أتمناه.
هزت رأسها ضاحكة لتضيف:
- والد راسته...أه من الد راسه...كان يتعبنى بها كثيراً...حتى أعتدت
على الأمر.
- كان عمير يستمع إليها متسائلاً...كيف كانت حياته ستتغير لو كان
أباه معه، التفت لريم قائلاً:
- أعتقد أنك يجب أن تكوني ممتنة لأمي...فلولا انفصالهما لمَ جئتني
للدنيا.
هزت رأسها نضياً:

- هذا غير صحيح...كنت سأتي...لكن حينها كانت الام من
ستتغير... وكنت سأبقى أختك...أرعبت... لا يمكنك التخلص مني.
قالتها بطريقة مرحمة إلا أن عمير اكتفى بابتسامته باهتة ليقف قائلاً:
- حسناً من الجيد أن أعلم ذلك...والان اسمحي لي يجب أن أذهب.
وقفت قائلة:
- هل مللت مني سريعاً؟!
- لا...على العكس...لقد أسعدني كثيراً هذا الحوار...سيساعدني
كثيراً.
- لا تقلق...ستحسن الأمور كلها قريباً.
"لم يعد هذا يهم الان ريم...سأغادر اليوم..وداعاً أختي...وداعاً"
حدث نفسه بهذه الكلمات قبل أن يقول:
- أشكرك...الى اللقاء...ريم.
ابتسمت لتمد يدها إليه:
- ان نتصافح على الأقل؟!
حدق للحظات في كفها المرفوعة له... "يا لك من فتاة...جيد أنك
تتعاملين مع الواقع أفضل مني"
شعر بالارتباك وهو يمد يده ليصافحها ، ولكن ما أن تصافحا حتى
شعر براحة غريبة، إنها أخته...أخته الصغيرة..أعجبه تلك الكلمة
فقال:
- الى اللقاء..أختي الصغيرة.
عقدت حاجبها قائلة:
- الصغيرة...امممم...ستبدأ من الان تطبق علي نظرية الأخ الأكبر
المسيطر..أم ماذا؟!
ابتسم ليهز رأسه قائلاً:
- لا..فقط أعجبني اللقب.
ترك كفها لتقول:
- وأنا ايضاً...أخي الكبير.

- ابتسما لبعضهما... ابتسامتا شعرا فيها بكثير من المودة.. ولكنها
مختلفتا عن السابق.
- افترقا ليتخذ كلا طريقه... ليعود هو لمنزله لقرب موعد السفر... فتح
باب شقته واتجه لحجرته مباشرة لكن استوقفته أمه قائلة:
- عمير... ماذا حدث؟! هل رفض جاسر أن يأتي معك ليأخذنا إلى
المطار؟!
نظر لها بحزن قائلاً:
- أنا لم أجده.
- لهذا أنت حزين هكذا... أم إنك التقيت بشخص آخر؟!
فهم عمير قصد أمه لكنه أشاح بوجهه بعيداً قائلاً:
- لم ألتق بمن تظنين.. لكني التقيت بريه.
- حقاً!.
- نعم... كلانا كنا بحاجة لهذا الحوار.
- وهل عرفت بما حدث بينك وبين ياسين؟!
- ليس كل شيء... لكنها قالت أنها ستصلح الأمور.
- ابتسمت رجاء:
- هذا رائع... إذاً فقد أقنعتك بعدم السفر.
- التفت لأمه مستنكراً:
- بالطبع لا... أنا لم أخبرها من الأساس بسفري... لأنني أعلم أنها
سترفضه تماماً... ولست بحاجة لدخول في جدالاً جديداً مع أحد.
- حزنت رجاء.. فقد تأملت أن يعدل ابنها عن قراره لكن.. يبدو أنه لا مفر.
-
- أنهى ياسين عمله بالجامعة ليعود لمنزله ويدخل مباشرة إلى حجرة
مكتبه وأمسك بالهاتف :
- معك دكتور ياسين... أين السيد خالد... أهلاً... نعم لقد فعلت
كما قلت... لقد وافق... نعم... لا أعرف.. أشعر أنه صادق... سألت
التأكد هذه مسئوليتكم أنتم... سأنتظر منك أي جديد.
- أنهى الاتصال والقى بجسده على الكرسي المواجه لمكتبه...

- "...ياااااا... لا أصدق أن ديفيد وافق فعلاً... جيد لم نخسر الكثير..
ما زال بإمكاننا أن نلقن هؤلاء الاوغاد درساً... حسناً لقد انتهت هذه
المشكلة إذا صدق ديفيد فعلاً.. ولأن يجب أن أفكر في عمير...
المسكين أسأت إليه كثيراً وقد تحملني ولكن أخيراً فاض به
الكيل... يجب أن أحاول إعادة الامور إلى نصابها....."
خرج من مكتبه صاعداً لحجرة ابنته التي كانت معها دينا التي قالت:
- عاد أبوك العزيز.
ابتسمت ريم فنظر لها أبيها قائلاً:
- ريم... حبيبتي كيف حالك؟!
- أنا بخير..أبي.
ضافت دينا:
- لقد أصرت على الخروج اليوم لتستنشق الهواء.
جلس ياسين بجانبها قائلاً:
- لا بأس...مادامت أصبحت بخير.
أطرقت ريم برأسها قائلة:
- في الحقيقة..أنا لم أخرج لاستنشاق الهواء فحسب...لقد...لقد التقيت
بعمير.
حدقا بها في دهشة فأردفت:
- هو أخي أليس كذلك؟!...أردت أن أتحدث معه.
عقدت أمها حاجبها قائلة:
- لكنك ما زلت في فترة النقاهة..ليس من المفترض أن تعرضي
نفسك لأي ضغوط نفسية.
هزت رأسها:
- ولكني لم اشعر بأي ضغط نفسي...لقد كنت سعيدة بأن ألتقي
بأخي.
تأمل ياسين وجهه ليقول:
- حقاً...هل هذا هو شعورك؟.
ابتسمت قائلة:

- نعم أبي... من الجيد أنني لم أمر معه بقصة حب قوية وطويلة...
بالتأكيد حينها كانت صدمتي ستكون أقوى... عمير شاب رائع... وقد
ملت له عاطفياً فعلاً... لكن.. ربما حدث هذا لأنه أخي... لأنه
ابنك...أبن أبي... أغلى من لي على وجه الأرض.
عقدت دينا حاجبها قائلة:
- وأنا...هل ما زلت تذكريني؟!
ضحكت ريم قائلة:
- حبيبتي...أنت وأبي سواء...كيف لي العيش دونكما؟؟.
ثم التفتت لياسين قائلة:
- أبي...عمير حزين جداً...يشعر أنك لا تريده على الإطلاق...لم وصل
لهذه المرحلة؟!
مطت دينا شفيتها وهي ترمق زوجها الذي أشاح بوجهه بعيداً قائلاً:
- ربما لأنه كذب علي...أم أنني قسوت عليه...وبشدة...لكنك
تعرفين أباك يكره الكذب.
- نعم أبي.. أعلم... يجب أن نصلح الأمور... يجب أن نتحدث معه أبي.
- هذا ما أفكر فيه أنا أيضاً.
- حقاً...رائع.
قالت لها لتلهب كفيها بالتصفيق، ابتسم ياسين لكنه التفتت لهاتفه
الذي علا رنينه فالتقطه ليحجب، فجاء صوت خالد:
- ياسين...أريد أن أخبرك شيء..أعتقد أنه يهمك.
وقف ياسين ليترك غرفة ابنته قائلاً:
- أسمعك.
- ابنك سيفادر البلاد الليلة...بمعنى أصح بعد ساعات قليلة جداً.
تسمر ياسين مكانه، واعتصر الهاتف في يديه قائلاً:
- ماذا؟!...سيفادر...هل أنت متأكد؟!
- نعم..متأكد...لقد حجزت ذكرتين له ولأمه، أردت أن أخبرك لتعلم
أن أمرك يعيننا أيضاً...إذا أردت اللحاق به..فتحرك الآن...لا يوجد
وقت.

هز ياسين رأسه غير مصدق، فأسرع لغرفة ريم:

- ريم... ارتدي ثيابك بسرعة.

قالها بعصبية أصابتهما بالقلق لتقول دينا:

- ماذا حدث يوسف؟!

- هذا الاحمق سيغادر البلاد.

- عمن تتحدث؟!

- عن عمير.

حدقتا به في ذهول فأسرع يصرخ في ابنته:

- هيا ريم.. لا يوجد وقت... سأنتظرك في السيارة.

.....

الفصل التاسع عشر "الأخير"

حمل عمير إحدى الحقيب ليضعها في السيارة الاجرة وبينما يلتفت

ليعد وينادي أمه توقف بعد أن رأى سيارة يعرفها جيداً تقترب انتظر

حتى اقتربت السيارة وهبط منها قائدها الذي كان ينظر له بحزن

شديد ، فقال عمير:

- كنت أعلم أنك ستأتي.... ولن تتركني أرحل دون أن أراك.

حدق جاسر في وجهه قليلاً وقال:

- ما زلت تصر على السفر إذاً.

أطرق عمير برأسه أرضاً ، فأردف جاسر:

- حسناً كما تريد.... المهم أن يكون سفرك لمصالحتك وان كنت

أشك في ذلك.

رفع عمير رأسه قائلاً:

- أرجو أن تدعوا لي...فأنا بحاجة لهذه الدعوات.

أوماً جاسر برأسه ونظر خلف عمير حيث ظهرت أمه التي ابتسمت عندما

رأت جاسر واقتربت منهما قائلة:

- جاسر... جيد أني رأيتك قبل أن أسافر... سأفتقدك كثيراً يا ولدي.

- بل أنا الذي سأفتقدكما كثيراً أمي ، ولكم يحزنني أن تغادرا

هكذا.

تحولت ابتسامتها إلى ابتسامته حزينة قائلة:

- وأنا مثلك يا ولدي.... وأنا مثلك.

ثم التفتت لابنها قائلة:

- سأنتظر في السيارة.... استودعك الله يا جاسر.

- وأنا أيضاً استودعك الله أُمي.

تركتهما ودخلت السيارة التي وقف سائقها في انتظار عمير الذي ظل

يحدق في وجه جاسر وبدأت الدموع تتألق في عينيه ولكنها ظلت

حبيسه فيها وقال:

- بعد انتهاء الدراسة... سأرسل لك دعوة لتأتي إلي وتزورني في

موطني.... وتتعرف على أهلي وأصدقائي.

ابتسم جاسر في ألم:

- أشكرك.

ضربه عمير على كتفه برفق قائلاً:

- ما هذا الشكر الغريب؟... وعلمنا تشكرني؟.... هل تتصور أنك

ستتخلص مني بهذه السهولة... هيهات.

لم يتمالك جاسر نفسه فانطلقت العبرات تتدافع على وجنته وألقى

بنفسه في صدر عمير الذي ضمه إليه بقوة وهو يهمس في أذنه:

- سنظل أخوة..كما نحن..ولن يتغير شيء...ولعل يوماً نذهب معاً إلى

فلسطين ونزور فهد.

ظل جاسر متعلق بعمير الذي أخذ يربت على كتفه برفق ليتركه

يضرغ الشحنة التي ملأت جوارحه حتى رفع جاسر رأسه وهو ينظر لعمير

بعينان زادتا إحمراراً وقال:

- لا أريد أن أكون أنا...مادمت لا تريد البقاء..أتمنى لك التوفيق في

أي مكان تكون... كنت أعلم أنك ستتركني وترحل لكني لم

أتصور أن يكون الأمر بهذه السرعة.

- لا بأس أخي.... يجب أن أرحل الآن.... استودعك الله.

رد جاسر له التحية وضمه إليه مرة أخرى ليتجه عمير للسيارة مشيراً
للسائق بالانطلاق وتنطلق السيارة تاركة جاسر خلفها يشعر وكأنها
تسرق منه جزء لا يتجزأ من جسده وتأخذه بعيداً رغماً عنه.
ظل واقفاً يتطلع إلى نهاية الشارع الذي اختفت فيه السيارة متمنياً
عودتها، متخياً أن عمير سيطلب من السائق أن يعود ولكن لم يحدث
وظل جاسر وحده ليعد له شعور جديد بالوحده والغربة التي شعر بها
عندما فقد أباه وأخاه.

.....

كادت ريم أن تجن، كيف يسافر؟!...كيف حدث هذا؟!...كان معها
من ساعات قليلة ولم يقل لها شيء... معقول.. لماذا؟!.. لماذا؟!
التفتت لابيها قائلة:

- من قال لك أنه سيسافر أبي... كان معي ولم يتحدث عن ذلك
مطلقاً؟!!

عقد ياسين حاجبيه:

- صديق لي أخبرني...وأعتقد أنه لم يخبرك لعلمه برفضك للأمر
حتماً... لا أعرف كيف يفكر هذا المجنون؟!... يترك دراسته وحياته
العلمية ومستقبله بهذه السهولة.

رمقت أباها بنظرة عريضة ثم قالت:

- ماذا فعلت مع عمير أبي؟!...لأي درجة كنت قاسي معه...ماذا فعلت
لتجعله يفر هكذا؟!

شعرت بتوتره وارتجافه بينما يتشبث بعجلة القيادة وكأنه يخشى أن
تفلت من قبضته، لم يعطها جواباً، فملامحه حملت لها الكثير، أغلقت
عينها في ألم، وعادت تنظر للطريق التي كانت السيارة تلتهمه التهاماً
بغية الوصول.

ما أن وصلت سيارتها حتى توقفت أمام جاسر الذي كان لا يزال في
مكانه، لتخرج منها ريم مسرعة له وما أن رأت وجهه الباكي الحزين
حتى فرغت:

- ماذا حدث يا جاسر... وأين عمير؟!
ظل جاسر يحدق في وجهها ثم رفع رأسه لياسين الذي اقترب هو الآخر
قائلاً:

- تأخرتما كثيراً... كثيراً.

قالها جاسر في ألم فقالت ريم:

- هل غادر؟!

أوما برأسه، فالتفتت لأبيها:

- يمكننا أن نلحق به في المطار هيا أبي.

أوقفهما جاسر الذي قال مهاجماً ياسين:

- لم فعلت هذا به دكتور جوزيف؟! لم؟! لكم كان يحبك

ويحترمك... ولكن.. ولكن.. أنت لم تُقدر هذا بل أسأت إليه كثيراً

وبلا سبب، سامحني... أنا أيضاً أحترمك كثيراً، ولكني لن أنس أنك

كنت السبب الوحيد في أنني خسرت هذا الشاب، وصدقني... ستندم

على هذا كثيراً.

حدقت به ريم للحظات ثم التفتت لأبيها الذي لم يعلق على كلام

جاسر وإنما تحرك للسيارة، فتبعته لينطلقا بها مجدداً.

شعر ياسين بألم رهيب يجتاح أعماقه:

"معقول... أيمكن أن أخسره ثانية؟!... تباً لك يا ديفيد.. لقد ساعدت

في ذلك بفضلك الحقير مع أعوانك... لا يا ياسين كفاك لوماً

لغيرك... في الماضي لومت رجاء والأن تلوم ديفيد وكأنك بريء من

كل ما يحدث... نسيت أنك أنت أيضاً كنت أنانياً فيما مضى، ومتسرعاً

فيما حضر.. والنتيجة واحدة...ها أنت تخسره مرة أخرى، ولكنك لن

تخسره وحدك ستخسره ابنتك أيضاً..."

يجب أن يستعيده، لم يحرم منه مجدداً؟... لم يجب أن يعيش بدون ابنه

الوحيد؟!.. لن يكرر خطأ الماضي... عليه أن يسعى لأصلاح ما تهدم، لن

يجعل دخول عمير الى حياته تقلبها رأساً على عقب.. بل سيجعلها اضافة

جميلة ومشرقة له ولا بنته.

تعالت أصوات الاشخاص سواء كباراً أو صغاراً ما بين مستقبل لحاضر أو مودع لمغادر ووسط هذا الزحام كان عمير يدفع العربته التي حملت حقائبها وخلفه أمه تمسك بذراعه وقد امتلأ قلبها ألم وحسرة فهي تعلم جيداً أن هذا الرحيل ليس ما كان يريد ابنها وأنه يفعل ما يفعل رغماً عنه.

- انتظريني هنا أمي حتى أسلم الحقائب وأعود لك.
قالها عمير لأمه وهو يشير لبعض المقاعد الخالية في صالمة الانتظار، جلست أمه وسرعان ما عاد لها وجلس جانبها دون أي تعليق ظلت تسترق النظر له بينما شرد هو بعيداً... لتحدثه نفسه:
"....سترحل يا عمير أخيراً... أرجوا ألا تندم بعد ذلك.... وتذكر أنك تترك خلفك أباك وأختك... العائلة الحقيقية التي كنت تحلم بها دوماً...."

"ولكن هذا ليس ذنبي.... هم من لا يريدوني... هم.. لست أنا.."
رفع بصره متطلعاً للباب الرئيسي للمطار الذي يدخله الكثير ويغادره الكثير، منهم من يحمل البسمة على وجهه ومنهم من يحمل العبرة على خده سواء حزناً أو فرحاً. وتمنى عمير أن يرى أباه يدخل من الباب باحثاً عنه لكنه سرعان ما ابتسم لسخافة تخيله....
"....ماذا أصابك يا عمير... أتتصور نفسك في فيلم سينمائي..."
وقف عمير قائلاً لأمه:

- دعينا ندخل للقاعة الأخرى يا أمي لنكون بالقرب من باب الطائرة
فلا نتحرك كثيراً عندما يحين الرحيل.
هزت رجاء رأسها في أسى قائلة:
- كما تريد يا بني.. كما تريد.

"...عميييييييييير...."

التفت ورجاء لمصدر الصوت ليرى ياسين يقف على مسافة ليست قريبة وبجانبه ريم، ظلوا يتطلعون لبعضهم البعض حتى قالت رجاء:

- أبوك يناديك... وعليك أن تجيبه.

ثم دفعته ليتجه إليهما فخطا إليهما ببطء حتى وقف أمامهما. أول ما رأى دموع ريم مما ألمه كثيراً فنظر في عينيها مواسياً، أثرت ريم الصمت فهي تعلم أنه يريد سماع أبيه وليس سماعها هي. ليصله صوت ياسين: - عمير.

نظر له بنظرة لا تخلو من الغضب والحنق فأكمل:

- أعلم فيما تفكر؟!.... ولا ألومك أبداً...أنا أخطأت في حقك..

أخطأت كثيراً.. ولكن هل منا من هو معصوم من الخطأ.. وأنت ساعدتني على مثل هذا الخطأ عندما لم تكن صادقاً معي.. والان أرى أنه من حقنا أن ننال فرصة أخرى، أريد فرصة..أخرى.

قال عمير بلهجة تشوبها بعض السخرية:

- فرصة أخرى.... وكم من فرصة أخرى كنت أسعى إليها أنا، فلم أجد منك غير كل غضب وكره وعدم قبول، والان تقول فرصة أخرى..أعتقد أن كل الفرص قد انتهت دكتور.

نظرت لهما ريم بحيرة وتأكد لها شعورها بجهل ما قد حدث من أحداث تبد وجسيمة، فقال ياسين:

- نحن من نخلق الفرص..نحن...وربما ننجح لو حاولنا من جديد.

أجاب عمير في اقتضاب:

- ربما.

كان من الواضح لياسين أن عمير لن يتقبل منه شيء وهذا ما شعرت به ريم ورغم عدم استيعابها لما حدث إلا أنها أرادت مساعدة أبيها بل ونفسها باقناع عمير بالبقاء فقالت:

- عمير..أخي...لكم أنا سعيدة بهذا اللقب الذي ألقبك به.... ولا أريد أن أفقده أبداً.

ثم مدت يدها لتمسك بكف يده قائلة:

- أخي...ابق معي..لا ترحل..أنا بحاجة لأخ مثلك.

نظر إلى يدها التي احتضنت كفه ثم نظر لها بحزن فأردفت ريم:

- عمير.... لا ترحل... أرجوك.
مد يده الأخرى يربت على كفها برفق قائلاً:
- ريم.... أنتِ أختي... وعلاقتنا ستستمر مهما كانت الظروف...، وحتى
لو ابتعدت سنبقى على اتصال دائم.
- أنا لا أفهم.. لمَ ترحل؟!... ماذا حدث؟! لمَ لم تخبرني؟!... لمَ؟!
نقل بصره لياسين قائلاً:
- الكثير حدث ريم.... لكن لم يكن هناك وقت للتفسير...
ثم هز رأسه مستطرداً:
- ما كان يجب أن تكلفنا نفسيكما عناء المجيء.
نظر له ياسين طويلاً أما ريم فلم تقوى أن تتماسك فعلا صوت بكائها
وقال الاول:
- كنت أظن أننا سنتمكن من إعادتك ربما لو كنا جننا باكراً.
أطرق عمير برأسه قائلاً:
- لا أعتقد.... قراري بالسفر لم يكن سيتغير.. سأسافر في كل
الاحوال.
ابتسم ياسين في سخرية وقد تهافتت على رأسه ذكريات الماضي
عندما قال نفس الكلمات لعاطف عندما قرر ترك رجاء والسفر:
- كلماتك هذه تذكرني بكلمة قلتها فيما مضى.. لم أتصور كم
كانت قاسية حينها... ولكن ها قد عرفت الآن.. أراد الله أن أسمعها أنا
أيضاً.. أسمعها منك... لأنني يبدو وكأنني قلتها لك دون أن أدري.. ولكم
أنا نادى عليها الان.. وها أنت ترى حصادها... فأرجوك لا تخطيء
خطئي.
تأمله عمير قليلاً ثم قال:
- لا تقلق... لأنني ببساطة لن أفعل مثلك.. وألقي بكل شيء خلف
ظهري، أنتما الان جزء لا يتجزء من حياتي ومن الصعب بل ومن
المستحيل أن أنساه أو أغض الطرف عنه.

تألم ياسين لكلام عمير لكنه لم يغضب بل بالعكس كان يتوقع أكثر من ذلك لكن... عمير كان رحيب معه هكذا كان يردد في نفسه، فتكلم عمير قائلاً:

- لقد تعلمت منك الكثير.. ولا أستطع أن أنكر هذا، وأنا لا أقصد ما تعلمته فقط في دراستي العلمية بل أيضاً في حياتي العملية، نعم كان لك أثر في حياتي... رغم أنني أعلم أنك لم تسعى لشيء كهذا، كما أنني لم يكن لي تأثير عليك.. والدليل استمرارك مع هذا المسمى ديفيد وإن كنت تصورت أن الحسنات الوحيدة التي فعلتها هو أن أوضحت لك حقيقة هذا الشخص.

اندهش ياسين من ذكر عمير لديفيد فقال:

- نعم لقد فعلت... ولكن... ديفيد... هذا الرجل له قصة ربما يوماً ما سأخبرك بها.

- أشكرك لا ترهق نفسك... لا أرى...

قاطعه ياسين:

- أنت لا تفهمني... ولا تعرفني.

- وأنت أيضاً لا تعرفني.

عض ياسين على شفثيه:

- لا فائدة إذاً... لن تعدل عن قرارك.

أطرق عمير برأسه دون تعليق ثم رفعها قائلاً:

- سأتأخر.. يجب أن أغادر.. استو...

قاطعه ريم التي تعلقت بذراعه:

- لا... لا.. لا يا أخي.. لا ترحل... أنا بحاجة إليك... صدقني... أنا

بحاجة إليك.. لم تريد أن تحرمني من حلمي الذي تحقق فجأة؟... لم

ترد أن أعود وحيدة بلا أخ؟.

تألم عمير لها كثيراً، كاج العبرات التي تريد أن تنز من عينيه

فرجع كفه يربت على ظهرها بحب أخوي صادق:

- ريم... أختي الصغيرة... صحيح أننا أخوة غير أشقاء.. لكنك

أختي... وستظلين كذلك.. ويجب أن تعلمي أنني أحبك كثيراً وفخور

بك أيضاً ، لن أتركك يا ريم...لن أتخلي عنك... ربما ستبعدنا
المسافات لكن دائماً ستقربنا الصلّة التي تربطنا وهي صلّة دم
ورحمه..فلا تقلقي..وإذا حدث واحتجتي لأي شيء..أي شيء... أرسلني
لي...وستجديني أمامك... مهما كنت مشغول...سأتي إليك..لأكون
معك..نعم العون والرفيق والأخ.. فلا تبخلي علي بأمر كهذا.
تماسكت ريم قليلاً خاصة أن كلام عمير أراح قلبها الحزين المتألم
فرفعت رأسها لتملأ عينيها بصورة وجهه وكأنها تخشى أن تنساها أو ألا
تراه مرة أخرى.

تناهى إلى سمعهم صوت نداء الطائرة التي سيستقلها عمير، فالتفت
عمير ليري أمه ما زالت في انتظاره تنظر له في حزن وأسى فالتفت لهما
مرة أخرى ومد يده يصافح ريم بقوة قائلاً:

- استودعك الله يا ريم.... سنظل على اتصال ، والان أريد أن أرى
ابتسامتة ريم المشرقة المتفائلة دائماً ، أما عن هذا الشحوب فسننتغاضى
عنه هذه المرة لكني لا أريد أن أراه على وجهك مرة أخرى.
أومأت ريم برأسها ومقلتيها سابحه في دموعها وحاولت الابتسام لكنها
فشلت في ذلك فشلاً ذريعاً مما أحزن عمير لكنه تماسك ثم نظر
لياسين قائلاً:

- استودعك الله دكتور.

أمسك ياسين بكف عمير قائلاً بنبرة حزينة :

- دكتور!...ألا يمكنك أن تنادينني باللقب الذي أحب أن أسمع
منك؟

أطرق عمير برأسه دون أن يجيب فابتسم ياسين ألماً:

- إذا فقد ورثت من أمك هذه الصفة.

نظر له عمير بعينين متسائلتين فأردف موضحاً:

- لا تقول إلا ما تشعر به حقاً.

قطب عمير حاجبيه وشعر بالحزن الذي في عيني أباه ...

"....لم تفعل هذا يا عمير؟ ..هو أبوك..وها هو الان جاء من أجلك..

من أجلك أنت فقط..بالله عليك لا تكن قاسياً.."

أغلق عينيه وعاد يفتحهما ثم أفلت يد ياسين واستدار ليغادر دون
المزيد من الكلام .

- انتظر عمير .

التفت لينظر لياسين الذي أسرع خلفه يلحق به واستطاع أن يرى عينا
أبيه اغرورقت بالدموع كأنها اشتاقت للخروج وتأثر بهذا، نعم شعر
وكان قلبه يتمزق لكنه ما زال واثق أن بقاءه هنا مستحيل يجب أن
يرحل، لكنه لم يبد هذا على وجهه فتوقف ناظراً إليه فحدق ياسين
في وجهه قليلاً ثم قال:

- هناك شيء أنا مدين لك به...كنت تنتظره مني...أما الآن..فربما
لن يعن لك الكثير لكنه سيعني لي أنا فهل تسمح لي أن أفعله؟!
لم يفهم عمير فانبعثت نظرات الدهشه من عينيه لكنه قال:
- افعل ما بدا لك دكتور.

دنا منه ياسين أكثر ثم رفع ذراعيه وضمه إلى صدره بقوة كبيرة حتى
أن عمير شعر وكأن أضلاعهما ستمترجا لكن ظلت ذراعيه في
موضعها لكنه سرعان ما زاد شعور الألم في قلبه وشعر بشيئاً فيه شيء
دفعه بأن يرفع ذراعيه ليربت على ظهر ياسين، لم يستطع أن يفعل
أكثر من ذلك، تركه ياسين على مضض وكأنما أراد أن يظل يضمه
هكذا أطول فترة ممكنة ثم نظر له قائلاً:

- هل يمكننا أن نتراسل؟!

حاول عمير الابتسام قائلاً:

- بالتأكيد .

- سأعمل على أن تتعرفني أكثر .

- وأنا أيضاً .

- ويمكن أيضاً إذا أحببت أن تأتي لزيارتك أنا وريم .

رفع عمير حاجباه بتأثر:

- حقاً!!

أوما ياسين برأسه وعلى وجهه ابتسامه كبيرة:

- حقاً.... فكم أفتقد العودة للوطن خاصة إذا كنت سأراك .

عاد النداء على طائرتة يتكرر فالتفت سريعاً لأمه التي ظلت مستسلمة مكانها لم تحاول أن تناديه أو أن تعجل من أمره وهو يعلم أنه حتى لو تحركت الطائرة ما قالت أمه شيء، فقال وهو يعود بظهره:
- يجب أن أغادر سأكون على اتصال.
ثم استدار مسرعاً إلى بوابة المرور ليلتقي بأمه التي ربتت على وجنته بكفها الرقيق بينما عاد ياسين لريم التي جفت دموعها تقريباً قائله:
- هل سنراه ثانية يا أبي؟!
- إن شاء الله يا بنيتي، ولو هو لم يسعَ لذلك... أعدك أن نسعى نحن لذلك سنذهب إليه حيثما كان....حيثما كان.

جلست رجاء في مقعدها بجانب عمير وأخذت تلقنه دعاء السفر كما اعتادت أن تفعل معه منذ صغره ورغم أنه يحفظه عن ظهر قلب إلا أنه لم يكن يتضايق أبداً من ترديده خلفها. لم تُرد أن تتكلم معه في شيء فلقد انتهى الأمر وها هما عائدان إلى أرض الوطن ورغم ضيقها من ظروف هذا السفر إلا أنها كانت سعيدة أنها سترى صديقتها ورفيقتها عمرها هدى وكذلك عاطف وبناتهم فأخرجت المصحف من حقيبتها الصغيرة لتقرأ فيه كما تفعل دائماً عند السفر أو الانتقال لمسافات طويلة أما عمير فكان يفضل دائماً أن يرخي جسده في مقعده ويغلق عينيه استعداداً لنوم عميق حتى الوصول، لكنه وهو بين النوم واليقظة كانت هناك صورة ملأت الظلام المحيط به إنها صورة ياسين كان ينظر له بوجه حزين متألّم ولكن عمير لم يشعر أنه قادر على تغيير ذلك بشي، فأراد أن يزيج هذه الصورة من رأسه فانتقل بعقله لموطنه ولعائلته التي يفتقدتها كثيراً وتخيل السعادة التي سيراها على وجوههم بعودته المفاجئة التي لا يعلم عنها أحد شيئاً.

.....

جلس عمير في الشرفه محديقاً في الطريق الذي انهكته السيارات العابرة والاقدام المسرعة فلم يشعر باقترابها منه إلا أن قالت:
- عمير.. أخي ... إلى متى ستبقى حزين؟!

- التفت لها وقد رسم على وجهه ابتسامته مصطنعة:
- من قال أني حزين نيرة؟!
قطبت حاجبيها قائلة:
- لن تخدعني بهذه الابتسامته الزائفة.... وجهك يضحك عندما تضحك عيناك لا شفتاك، وعيناك لا يملأها إلا الكثير من الحزن.. أئن تتحدث معي؟!
- نيرة.. دعيه.
- التفتت لأبيها الذي وقف خلفها قائلاً هذه العبارة ثم أردف:
- لا تضايقيه.
- أنا لا أضايقه أبي.. أنا أريد أن أساعده.
- أفهم صغيرتي... أفهم... هل يمكنك أن تتركينا الآن؟!
غادرتها نيرة فعلاً فجلس بجانب عمير قائلاً:
- منذ أن عدت أنت ورجاء فجاء وقصت لنا أمك كل شيء، تركتكم ولم أتحدث معك حتى تفيق، ومما فهمت منها أنك عدت لتسترجع كيانك وطموحاتك ومع ذلك ما زلت أرى أمامي كتله من الحزن واليأس.
- نظر له عمير قائلاً:
- لم تقول هذا أبي؟!... لقد عدت للدراسة فعلاً وبدأت استعيد حلمي.
- أنا لا أتحدث عن هذا إنما أتحدث عن هذا.
- قال كلمته الأخيرة وهو يشير لصدر عمير مردفاً:
- هذا القلب المليء حزن ويأس.... عمير دعني أسألك.. هل أنت نادم على العودة؟!
تمنى عمير أن يجد إجابة على هذا السؤال الذي ما زال يتردد داخله فقال:
- لا أعرف ، تصورت أنني بعودتي أريح نفسي من هموم كثيرة لكن... لكن وكأني أصطحبتها معي.
- كان يجب أن تتوقع هذا.
- لم أكن في حاله تسمح لي بأي توقعات.

- تريد أن تذهب لهما!
- ما أنا واثق منه..أنني لا أريد أن أذهب... فالحل ليس في ذهابي.
- ولم يكن في عودتك.
- على الأقل حاولت أن أجد حلاً...ولكنني عرفت الآن أن الحل يجب أن يأتي من...
لم يكمل عمير فابتسم عاطف مشيراً إلى صدره قائلاً:
- من هنا.
ارتسمت على شفتي عمير ابتسامته باهتة وهو يقول:
- نعم...من هنا.
تعالا رنين هاتفه الخلوي ليقرأ أسم متصله فرد مبتهجاً:
- جاسر...أخي..كيف حالك؟!...ماذا؟!...ماذا تقول؟...حقاً...حسناً..حسناً...لنتحدث فيما بعد.
نظر له عاطف متسائلاً..فهز عمير رأسه قائلاً:
- لن تصدق...يقول أن دكتور جوزيف سيتحدث عن حقيقة قصته معي التي نشرتها الصحيفة على قناة انجليزية الان.
وقف عاطف:
- هيا لنراه إذاً.

أسرعا للتلفاز ليخطف عمير جهاز التحكم من هدى قائلاً:
- معذرة أمي...ستفهمين الآن.
تعلقت عيون الجميع بالشاشة حتى عثر عمير على القناة المنشودة
للتسع عيون الجميع تقريباً ، لتردد رجاء:
- ياسين...ما الذي يحدث؟!

لم يقل عمير شيء بل ظل يحدق في الشاشة التي اقتربت كثيراً من وجه ياسين ليبدأ الكلام فقال عاطف:
- دعونا نستمع إليه.
تعلقت عيونهم بالشاشة وأذانهم بالصوت وياسين يقول:

"القليل جداً منكم يعرفني، والكثير لا يعرف عني شيئاً...ولكن بعد ما نشر في الصحف أعتقد أن الجميع أصبح يعرفني....لقد فكرت كثيراً قبل أن آتي إلى هنا، هناك من نصحتني بتجاهل الأمر..وعدم الاكتراث لهذه القصة الملفقة التي نسبت إلي والى عائلتي ... لكني رفضت هذه الفكرة... لأنني أكره أن يتجاهلني أحد أو أن يتجاهل عقلي وفكري...ولهذا رفضت أن أتجاهلكم.... وشعرت أنني مدين لكم بالتفسير ليس لأبرياء ساحتي....فأنا مذنب ... ولكن قبل أن تتسرعوا بالحكم علي...دعوني أخبركم ما هو ذنبي.... لأنه أبعد ما يكون عما نشر في الصحف، فأنا لم أكن سوى رساله..من الله...وأرجوا من الجميع أن يبقى ويسمعني لأنني أعلم أن نسبتة لا بأس بها من البريطانيين لا يؤمنون بوجود الله ومع ذلك أريدهم أن يبقوا ويسمعوني..... الكثير منا يصاب بشيء في الماضي يجعله يريد أن ينساه دون أن يفكر في العواقب....وأنا كنت كذلك..... لم أنجح في زواجي الأول فأجبرت نفسي على نسيانه دون أن أفكر في العواقب وجئت إلى هنا وتزوجت وأكملت حياتي في الوقت الذي كان ينشأ لي طفل....ابن...بعيداً عني...أحسنت أمه إليه فأحسنت تربيته..ورزقت أنا بابنة وكبرا... تفوق الابن ومنح فرصة للدراسة بالخارج وشاء الله أن يكون تلميذي والتقينا...وصدقوني لم يكن كلانا يعرف بحقيقتنا الصلة التي تربطنا...ولم أتصور أبداً أن يكون ابني..ولا هو خطر على باله أن أكون أبيه...أعجبت به كثيراً... والتقي بابنتي وتمنيته زوجاً لها وأكمل القدير ما أراد بنا وبالفعل أراد أن يتزوج ابنتي..وهنا كانت المفاجأة والصدمه للجميع فطوال معرفتي به لم ألتقي بأمه لكن يوم الخطبة جاءت الأمر..واتضح الحقيقتة... وتلقيت على وجهي أول صفة من الماضي الذي تناسيته دون أن أهتم... وتوالت علينا الصفعات التي تلقى ابني أكثرها وكذلك ابنتي ولكنه ابداً لم يسع للانتقام مني بل إلى النهاية أراد أن يكون بجانبني لكني أنا من كان عنيداً.... وهذا هو ذنبي الكبير الذي أعترف به...عنادي..الذي أفقدني متعة تربيته شاب مثله بل والاحتفاظ به بعد أن عثرت عليه وأمام عنادي لم

يكن أمامه سوى الرحيل.... هذه هي حقيقة الأمر.... أنا لم أنكر أبداً
نسبي... فأنا لم أكن أعلم بوجوده.. وبعد أن علمت.. تصرفت بتهور
وحماقه فمرضت ابنتي وتألم ابني وها أنا أدفع الثمن غالياً ويكفي
المنظرة التي أراها في عيون البعض ممن صدقوا ما نشر والألم البشع
الذي أشعر به.... فقدت ابني بعنادي وكبري.... وليته يسمعني الآن
ليعلم كم أفقده وأتمنى عودته.... هذه هي حقيقة الأمر بلا زيف أو
افتراء... بقى أن أوضح الرسائل التي ذكرتها مقدماً.... وربما أراد الله أن
أكن أنا من أوضحها لكم لأنني عشت بينكم وأعلم الكثير من
عاداتكم وتقاليدهم، وإن القليل من الأضواء علي.... رسالتي لكل
أب.... له ابن أو ابنه لا يعلم عنهما شيء.. أخرج وابحث عنهما فاعلما
يكونا أقرب مما تتصور... وأنت أيتها الأم التي قبلت أن تتنازل عن
ابنها لغيرها ابحتي وتفقدتي حاله فاعله يكون هذا المتشرد الذي
تشمئزين كلما رأيته يفترش الشارع بلا مأوى.... وأنت أيها الأخ إذا
كان لك أخت فابحث عنها فربما تكون هي نفس الفتاة التي تحتضن
كفها الآن لتعبر لها عن مشاعرك وحبك.... حافظوا على أنسابكم
وأسابكم وأرحامكم كي لا تندموا كثيراً وتتألموا طويلاً.... هذه
رسالتي ولا أريد بها أن أفزعكم أو أريبكم في كل من حولكم
.. فقط احذروا.... احذروا.. وليس لدي المزيد لأقوله... سوى... سامحني
يا بني... سامحيني يا ابنتي، وثق يا بني أننا قريباً سنلتقي"
قال كلماته الأخيرة وهو متماسك لآخر لحظة وإن كان ليس من
الصعب رؤية العبرات تتألق في عينيه أما مشاهديه فلم يتمالكوا
أنفسهم فانسابت الدموع على وجهه وجاء وهدى وحتى نيرة الصغيرة أما
عاطف فظهرت على وجهه معالم الحزن والأسى وهو يقول:
- لا أصدق أنه فعل ذلك.

ثم التفت لعمير الذي ظل يحدق بالشاشة رغم اختفاء صورة ياسين من
عليها ثم عاد للوراء مغادراً الغرفة وعاد للشرفة التي يحب دائماً أن يقف
فيها وأخذ يعيد كل كلمة قالها ياسين خاصة..

"سامحني يا بني.... وثق أننا قريباً سنلتقي"

